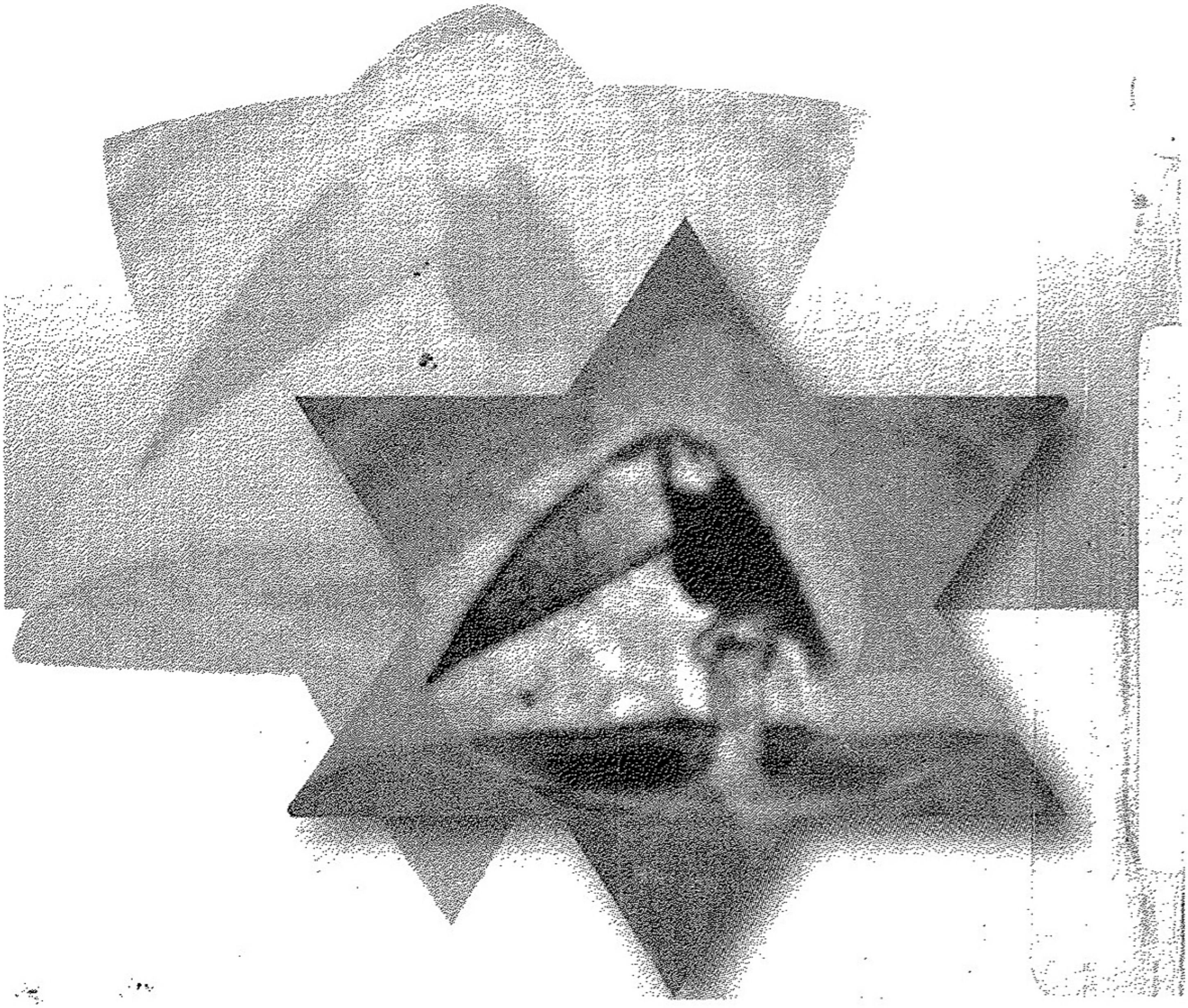
كتاب الهلال

التجانس اليهودى والشخصية اليهودية

د . عبد الوهاب المسيرى



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٤٧ - رمضان ١٤٢٥ هـ - نوفمبر ٢٠٠٤ م
No 647- No - 2004

أسعار بيع العدد فئة ٧ جنيهات

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٥٠٠ فلساً - السعودية ١٢ ريالاً - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالاً - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

التجانس اليهودى والشخصية اليهودية

د. عبد الوهاب محمد المسيرى

الغلاف للفنان :
محمد أبوطالب

تقديم

يضم هذا الكتاب عدة موضوعات تتناول طائفة متنوعة من الاحداث والظواهر المتعلقة باليهودية والصهيونية، وبمسار الصراع العربى الصهيونى. ولأننى لا أؤمن بجدوي ما أسميه الموضوعية المادية المتلقية، التى تتلقي تفاصيل الواقع ثم تسجلها دون تصنيف أو ترتيب بهدف مراكمة المعلومات فقد حاولت قدر استطاعتى أن أضع الحدث داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه وأكثر عمومية منه، بالإضافة إلي وضعه فى سياقه التاريخى والثقافى حتي يمكن فهمه فى أبعاده المركبة.

وكما هو متوقع، فإن هذه الموضوعات مستقلة عن بعضها البعض، ومع هذا فقد حاولت أن أصنفها فى شكل موضوعات أساسية. فعلي سبيل المثال، يضم الفصل الأول الموضوعات التى تدور حول وهم الهوية اليهودية. أما الفصلان الثانى والثالث فيضمان الموضوعات التى تدور حول موضوعين مرتبطين، هما التجانس اليهودى والشخصية اليهودية، حيث نبين من خلال الأمثلة المحددة أنه لا يوجد أى تجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الحديث عن الشخصية اليهودية هو خرافة ابتدعها الصهاينة والمعادون لليهود واليهودية علي حد سواء. ويتناول الفصل الرابع قضية أثيرت مؤخراً وهى قضية

إعادة بناء الهيكل. ويركز الفصل الخامس على بعض الأكاذيب الصهيونية مثل الادعاء بأن الدولة الصهيونية تهدف إلى إحلال السلام فى الشرق الأوسط. ويضم الفصل السادس بعض الموضوعات ذات الطابع الفكاهى والتى تتناول بعض التناقضات التى تسم حياة المستوطنين الصهاينة.

وقد قام أصدقائى الأستاذ على سليمان (بمجلس الشوري بالقاهرة)، والدكتور محمد هشام (جامعة حلوان) والدكتورة ماجدة أنور (جامعة المنوفية) والأستاذة ماريا الأتاسى بقراءة مخطوطة هذا الكتاب وإدخال الكثير من التعديلات عليها. فلهم منى جزيل الشكر وعند الله الجزاء.

والله من وراء القصد.

عبد الوهاب محمد المسيرى
دمنهور- القاهرة
أكتوبر ٢٠٠٣

الفصل الأول
خرافة القومية اليهودية

القومية اليهودية
بين الوهم والحقيقة

تدَّعي الصهيونية أنها «القومية اليهودية»، وأنها بالتالي حركة لتحرير يهود العالم. فما هي حقيقة هذا الادعاء؟ للإجابة عن هذا السؤال، يجدر في البداية إلقاء الضوء على الدين اليهودي وبعض سماته الأساسية. فالملاحظ أن الدين اليهودي، على خلاف الديانات السماوية الأخرى، يمزج، على مستوى المصطلح على الأقل، بين فكرة «الشعب» بالمعنى العِرْقي وفكرة «الأمة» بالمعنى الديني. وعلى الرغم من تداخل «الزمني» بالمقدس و«القومي» بالديني في اليهودية، فقد ظلت فكرة «القومية اليهودية» إمكانية فكرية كامنة تعبر عن نفسها بشكل روحي عاطفي لا يتعدى نطاق الصلوات والدعوات، عن "اللقاء العام القادم في أورشليم"، وهي صلوات ودعوات لا تختلف كثيراً عن التحية الإسلامية بعد الصلاة أو التعبير العاطفي عن الرغبة في زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد ظلت الفكرة كامنة لأن الممارسات اليومية لدى اليهود على الرغم من إحساسهم بأنفسهم «كشعب» أو كجماعة تنتمي إلى العِرْق نفسه، كانت تقنعهم بأنهم في واقع الأمر جماعات يهودية متناثرة ومنتشرة في العالم، تعيش منفصلة إلى هذا أو ذاك الحد عن الأغلبية السائدة في كل مجتمع، مع أنها جزء لا يتجزأ

من هذا المجتمع، أي أن السمة المشتركة بين يهود العالم هي انفصالهم النسبي عن الأغلبية في الشعوب التي تعيش بين ظهرانيها، إلى جانب ممارستهم لبعض الطقوس الدينية (اليهودية) المختلفة. وهم لا يختلفون في هذا عن أي أقليات دينية أخرى، فالأقليات الدينية الإسلامية في الولايات المتحدة وأفريقيا والهند تتسم بأنها منفصلة نسبياً عن الأغلبية الدينية السائدة في المجتمع، وبأنها أقليات تمارس أيضاً طقوساً دينية مشتركة.

ولعل إحساس اليهود بواقع حياتهم هو الذي أخمد الشعور بالانتماء القومي الوهمي، فلم يسجل تاريخ الجماعات اليهودية أية حركات منظمة للعودة لأرض الميعاد، وظل ارتباطهم بالأرض أشبه بارتباط المسيحي أو المسلم بأرضه المقدسة. ومن الثابت أن تواريخ الجماعات اليهودية في العالم أو («الشعب اليهودي» كما يقول الصهاينة) كانت تتسم، خصوصاً في العالم الغربي، بالحركة والهجرة الدائمة من مكان إلى آخر. فاليهود هاجروا إلى الأندلس، وحينما طردهم العرب اتجهوا إلى هولندا والقاهرة واستوطن بعضهم ألمانيا ومنها انتقلوا إلى بولندا وروسيا، ولم يحدث قط أن هاجر اليهود في جماعات يُعتد بها إلى فلسطين (وطنهم «القومي» المزعوم).

ومع هذا، يمكن الإشارة إلى سمة خصوصية انفرد بها أعضاء

الجماعات اليهودية في العالم الغربي وهي تحولهم إلى جماعة وظيفية تعمل بالتجارة والربا. ومن سمات هذه الجماعات الوظيفية أنها تشعر بالغربة في مجتمع الأغلبية. ورغم أنها تستمد خطابها الحضاري من هذا المجتمع، فإنها تتصور أنها ذات هوية مستقلة وأن لها وطناً آخر (صهيون)، فتنعزل عن هذا المجتمع، وتبدأ في الإحساس بأنها »أقلية إثنينية« مع أنها في واقع الأمر »جماعة وظيفية«. ومما عمق هذا الاتجاه بين اليهود أن التنظيم الاجتماعي الاقتصادي في المجتمعات الزراعية الإقطاعية في أوربا بالذات كان فيها يأخذ شكلاً دينياً. فقد كانت العلاقة بين الأمير الإقطاعي من جهة وفرسانه وفلاحيه من جهة أخرى علاقة أخذت طابعاً دينياً مسيحياً، وبالتالي انقسم المجتمع إلى بناء أساسي (إقطاعي _ زراعي _ مسيحي) وبناء فرعي (تجاري _ يهودي) داخل البناء الأساسي.

ورغم أن هذه التقسيمات والتصورات مناسبة تماماً للمجتمعات الإقطاعية، فقد انهارت كل الجيوب الإقطاعية المتخلفة بظهور الرأسمالية الحديثة الباحثة عن السوق القومية. ومما له دلالته أن الثورة الفرنسية قد بادرت لدى قيامها إلى مطالبة اليهود بالتخلي عن أوهامهم القومية حول أنفسهم، وأن يتقبلوا انتماءهم القومي الحقيقي الوحيد وهو انتماؤهم لفرنسا (وللسوق القومية

الموحدة)، على أن يتحول انتماؤهم اليهودي إلى انتماء ديني وحسب. أي أن علمنة الدولة وفصل الدين عن الدولة (أو القومية)، وهي الخطوة الأولى نحو نشوء الدولة العصرية الحديثة، كان لابد وأن يقابله علمنة مماثلة من جانب اليهود وحسم لمسألة الدين القومي والقومية الدينية. وقد تكررت هذه الظاهرة في كل أنحاء أوربا مع زحف الحركة القومية البورجوازية الحديثة، فكانت الحكومة القومية أو الجماهير ذاتها تهدم حيطان الجيتو، رمز الانعزال الاقتصادي. وكانت هذه العملية يصاحب الانعتاق السياسي لليهود أو منحهم حقوقهم الدينية والسياسية التي تجعل منهم مواطنين لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات.

وقد وجد اليهود أنفسهم في مفترق الطرق بعد عملية الانعتاق وبعد ظهور أنماط الحياة الجديدة التي كانت تفرض عليهم الاندماج. وقد استجاب اليهود في بادئ الأمر لهذا التحدي استجابة خلاقة، فظهرت حركة الاستنارة اليهودية وحركة اليهودية الإصلاحية اللتان كانتا تناديان ببعث اليهود وتطويرهم اقتصادياً وحضارياً حتى يمكنهم التأقلم مع الاقتصاد الجديد ومع الأوضاع السياسية والحضارية التي نجمت عنه. وقد قام اليهود الإصلاحيون بإلغاء الصلوات ذات الطابع «القومي» (اليهودي)، وذلك من أجل تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه وقصر

انتمائه اليهودي على الدين وحده.

ولكن الصهاينة، ممثلي العقلية الجيتوية، وقفوا ضد التيار الإصلاحي وراحوا يعملون على تحويل «الإحساس الديني»، بالانتماء إلى جماعة دينية واحدة والارتباط العاطفي بالأراضي المقدسة اليهودية، إلى «شعور قومي» و«برنامج سياسي». وعلى الرغم من محورية الفكرة القومية بالنسبة للصهاينة، فلا يزال التعريف الصهيوني للقومية اليهودية غير معروف على وجه الدقة. فالصهاينة حقاً يتفقون على أن اليهود يكوِّنون شعباً ينتمي إلى قومية واحدة، وهم ويرون أنه شعب شُرِّد وحُرم استقلاله ألفي عام (منذ أن خرب تيتوس الهيكل) وعليه أن يعود إلى أرضه معتمداً على الوسائل الإنسانية العادية دون انتظار الماشيَّح المخلِّص (حسب الرؤية الدينية الأرثوذكسية)، وينادون أيضاً بأن اليهودية إنما هي قومية وحسب بل هي «أم» القوميات كلها، إلا أنهم مع هذا يصرون على أن الانتماء اليهودي «القومي» يختلف في أساسياته عن الانتماء القومي العادي. وهم غير محقين في هذا إلى حدٍّ كبير، ذلك لأن «القومية اليهودية» تفتقر إلى اللغة المشتركة، فالأغلبية العظمى من يهود العالم لا تعرف العبرية. كما أننا نجد أن لكل مدرسة صهيونية تعريفها المستقل للأساس «القومي» المشترك بين اليهود. وسنحاول هنا أن نوجز بعض هذه

الأسس المختلفة:

١. الدين اليهودي: يحاول دعاة فكرة «القومية اليهودية» من الصهاينة المتدينين أن يؤكدوا على الوحدة الدينية بين أعضاء الجماعات اليهودية وعلى أنهم «أمة مقدسة». وقد تقبلت الصهيونية اللادينية التراث الديني اليهودي كأحد مقومات القومية اليهودية، وحولته إلى ما يشبه الفولكلور أو التراث الثقافي الشعبي. ولكن الدين لا يصلح أن يكون أساساً لنشوء قومية، لأن الرابطة الدينية رابطة أخلاقية وليست رابطة زمنية متعينة. وعلى أية حال، فإن معظم الصهاينة لا يقبلون بالدين اليهودي وحده كأساس للقومية اليهودية. ومن المعروف أن عدداً كبيراً من الإسرائيليين (بما في ذلك القيادات السياسية) لا أدريون أو ملحدون. ومعنى ذلك أنهم يؤمنون باليهودية لا كدين ولا كمجموعة من القيم الملزمة أخلاقياً وإنما كتراث فولكلوري، ولكنهم يرون أن عدم إيمانهم بالدين اليهودي لا يسقط عنهم «القومية» المزعومة.

٢. معاداة اليهود: يرى بعض الصهاينة أن "معاداة اليهود" هي التي خلقت الوعي "القومي" اليهودي، وهذا تفسير دقيق إلى حدٍ ما. ففي مرحلة الاندماج والانعتاق في أوربا، زادت الزيجات المختلطة بين اليهود والأغيار حتى أنها كانت تصل أحياناً إلى ٨٠٪، ولم يظهر ما يسمى بالوعي «القومي» إلا بعد عام ١٨٨١

عقب تصاعد موجات الاضطهاد ضد اليهود في شرق أوربا وعقب صدور قوانين مايو. ويختلف تفسير ظاهرة معاداة اليهود من تيار صهيوني لآخر، فيرى دعاة الصهيونية السياسية أنها ظاهرة أزلية لأن كره الأغيار لليهود مسألة لصيقة بطبيعتهم البشرية، بينما يحاول الصهاينة العماليون تفسيرها تفسيراً تاريخياً فيشيرون إلى التطور الاقتصادي الشاذ لليهود وتحولهم إلى جماعات هامشية غير منتجة ومنبوذة من المجتمع. والاستجابة الصهيونية لمعاداة اليهود ليس الحرب ضد العنصرية وإنما الهجرة إلى أرض الميعاد. ويرى الصهاينة الدينيون أن ظاهرة معاداة اليهود هي تعبير عن كره الأغيار لشعب مقدس مختار!

وبغض النظر عن تفسير نشأة ظاهرة معاداة اليهود، فإن السؤال التالي يظل مطروحاً: هل يمكن تسمية الوعي بهذه الظاهرة بأنه وعي قومي أم أنه مجرد إحساس بالظلم يمارسه أعضاء الأقليات الدينية والعِرْقية الذين يضطهدهم مجتمع الأغلبية ويميز ضدهم؟ وبالتالي: هل يمكن تسمية الهجرة إلى فلسطين هجرة قومية أم أنها مجرد بحث عن ملجأ أو مكان أفضل للاستثمار والحياة المستقرة والفرص الاقتصادية؟

وقد أثبتت تواريخ الجماعات اليهودية في العالم أن الهجرة اليهودية لم تكن قومية وإنما كانت اقتصادية بالدرجة الأولى، فقد

اتجهت الغالبية العظمى من يهود العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى المكان المنطقي (الولايات المتحدة) ولم تتجه إلى المكان القومي المزعوم (فلسطين). وقد حقق المهاجرون اليهود إلى الولايات المتحدة ربحاً كبيراً واستقراراً نفسياً عظيماً، ولذلك فإن عدد من يهاجر منهم إلى إسرائيل يكاد يصلون إلى عدد يقترب من الصفر. وفي الفترة بين عام ١٨٨١ وعام ١٩٣٣، لم يكن يوجد في فلسطين إلا حوالي ١٨٠ ألف مستوطن بعضهم استوطن فيها لأسباب دينية لا تربطها وشائج صلة بالتصورات القومية، وفي الفترة ذاتها هاجر ما يزيد على أربعة ملايين يهودي إلى العالم الجديد.

ما هى القومية اليهودية إذن؟

بالرغم من رفض الدعاوى الصهيونية بأن اليهود يشكلون "قومية" واحدة، فلا مناص من تعريف «القومية اليهودية» على أنها »إحساس« لدى بعض أعضاء الجماعات اليهودية في العالم بانتمائهم إلى دين وعِرْق واحد، وهو إحساس زائف لا تسانده أية مقومات موضوعية، فقد جابه هذا الإحساس »خطر« الزوال في القرن التاسع عشر بسبب ظهور حركة الاستنارة والرأسماليات المحلية. ولكن هجمات المعادين لليهود، والوضع الاقتصادي المتميز نوعاً ما لليهود، تسببا في إثارة النعرة الدينية العِرْقية اليهودية،

وقد طرح الصهاينة مقولة »الشعب اليهودي« وهي مقولة تؤكد تفرد اليهود دون أي تحديد لسمات هذا التفرد. فـ»اليهودية«، حسب قولهم، دين ليس ككل الأديان، و»اليهود« شعب ولكنهم ليسوا مثل كل الشعوب، وهم »قومية« ولكنهم ليسوا مثل كل القوميات، و«اليهودي» تربطه رابطة قومية فريدة بأرضه لا يمكن للأغيار فهمها. ولكن هذا التفرد، في واقع الأمر، لا يعدو أن يكون تسمية لظواهر مختلفة غير مترابطة (الجماعات اليهودية غير المتجانسة) باسم واحد (الشعب اليهودي)، فهو ليس تفرداً بقدر ما هو خطأ في التصنيف، كأن نضع مسلمي الهند إلى جوار مسلمي الولايات المتحدة ومسلمي تانزانيا ومسلمي المنصورة ونطلق عليهم جميعاً »القومية الإسلامية«. فهذه القومية ستكون ولا شك فريدة في نوعها غير قابلة للتقنين أو التفسير وعلى المرء تقبلها دون تساؤل، شأنها في هذا شأن أية ظاهرة صوفية.

ويمكننا أن نضيف أن مقولة »الشعب اليهودي« و»القومية اليهودية« هي، في حقيقة الأمر، مفهوم إصلاحي فاشي أو رؤية للمستقبل وليست وصفاً لما هو قائم بالفعل، وهي مقولة مثالية تفصلها عن الواقع مسافة واسعة شاسعة، ولعل أكبر دليل على مدى ضخامة المسافة بين المثالي والواقع أن غالبية »الشعب اليهودي« لا تزال في أنحاء العالم الذي يسميه الصهاينة »المنفى«،

وهي، في النهاية، مقولة ترفض بإصرار مفهوم العودة لأرض الوطن «القومي».

ولعل المقارنة بين يهود الولايات المتحدة ويهود الفلاشاه، على سبيل المثال، تبين مدى ابتعاد الرؤية الصهيونية عن الواقع، فالاختلافات بينهما في جميع المجالات عميقة وجذرية. لكن قد يقال أن مثل هذه الاختلافات العميقة موجودة عادةً بين المركز والأطراف في أي تشكيل حضاري أو نسق ديني؛ فالجماعات المسيحية المتطرفة (المورمون مثلاً) مختلفة جوهرياً عن الأشكال المركزية المسيحية، والقول نفسه ينطبق على الإسلام. وفي هذا بعض الصدق. بيد أن وضع اليهود واليهودية يظل فريداً إلى حدٍّ كبير؛ فالمركز في اليهودية اختفى منذ أمد طويل، الأمر الذي سمح بتطور الأطراف على نحو مستقل تماماً عن المركز، أي مركز، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل شرعية عما يسمًّى »التيار الأساسي« في اليهودية. وحتى قبل أن يختفي المركز، كان النسق الديني اليهودي يحوي تناقضات عميقة كثيرة، وعدداً كبيراً من المفاهيم الدينية غير المستقرة. فقد كان السنهدرين (أعلى سلطة دينية يهودية في القرن الأول الميلادي وهي الهيئة التي قامت بمحاكمة السيد المسيح) يضم الصدوقيين الذين كانوا يؤمنون بيهودية وثنية هرمية صارمة لا بعث فيها ولا إيمان وإنما بعقيدة

جافة جامدة تدور حول القرابين والشعائر المنضبطة والمرتبطة بالهيكل والأرض تماماً. لكن السنهدرين كان في الوقت ذاته يضم الفريسيين الذين كانوا يؤمنون بالبعث وبضرورة الإيمان باليوم الآخر (ولذا كانوا يقومون بالتبشير باليهودية، وهو الأمر الذي لا تعرفه اليهودية). وعلى الرغم من الاختلافات العميقة، كان الصدوقيون والفريسيون يجلسون في السنهدرين جنباً إلى جنب، ويمارسون نشاطهم الديني. ولا يمكن تفسير هذا الوضع إلا بعدم تبلور النسق الديني اليهودي قبل تحطيم الهيكل وسقوط المركز.

يُضاف إلى هذا ما يمكن تسميته التعريف الثنائي لليهودي على أساس من العقيدة والعِرْق. فاليهودي، حسب الشريعة اليهودية، هو من يؤمن باليهودية ومن وُلِد لأم يهودية، الأمر الذي سمح بظهور ما يمكن أن نسميه «الخاصية الجيولوجية» لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توخي الدقة)، والواقع أن هذه العقائد والهويات تأخذ شكل تركيب جيولوجي مكون من طبقات مختلفة، مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، لكنها غير ملتحمة أو متفاعلة، كما أنها لا تخضع لأي معيارية مركزية. ومع هذا، فقد سُميت هذه العقائد كافة "يهودية"، وأُطلق على كل هؤلاء اسم «يهوداً»، وهو أمر كان مقبولاً أو كان من الممكن تجاهله من قبل. لكن، مع ظهور الدولة الصهيونية

وبداية المواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات، تفجَّر السؤال الذي لا يزال يبحث عن إجابة: من هو اليهودي؟ وما هي هذه القومية اليهودية؟

شعب يهودى أم جماعات يهودية ؟

يحاول الصهاينة فرض مفهوم الوحدة اليهودية على واقع أعضاء الجماعات اليهودية وتواريخهم وانتماءاتهم المتباينة، وهذا ما يفعله أيضاً المعادون لليهود واليهودية. ويتضح هذا، على سبيل المثال، من التأمل في الدلالات المختلفة لمصطلح بسيط مثل "اليهود"، وهو مصطلح خلافي يخبئ تحيزات مختلفة.

وقد نجح الصهاينة في ترسيخ مفهوم "الوحدة اليهودية" في وجدان معظم الباحثين بحيث أصبحوا يتصورون أن مصطلح "يهودي" (بشكل عام ومطلق) مصطلح محدد المعنى، رغم أن كلمة يهودي هي من أكثر الدوال إشكالية رغم بساطتها. فكلمة "يهودي" يمكن أن تُستخدم للإشارة إلى العبرانيين القدامى باعتبارهم جماعة عرقية أو إثنية (قوم) أو باعتبارهم جماعة دينية (شعب مختار) كما تستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود الحاخاميين والقرائين والسامريين ويهود الصين وإثيوبيا.

ويُشار إلى اليهود باعتبارهم شعباً مقدساً في التراثين الدينيين المسيحي واليهودي. وبعد ظهور العلمانية أصبحوا شعباً عضوياً

يشار إليهم بوصفهم "الشعب اليهودي"، أو بالمعنى اللاديني مجرد "اليهود" (بالإنجليزية: جوري (Jewry. ويُشار إلى السفارد والإشكناز والصابرا ويهود الولايات المتحدة على أنهم يهود، وتزداد الأمور اختلاطاً حين يُستخدم المصطلح للإشارة إلى يهود العالم وإلى صهاينة العالم والمستوطنين الصهاينة في إسرائيل. ولعل المصدر الأساسي لهذا الخلط هو التراث الإنجيلي الذي يتحدث دائما عن اليهود ككل باعتبارهم الشعب، وهي طريقة للرؤية ورثها العالم الغربي ككل، ولهذا نجد أن المحايدين العلميين والمعادين لليهود والصهاينة المتحيزين كلهم يتحدثون عن اليهود ككيانٍ متجانس.

وغني عن القول إن استخدام الدال يهودي بهذه الطريقة يجعله عديم الفائدة، إذ يشير إلى حقل دلالي متضارب ومدلولات مختلفة، وهو الأمر الذي يتجلى من خلال دراسة الحقل الدلالي لبعض المصطلحات السائدة للإشارة إلى اليهود، ومن بينها:

"اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً"

وهي ترجمتنا للكلمة الإنجليزية "جوري "Jewry، والتي كانت تستخدم أصلاً للإشارة إلى الجيتو أو الشارع أو الحي الذي يسكنه اليهود، وهي تشير إلى اليهود من حيث هم كل متماسك لا من حيث هم جماعات شتى لكل منها انتماؤها العرقي أو الإثني أو

الحضاري وتضم في صفوفها أعضاء يهوداً لكلٍّ طموحاته وتصوراته الخاصة به. وتفترض الكلمة أن هناك علاقة عضوية بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وأنهم يخضعون للحركيات التاريخية نفسها التي تجب الانتماءات المختلفة والتناقضات الكامنة والظاهرة.

ويحبذ الصهاينة استخدام هذا المصطلح لأنه يعبر عن رؤيتهم ونموذجهم التفسيري، وهذا المصطلح لا يختلف كثيراً في تضميناته عن مصطلحات مثل "الشعب اليهودي" أو "الشعب العضوي" فهي جميعاً تشير إلى كل عضوي متماسك.

"الشعب اليهودي"

وهي عبارة تفترض أن اليهود شعب واحد بالمعني القومي أو العرقي للكلمة، كما تفترض أن لديهم قوميتهم اليهودية المستقلة وهو أمر يتنافى مع الواقع التاريخي كما بينا في تحليلنا المصطلحي.

"الشعب"

وهي كلمة تتواتر في الأدبيات الدينية اليهودية والمسيحية وفي الدراسات الدنيوية أيضاً. ويختلف معنى الكلمة في السياق الديني عنه في السياق الدنيوي والتاريخي، فهي في السياق الديني تعني "جماعة دينية" ترتبط بميثاق مع الإله وتنتفي عنها صفة الشعب

بعدم تنفيذها العهد، وهذا الشعب قد يرى نفسه شعباً مختاراً أو شعباً مقدساً أو أمة الروح أو الأمة المقدسة أو الشعب الأزلي أو المفضل على العالمين، ومن أسمائه "بنو يسرائيل" و"شعب يسرائيل".

أما في السياق الدنيوي فالأمر أكثر تركيباً، حيث يعني "الشعب" مجموعة القبائل العبرانية التي تسللت إلى كنعان ثم اتحدت في المملكة العبرانية المتحدة ثم انفكت إلى مملكتين المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية، وقد اعتبره اليونانيون والرومان "إثنوس"، أي قوماً يترأسهم رئيس القوم (إثنارخ) ثم تحولوا إلى جماعات يهودية مختلفة منتشرة. وفي العصر الحديث عاد الحديث بين الصهاينة عن "الشعب اليهودي" أو "الشعب العضوي (فولك)".

"الشعبان"

وهو مصطلح صهيوني جديد يشير إلى كل من الشعب الفلسطيني و"الشعب الإسرائيلي" أو "اليهودي". وهذا المصطلح يتضمن شكلاً من أشكال الاعتراف بوجود شعب فلسطيني وبالتالي حقوق فلسطينية في أرض فلسطين (إرتس يسرائيل في المصطلح الصهيوني)، ولكنه يؤكد أيضاً وجود شعب يهودي له حقوق في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٤٨، كما يتضمن شكلاً من أشكال التكافؤ بين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة وشكلاً من

أشكال المساواة في الحقوق، وكأن الغزاة الصهاينة لا يختلفون عن السكان الأصليين، فمصطلح "الشعبين" يضفي شرعية على عملية الغزو الصهيوني.

الجماعات اليهودية

وهو المصطلح الذي نقترحه بدلاً من مصطلح "اليهود". ونحن نذهب إلى أن العبرانيين (والعبرانيين اليهود)، أي اليهود القدامى، كانوا يشكلون وحدة ثقافية وإثنية تتسم بقدر من التماسك والتجانس والوحدة، ولكن مع انتشار اليهود في أرجاء العالم في مجتمعات مختلفة لكلٍّ تقاليدها الحضارية والدينية وتواريخها تفاعل اليهود مع هذه التقاليد والتواريخ وخضعوا لمؤثراتها شأنهم شأن كل الأقليات والبشر، وقد بدأت عملية الانتشار مع التهجير البابلي، ولكن وتيرتها تصاعدت مع ظهور الحضارة الهيلينية والرومانية، واكتملت عملية الانتشار والتفرق مع هدم الهيكل في عام ٧٠م على يد تيتوس وكذلك سقوط العبادة القربانية المركزية وأية سلطة دينية مركزية يهودية، وقد تحول اليهود نتيجة هذه العملية إلى جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة. ونحن نفضل استخدام مصطلح جماعات يهودية على مصطلح يهود، لأن المصطلح الأخير يؤكد التماسك والتجانس والوحدة حيث لا تماسك ولا تجانس ولا وحدة.

ولفهم سلوك هذه الجماعات وحركتها ومصيرها لابد من العودة لى التشكيلات الحضارية التاريخية التي كانوا يوجدون فيها لا لى جوهر يهودي يتجاوز الزمان والمكان ويشكل وحدتها لجوهرية، أو إلى تاريخ يهودي يتطور حسب قوانينه الداخلية يتطور اليهود في إطاره منعزلين عن تواريخ الجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

إن مشاكل الجماعات اليهودية متنوعة ونابعة من وجودها في جتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف، إستخدام اصطلاح يهود على إطلاقه لن يساعد كثيراً على لتحليل والتفسير، ومن ثم نرى أن كلا من العقيدة اليهودية والهوية ليهودية هما في واقع الأمر عقائد وهويات تأخذ شكل تركيب راكمي جيولوجي يحوي داخله طبقات غير متجانسة تعيش عضها فوق بعض، وإذا ما أطلقنا على هذا اسم "يهود" و"يهودية" كان في الأمر تعسف ولي لعنق الواقع، ولذلك فنحن نشير إلى لعقائد وإلى الجماعات اليهودية بحيث تؤكد كلمة جماعات على ستقلال كل جماعة وعلى خضوعها لحركيات تاريخية وحضارية ختلفة.

هوية أم هويات يهودية؟

في محاولة فرض الواحدية على واقع الجماعات اليهودية

يفترض الصهاينة وجود هوية يهودية واحدة، ولكن تفكيك هذا المصطلح وما يرتبط به من مصطلحات يكشف على الفور التحيزات الصهيونية الكامنة التي تتنافي مع الواقع التاريخي.

الشخصية أو الهوية اليهودية

مصطلح "الشخصية" في اللغة العربية مأخوذ من لفظ "شخص" ويعني مجموعة الصفات التي تميز هذا الشخص. أما كلمة "هوية" فهي اسم منقول من المصدر الصناعي "هوية" المأخوذ من كلمة "هو"، وتعني مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة في الأشياء والأحياء.

ويشكل استخدام مصطلحات مثل "شخصية يهودية" و"هوية يهودية" تبنياً غير واعٍ للنماذج التفسيرية الاختزالية الصهيونية المعادية لليهود التي تفترض وجود طبيعة يهودية ثابتة وسمات ساسية للشخصية اليهودية. فهي من منظور المعادين لليهود شخصية متآمرة عدوانية استغلالية ومنحلة، وهي كذلك شخصية جارية بطبعها، أما الصهاينة فينسبون إلى هذه الشخصية سمات يجابية، فاليهودي يتسم بالإبداع والمقدرة على الانسلاخ من جتمع الأغيار، وهو يدافع بشراسة عن نفسه ضد العنف لكنه لا يتكب العنف أبداً ضد الآخرين. ويؤسس الصهاينة نظريتهم في قومية اليهودية والشعب اليهودي انطلاقاً من تأكيد وجود هذه

الشخصية اليهودية.

إلا إن النموذج الكامن وراء مقولات مثل "الشخصية" أو "الهوية اليهودية الثابتة" الواحدة يتسم بالقصور. فأعضاء الجماعات اليهودية ليسوا تجاراً بطبعهم، إذ عمل العبرانيون بالزراعة في فلسطين، كما كان منهم الجنود المرتزقة في الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية، ومعظمهم الآن من المهنيين في الغرب. وهم ليسوا متآمرين بطبعهم بل وسقط منهم ضحايا للتآمر، لكن هذا لا يمنع وجود متآمرين وتجار بينهم، وهم ليسوا منحلين في كل زمان ومكان إذ كانت هناك أزمنة وأمكنة استمسك فيها أعضاء الجماعات اليهودية بأهداب الفضيلة ولم تعرف بينهم ظواهر مثل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين.

وهناك خلل يتمثل في الحديث عن اليهود بشكل مجرد، فمن يود أن ينسب العبقرية إلى الهوية أو "الشخصية اليهودية" سيجد قرائن على ذلك في مكان وزمان معينين، ومن يود أن ينسب إليهم التآمر سيجد أيضا قرائن على ذلك في مكان وزمان آخرين، ثم يتم تعميم الجزء على الكل. وهذا ما يقوم به الصهاينة عن وعي أو عن غير وعي حينما يتحدثون عن "الشخصية اليهودية" أو عن "الهوية اليهودية".

الهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً

يمكن القول إن الهويات اليهودية تشكل أيضاً تركيباً جيولوجياً تراكمياً، ولكنه لم يكن ملحوظاً بسبب انفصال أعضاء الجماعات اليهودية ووجودهم في أماكن متفرقة من العالم. فيهود اليديشية نتاج مجتمعاتهم وكذا يهود اليمن ويهود فرنسا وهكذا، ومع ذلك كان يشار إليهم جميعاً باسم "الشعب اليهودي" مع افتراض وجود وحدة ما دون التحقق من صدق هذه المقولة. إلا إن حقائق الواقع تثير الشكوك في هذه المقولات وتظهر الخاصية الجيولوجية التراكمية للهويات اليهودية بشكلٍ واضح، كما هو الحال مثلاً في أمريكا اللاتينية ومجتمعات وجبال القوقاز.

والفكر الصهيوني يصدر عن نموذج اختزالي ينكر واقع الجماعات اليهودية الحضاري الفسيفسائي الجيولوجي التراكمي ويطرح فكرة الهوية اليهودية العالمية الواحدة، وتتم عملية تسمية الواقع وتصنيفه من هذا المنظور، ومن ثم فإن مصطلحات مثل "يهود الدياسبورا" و"يهود المنفى" و"الشعب اليهودي" تفترض جميعها وحدة اليهود وتجانسهم. ولكن حين يصل أصحاب هذه الهويات إلى إسرائيل يتضح للجميع أنهم ليسوا مجرد يهود، إذ يصبحون مرة أخرى مصريين ومغاربة وروساً وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بحسب ذلك. ولهذا ينكر كثير من المغاربة هويتهم العربية ويصرون على أنهم فرنسيون وليسوا يهوداً وحسب!

وبالمثل، فإن يهود العالم العربي، الذين تم تهجيرهم باعتبارهم يهوداً بشكل عام، يصبحون مرة أخرى يهوداً شرقيين يقبعون في آخر درجات السلم الاجتماعي الإسرائيلي، كما يصبح يهود روسيا إشكنازاً أو غربيين ويُعطون المنح والقروض وأفخر المنازل ثم يشغلون قمة السلم الاجتماعي، ومن هنا تظهر الهويات اليهودية المختلفة، وهو ما يؤدي إلى طرح قضية "الهوية اليهودية" على بساط البحث. ولعل تفجر قضية "من هو اليهودي" هو تعبير عن أن ما يسمى "الهوية اليهودية" ليس كلاً يتسم بقدر من التجانس وإنما هي في واقع الأمر تركيب تراكمي من عدة عناصر مستقلة متعايشة جنباً إلى جنب دون أن تمتزج أو حتى تتفاعل.

وفي مواجهة نزعة التعميم التي يلجأ إليها الصهاينة والمعادون لليهود، ينبغي التوصل إلى نموذج تفسيري أقل عمومية يمكنه أن يصف المتغيرات التاريخية والثقافية والدينية التي دخلت على هذه الهوية وحولتها إلى هويات مختلفة. ولذلك فمن الأدق استخدام مصطلح "الهويات اليهودية" (وكذلك مصطلح "أعضاء الجماعات اليهودية")، فهو مصطلح يعبر عن نموذج أكثر تركيبية ومن ثم أكثر تفسيرية لواقع أعضاء الجماعات اليهودية، حيث ينسبهم إلى مجتمعاتهم ويؤكد استقلالهم النسبي عن محيطهم دون أن ينسبهم إلى تاريخ يهودي عالمي أو جوهر ثابت. ومن الضروري أيضاً فهم

هذه الهويات لا من خلال العودة إلى ما يسمى "التاريخ اليهودي" أو إلى كتب اليهود المقدسة أو شبه المقدسة أو إلى بروتوكولات حكماء صهيون، وإنما بالعودة إلى التشكيلات الحضارية والتاريخية المختلفة التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية والتي تفاعلوا معها وأثروا فيها وتأثروا بها، وإن كانت درجة تأثرهم تفوق كثيراً درجة تأثيرهم كما هو الحال عادة مع أعضاء الأقليات. ومن ثم يمكن الحديث عن هوية بابلية يهودية وأخرى فارسية يهودية وثالثة أمريكية يهودية ورابعة عربية يهودية.

وهذا النموذج التفسيري لا يهمل البعد اليهودي في بناء هذه الهويات، فالدين اليهودي (بخاصيته الجيولوجية التراكمية) عنصر أساسي فيها، كما أن الرؤية الدينية بعد حيوي ومهم. ولكن من الضروري عدم النظر إلى هذا العنصر بشكلٍ مجرد، بل رؤيته في تفاعله مع الأبعاد الحضارية الأخرى مع عدم إضفاء أية مركزية تفسيرية عليه. ولهذا لا يدور الحديث عن "هوية يهودية" عامة مطلقة أو عن غياب أية هوية يهودية، بل عن هويات يهودية متنوعة لكلٍ سياقها التاريخي والحضاري المحدد.

الخصوصية اليهودية

تشير معظم الكتابات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى »الثقافة اليهودية« و»التراث اليهودي« و»الموروث اليهودي«.

وهذه المصطلحات، شأنها شأن مصطلحات «التاريخ اليهودي» و«القومية اليهودية» و«الخصوصية اليهودية» وأمثالها، تفترض أن الجماعات اليهودية في العالم لها حضارة مستقلة وثقافة مستقلة وتراث مستقل عن المجتمعات التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الإسهامات الحضارية المختلفة لليهود سواء في بابل أو فلسطين (في العصور القديمة) أم في فرنسا (في العصور الوسطى في الغرب) أم في بولندا والهند والصين (في القرن السادس عشر) أم في ألمانيا (في القرن التاسع عشر) أم في الولايات المتحدة واليمن (في القرن العشرين)، برغم تنوعها الحتمي والمتوقع، تعبر عن نمط واحد (وربما جوهر يهودي)، ومن ثم تبدو كل هذه الإسهامات باعتبارها تعبيراً عن حضارة يهودية أو ثقافة يهودية واحدة. ويستند مفهوم الإثنية اليهودية (وهو مفهوم صهيوني أساسي) إلى افتراض وجود مثل هذه الثقافة المستقلة.

وتجدر الإشارة هنا إلى كلمة «ثقافة» لها معنيان أو استخدامان رئيسيان: أولهما معنى واسع، ويعني أسلوب الحياة في المجتمع بكل ما ينطوي عليه من موروث مادي ومعنوي حي. والثاني معنى ضيق، ويعني الأنشطة الإبداعية المتميزة في الآداب والفنون الأدائية والتشكيلية. ونحن نستخدم الكلمة بكلا المعنيين.

وفي بداية الحركة الصهيونية، في العقد الأخير من القرن

التاسع عشر، كان العِرْق كأساس لتعريف شعب ما هو النمط السائد في أوربا. وقد تبنى الصهاينة هذا الأساس التصنيفي، وحاولوا إثبات أن الانتماء اليهودي انتماء عِرْقي. ولكن، بعد ظهور هتلر، وبعد قيامه بذبح الملايين من أعضاء الجماعات اليهودية والبولنديين والروس والغجر والمعوقين وغيرهم من البشر باسم التفوق العِرْقي الآري، أسقط الصهاينة المفهوم العِرْقي للهوية اليهودية وأخذوا يؤكدون بدلاً من ذلك المكون الثقافي الإثني كأساس للهوية. ولم يكن هتلر وحده هو الذي دفع الصهاينة للتخلي عن الاعتذاريات العِرْقية التي سادت في الخطاب الحضاري الغربي منذ منتصف القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من محاولاتهم الأولى في إثبات أن اليهود شعب واحد (آين•فولك) بالمعنى العِرْقي، إلا أنهم وجدوا أن إثبات وحدة عِرْقية لليهود أمر في غاية الصعوبة. إذ يوجد يهود بيض ويهود سود ويهود صُفر، ويهود من كل لون. ولذا، لم يكن هناك مناص من التخلي عن الاعتذاريات العِرْقية الفجة على أن تحل محلها الاعتذاريات الإثنية المصقولة. وقد تعمق مفهوم الهوية الإثنية المستقلة حتى تغلغل تماماً في النسق الديني اليهودي ذاته. فاليهودية المحافظة، على سبيل المثال، تدور حول مفهوم التاريخ اليهودي والثقافة اليهودية. وقد أسس المفكر الديني الأمريكي اليهودي مردخاي كابلان فرقة

يهودية تسمَّى »اليهودية التجديدية« تستند إلى الإيمان بالحضارة اليهودية والثقافة اليهودية والتراث اليهودي، وإلى أن هذا التراث شيء مقدس يشغل نفس المكانة التي شغلها الخالق في التفكير الديني اليهودي التقليدي. وغني عن القول إن المشروع الصهيوني بأسره يستند إلى رفض الأساس الديني الغيبي للهوية اليهودية ويحل محلها فكرة الثقافة اليهودية المستقلة.

و»الخصوصية اليهودية« تعبير يفترض وجود سمات وخصائص (ثقافية أو عِرْقية) ثابتة، مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية، تمنحهم خصوصيتهم وتفردهم وتحدد سلوكهم أينما كانوا وتشكل إطاراً حقيقياً لوجدانهم ولرؤيتهم للكون. أما سماتهم وخصائصهم الأخرى (غير اليهودية) فهي سمات وخصائص سطحية لا ترتبط بصميم وجودهم أو وجدانهم. وفكرة »الخصوصية اليهودية« و»التفرُّد اليهودي« فكرة محورية في كافة الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود، ذلك لأن أعضاء الفريقين يرون أن ثمة طبيعة بشرية أو هوية ثقافية يهودية مستقلة. ويذهب أعضاء الفريق الأول إلى أن هذه الطبيعة أو هذه الهوية هي مصدر إبداعية اليهود وإنتاجيتهم وحركيتهم، بينما يرى أعضاء الفريق الثاني أنها مصدر عدمية اليهود وتخريبيتهم بل وإجرامهم. ورغم اختلاف النتائج التي يصل إليها أعضاء الفريقين، إلا أن المقدمات

الفلسفية والافتراضات الفكرية واحدة.

ويرتبط مفهوم الخصوصية اليهودية تمام الارتباط بمفهوم الثقافة اليهودية المستقلة. وسنركز على مفهوم «الثقافة اليهودية المستقلة» كمدخل لدراسة الخصوصية اليهودية.

ويمكن القول بأن ثمة تشكيلين حضاريين (يهوديين) يتمتعان بقدر محدود من الاستقلال عما حولهما من تشكيلات حضارية:

أولهما: الثقافة العبرية القديمة التي تمتعت بقدر من الاستقلال داخل التشكيل الحضاري السامي في الشرق الأوسط القديم. ولكن هذا الاستقلال ظل محدوداً للغاية بسبب بساطة الحضارة العبرانية وضعف الدولة العبرانية وتبعية الدولتين العبرانيتين (مملكة يهودا ومملكة يسرائيل) للإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأوسط القديم (المصرية - الآشورية - البابلية - الفارسية). وقد كانت التبعية السياسية، خاصةً في العصور القديمة، تؤدي إلى تبعية ثقافية بل وأحياناً دينية، ولذا فقد استعارت الثقافة العبرانية الكثير من حضارات هذه الإمبراطوريات.

أما الثاني فيتمثل في الثقافة الإسرائيلية (أو العبرية الحديثة). وهذه الثقافة مستقلة ولا شك عن التشكيل الحضاري الغربي. ولكنها، مع هذا، لا تزال ثقافة جديدة لم تكتمل مفرداتها الحضارية بعد، كما أن الصراع الثقافي الحاد بين العشرات من

الجماعات اليهودية التي انتقلت إلى إسرائيل ومعها تقاليدها الحضارية (السفارد - الإشكناز - يهود البلاد العربية - الفلاشاه - بني إسرائيل في الهند - يهود بخارى - اليهود القراءون - السامريون... إلخ) يجعل من العسير بلورة مثل هذه الثقافة.

ولكن العنصر الأساسي الذي يتهدد عملية بلورة خطاب حضاري إسرائيلي مستقل هو أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع استيطاني يدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية ويعاني من تبعية اقتصادية وعسكرية مذهلة ومذلة لها، فهو يدين لها ببقائه وبمستواه المعيشي المتفوق، وعلى هذا فإن ثمة اتجاهاً حاداً نحو الأمركة يكتسح في طريقه كل الأشكال الإثنية الخاصة التي أحضرها المستوطنون معهم من أوطانهم الأصلية. ومما يعمق من هذا الاتجاه أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع علماني تماماً، ملتزم بقيم المنفعة واللذة والإشباع المباشر والنسبية الأخلاقية والاستهلاكية، وهذا يتعارض مع محاولة التراكم الحضاري. ومع ظهور النظام العالمي الجديد والاستهلاكية العالمية، فإنه من المتوقع أن تزداد الأمور سوءاً.

وبخلاف الحضارة العبرانية القديمة والثقافة الإسرائيلية الجديدة، لا يمكن الحديث عن ثقافة أو حضارة يهودية مستقلة أو شبه مستقلة. فاليهود، مثلهم مثل كافة أعضاء الجماعات والأقليات

الدينية والعِرْقية الأخرى، يتفاعلون مع ثقافة الأغلبية التي يعيشون في كنفها ويستوعبون قيمها وثقافتها ولغتها. ولئن كان هناك درجة من الاستقلال لكل جماعة يهودية عن الأغلبية، فإن هذا الاستقلال لا يختلف عن استقلال الأقليات الأخرى عن الأغلبية، كما أنه لا يعني بالضرورة أن ثمة عنصراً عالمياً مشتركاً بين كل جماعة يهودية وأخرى. فالعبرانيون، منذ ظهورهم في التاريخ، تبنوا حضارات الأمم الأخرى، ابتداءً من اللغة، ومروراً بالمفاهيم الدينية، وانتهاءً بالطراز المعماري. وعلى سبيل المثال، ليس هناك طراز يهودي معماري، أو فن يهودي مستقل، فقد كان هيكل سليمان يتبع الطراز الآشوري الفرعوني (المصري)، ولم يكن يختلف كثيراً عن الهياكل الكنعانية. وكذلك تتبع المعابد اليهودية في العالم العربي الطراز العربي. أما في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، فإن المعابد اليهودية كانت تُبنى على الطراز النيوكلاسيكي السائد هناك آنذاك. والفنانون التشكيليون اليهود في العصر الحديث، أمثال مارك شاجال، ينتمون إلى تراث فني غربي ولا يمكن رؤيتهم في إطار ثقافة يهودية مستقلة. وليس هناك تراث أدبي يهودي مستقل معروف، فالأدباء اليهود العرب في الجاهلية والإسلام اتبعوا التقاليد الأدبية السائدة في عصورهم،

كما أن إبداع الأدباء اليهود في الولايات المتحدة وإنجلترا مرتبط بالتراث الذي ينتمون إليه، وهذا أمر طبيعي.

لا توجد إذن ثقافة يهودية عالمية مستقلة تحدد وجدان اليهود وسلوكهم وإنما هناك ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيل الحضاري الذي يوجد اليهود داخله. ولذا، قد يجدر بنا أن نتحدث عن ثقافة غربية يهودية أو ثقافة عربية يهودية، وبذا نخفض من مستوانا التعميمي حتى يتلاءم مع الظاهرة موضع الدراسة. ولكننا، لو فعلنا ذلك، سنكتشف، على سبيل المثال، أن الثقافة العربية اليهودية هي، في نهاية الأمر، جزء من الثقافة العربية، وأنه لا توجد ملامح يهودية خاصة إلا في بعض الموضوعات وبعض المضامين المختلفة إذ تظل البنية العامة بنية عربية. ولنضرب مثلاً بيعقوب صنوع، وشهرته «أبو نظارة»، أحد رواد المسرح والصحافة الساخرة، وأحد رواد الحركة القومية في مصر. فقد كتب أبو نظارة عدة مسرحيات بالعامية المصرية، إلى أن منعته الحكومة في عام ١٨٧٢، ووجه سهام نقده ضد الإنجليز الذين كانوا قد احتلوا مصر. ويثير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية، وتصنفه المراجع الصهيونية باعتباره مثقفاً يهودياً، لكن هذا التصنيف لا يفسر أياً من الجوانب الهامة من

حياته، أدبية كانت أم سياسية، فهي حياة لا تفهم في كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصري وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطني في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولتحاول هذه المراجع، على سبيل التجربة، أن تفسر سيرة حياته الشخصية والفكرية في إطار الجيتو اليهودي في شرق أوربا أو قصة النجاح اليهودية في الولايات المتحدة أو عنصرية يهود جنوب إفريقيا، لكنها لو فعلت ذلك لاكتشفت مدى عجز مثل هذا النموذج التفسيري الذي يفترض وجود ثقافة يهودية واحدة عالمية.

وقل الشيء نفسه عن الفنان المصري داود حسني، فهو ملحن موسيقي مصري يهودي يقرن اسمه بموسيقيين من أمثال سيد درويش وكامل الخلعي حيث لعب دوراً بارزاً في نهضة الموسيقى في مصر وفي إثرائها في العقود الأولى من القرن العشرين. وقد تميز داود حسني بشكل خاص في المسرح الغنائي المصري حيث لحَّن كثيراً من المسرحيات الغنائية، وكان أول من قام بتلحين أول أوبرا مصرية هي «شمشون ودليلة»، كما لحَّن أوبرا أخرى هي «ليلة كليوباترا» التي ألفها حسين فوزي. وقد تتلمذ على يديه كثير من المطربين والمطربات الذين حققوا شهرة واسعة فيما بعد مثل أم

كلثوم وأسمهان.

وتشير الإذاعة الإسرائيلية إلى داود حسني باعتباره موسيقاراً يهودياً، وهو أمر يستحق التأمل دون شك، لأننا لو حاولنا البحث عن أي مكون يهودي في موسيقاه لأعيتنا الحيلة. ولذا، يدهش كثير من المصريين الذين يعرفون أغانيه وأدواره، كما يدهش كثير من المتخصصين الذين درسوا موسيقاه، حينما يعرفون أنه يهودي.

ولبلورة وجهة نظرنا بشكل أكثر حدة (وربما طرافة) وبيان المقدرة التفسيرية لنموذجنا المقترح (في مقابل النموذج الصهيوني القائل بالثقافة اليهودية ووحدتها)، دعنا ننظر إلى ظاهرة مثل الرقص الشرقي الذي يقال له البلدي (أي هز البطن). كان يوجد العديد من الراقصات المصريات اليهوديات في كاباريهات القاهرة في فترة الأربعينيات، وهناك الآن عدد لا بأس به منهن في الولايات المتحدة (خاصةً كاليفورنيا). ويوجد عدد من الراقصات "البلدي" في الدولة الصهيونية، بل وتوجد مدرسة متخصصة لتدريس هذا الفن في إسرائيل (وقد أثار المتدينون اليهود قضية بدلة الرقص الفاضحة أثناء إحدى جلسات الكنيست). هل أصبح

الرقص الشرقي بذلك "فناً يهودياً" وجزءاً من «التراث اليهودي» أم أنه ظل فناً شرقياً لا يمكن فهمه أو حتى فهم اشتغال بعض اليهوديات به إلا في إطار آليات وحركيات الحضارة العربية خاصةً في مصر؟

ستتضح المقدرة التفسيرية لنموذجنا التفسيري المقترح (عدم وجود ثقافة يهودية واحدة) حينما نطبقه على الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية، إذ سنلاحظ أنه لا توجد ثقافة يهودية غربية واحدة وإنما ثقافات يهودية بعدد الدول التي يتواجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، فثقافة يهود إسبانيا (السفارد) هي ثقافة إسبانية، تماماً مثلما أن ثقافة يهود ألمانيا ثقافة ألمانية، وثقافة يهود إيطاليا ثقافة إيطالية وثقافة يهود أمريكا ثقافة أمريكية... وهكذا. ويقول المؤلف الإنجليزي اليهودي آرثر كوستلر إن ما يُعرف بالتراث اليهودي أو الثقافة اليهودية (بمعنى عام لا بمعنى ديني وحسب) أمر ليس من السهل تعريفه لأن كل ما يصدر عن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ليس يهودياً بالمعنى المحدد وليس جزءاً من تراث يهودي قائم. فالإنجازات الفلسفية والعلمية والفنية لليهود تتوقف على معطيات ثقافة الشعوب الأخرى وحضاراتها.

المثقف اليهودي: من هو؟

من شأن النموذج التفسيري الصهيوني، بافتراضه وجود ثقافة يهودية واحدة مستقلة، أن يخلق مشكلات لا حصر لها بخصوص عملية تعريف المثقف اليهودي. فلا يوجد نمط واحد لتناول المثقفين أو الأدباء اليهود للموضوعات اليهودية، فهناك من يتناول الموضوعات اليهودية من منظور يهودي ما، مثل الروائي الصهيوني الأمريكي مائير لفين، ولكن هناك أيضاً من يتناولها من منظور معادٍ لليهود مثل الروائي الأمريكي ناثانيل وست. وثمة فريق ثالث يتجاهل الموضوع اليهودي تماماً في كل كتاباته أو في معظمها مثل الناقد الأمريكي اليهودي ليونيل ترلنج. وهناك فريق رابع يتناول الموضوع اليهودي ولكنه يضعه في سياق إنساني عام ويرى أن غربة اليهودي الحادة إن هي إلا تعبير عن أزمة الإنسان (العلماني) الحديث، كما يفعل المخرج السينمائي الأمريكي وودي ألين والروائي الروسي أيزاك بابل. وهذا التنوع يجعل من العسير إطلاق اصطلاح «مثقف يهودي» على كل هؤلاء.

وفي عام ١٩٨٩، صدر كتاب بعنوان The Blackwell Companion to Jewish Culture (أي دليل بلاكويل للثقافة اليهودية). لكن هذا المعجم لا يضم سوى أسماء المثقفين اليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي، ويستبعد كافة المثقفين

اليهود من الشرق مثل يعقوب صنوع وداود حسني وغيرهما، ولعل محرري هذا المعجم قد فعلوا ذلك ليفرضوا نوعاً من الوحدة عليه. ولكن الوحدة في هذه الحالة هي وحدة غربية وليست يهودية.

والمشكلة الأخرى هي أن هذا المعجم يضم أسماء مثقفين يهود معادين بشكل أساسي لليهودية ولا يمكن فهم فكرهم إلا في إطار تقاليد معاداة اليهود في الحضارة الغربية، فهل يُصنَّف هؤلاء على أنهم مثقففون يهود يعبِّرون عن الثقافة اليهودية بينما يُستبعد مثقفون يهود شرقيون؟

وهناك مشكلة ثالثة وهي مجموعة المثقفين اليهود الذين يؤكدون انتماءهم للحضارة المسيحية باعتبارها مصدراً لوحيهم ولرؤيتهم للكون، مثل بوريس باسترناك ومثل إيليا اهرنبرج (في مرحلة من مراحل حياته). بل هناك فيلسوف يسمَّى ليف شستوف ظهر اسمه في كتاب عن أهم ثلاثة فلاسفة يهود في العصر الحديث ومعه مارتن بوبر وروزنزفايج. ولكن المعجم الذي نتحدث عنه لم يورد اسمه لسبب وجيه هو أن هذا الفيلسوف الذي وُلِد لأم يهودية يعتبر فيلسوفاً مسيحياً لأنه يتحدث عن واقعة صلب المسيح باعتبارها أهم حدث تاريخي. ورغم استبعاد معجم بلاكويل لاسمه، فقد ورد في الموسوعة اليهودية. وهناك أيضاً حالة نعوم تشومسكي، وهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث ويجيد العبرية وعاش

بعض الوقت في إسرائيل، ومع هذا تهمله كل الموسوعات اليهودية ربما بسبب عدائه لإسرائيل والصهيونية. فهل يمكن أن يؤدي الموقف السياسي للمثقف اليهودي إلى إسقاط إثنيته اليهودية عنه؟! وهل الانتماء الإثني اليهودي المزعوم جزء من الخطاب الصهيوني؟

لكن إنكارنا لوجود ثقافة يهودية مستقلة ومثقفين يهود خالصين لا يعني إنكار وجود مكون يهودي أو عناصر يهودية مستقلة. كل ما نذهب إليه أن مثل هذه العناصر، إن وجدت، ليس لها مركزية تفسيرية. أي أنه، لتفسير بنية فكر فيلسوف أو مفكر يهودي ما وطبيعة أدب أديب يهودي ما، يتعين علينا تبني نماذج تفسيرية مشتقة من الحضارة التي ينتمي إليها هذا المفكر أو ذاك الأديب اليهودي بدلاً من العودة للتوراة والتلمود وتاريخ العبرانيين والكنعانيين (كما يفعل الصهاينة والمعادون لليهود). فالنماذج المشتقة من تلك الحضارة ذات مقدرة تفسيرية تفوق بمراحل مقدرة النماذج المشتقة من الثقافة اليهودية، ويمكن دراسة العناصر اليهودية باعتبارها عناصر مكملة دون أن تكتسب مركزية تفسيرية. وانطلاقاً من هذا الإطار التفسيري، فنحن نطرح في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذجاً تفسيرياً جديداً مشتقاً من الحضارة الغربية الحديثة. نحن نذهب إلى القول بأن

هذه الحضارة، منذ عصر نهضتها، قد هيمن عليها بالتدريج ما نسميه بالنموذج الحلولي الكموني. و»الحلولية الكمونية« تعني أن الإله قد حل في المادة (الطبيعة والإنسان) وأصبح غير مفارق لها، وبذلك أصبح العالم (الإنسان والطبيعة) مكتفياً بذاته، لا يحتاج إلى قوة خارجة عنه، ويمكن تفسيره بدراسة قوانين الحركة الكامنة (الحالَّة) فيه. هذه الحلولية الكمونية هي الإطار الفلسفي العام للحضارة الغربية بعقلانيتها المادية منذ فرانسيس بيكون وديكارت، مروراً بهيجل وانتهاءً بنيتشه (الذي ذكَّر أوربا بأن الإله الحالّ في المادة قد مات وأصبح غير قادر على أن يعطي للعالم معنى). والحلولية الكمونية هي الأرضية التي يدخل اليهود خلالها إلى الحضارة الغربية. لكن سيادة هذه الرؤية الحلولية الكمونية أمر لا دخل لليهود فيه، فهو أمر خاضع لحركيات الحضارة الغربية.

ولنا أن نلاحظ أن العقيدة اليهودية ذاتها كانت قد أصبحت عقيدة حلولية كمونية بعد هيمنة القبالاه عليها منذ القرن الرابع عشر، وأن الميراث الحلولي للمثقفين اليهود في العصر الحديث (ابتداءً بإسبينوزا وانتهاءً بدريدا) قد ساهم ولا شك في جعلهم أكثر استعداداً لقبول الحضارة الغربية الحديثة بحلوليتها وكمونيتها. ويمكن أن نشير إلى تصاعد معدلات العلمنة بين الجماعات اليهودية بدرجات تفوق المعدلات السائدة في المجتمع

الغربي (كما هو الحال دائماً مع الأقليات). ويمكن أن نشير كذلك إلى أن إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بالغربة وعدم الأمن (كما هو الحال أيضاً مع أعضاء الأقليات) جعلهم تربة صالحة وخصبة لتقبل الحضارة الغربية الحديثة.

ويمكن، أخيراً، الإشارة إلى أن موقف كثير من المثقفين اليهود يتسم بأنه موقف نقدي جذري من الحضارة الغربية يتسم بالشك المعرفي والأخلاقي وبسيطرة الفلسفات العدمية، وأن كل هذه العناصر اليهودية ساهمت ولا شك في جعل المثقفين اليهود أكثر استعداداً لتقبل الحضارة الغربية الحديثة وأكثر قدرة على التعبير عنها. ومعنى ذلك أن المكون اليهودي في ثقافة المثقف اليهودي الغربي قد يفسر حدة نبرته وجذريتها وعمق عدميتها وحلوليتها، قد يفسر أيضاً تزايد عدد المثقفين اليهود من الثوريين والعدميين ودعاة العقلانية المادية، ولكنه لا يفسر بأية حال ظهور المنظومة الحضارية الغربية الحديثة (العقلانية المادية)، فهذا مرتبط -كما أسلفنا- بآليات المجتمع الغربي الثقافية والاقتصادية.

والملاحظ أن بروز أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية الحديثة ناجم عن انتمائهم إلى هذه الحضارة واندماجهم فيها واستيعابهم لها لا لانعزالهم عنها، بل إن هذا البروز يتزايد بمقدار تخليهم عن عزلتهم واستقلالهم. وليس من قبيل الصدفة أن

أول مفكر يهودي بارز في الحضارة الغربية الحديثة هو إسبينوزا الذي تخلى عن يهوديته. وقد أعلن هايني أن التنصر هو تأشيرة الدخول للحضارة الغربية، فتنصَّر كما تنصَّر والد ماركس وأولاد هرتزل وأولاد موسى مندلسون ونصف يهود برلين في القرن التاسع عشر... إلخ. ولكن الأدق هو القول بأن التخلي عن العقيدة اليهودية (وليس بالضرورة التنصر) هو تأشيرة الدخول للحضارة الغربية، فليس مطلوباً من أحد أن يتنصَّر لأن مرجعية الحضارة الغربية لم تعد المسيحية وإنما العقلانية المادية أو الحلولية الكمونية. وينبغي الإشارة إلى أن المكمون اليهودي قد ينصرف إلى بنية فكر المثقف اليهودي وإلى الموضوعات الكامنة وليس إلى مضمونها الواضح. بل إنه يمكن أن يكون المضمون الواضح عالمياً وإنسانياً بل ومعادياً لليهود أو الصهيونية. وتظل البنية والمقولات الأساسية الكامنة يهودية بالمعنى المحدد الذي نطرحه، كما هو الحال مع إسبينوزا ودريدا وفرويد وكافكا. فإسبينوزا وقف موقفاً رافضاً تماماً لكل الأديان، بل واختص اليهودية بالهجوم الشرس، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن كثير من المفكرين الغربيين من عصر النهضة، وهيمنة العقلانية المادية. ومع هذا، لا يمكن فهم حدة هذا الرفض وهذا الهجوم إلا بالعودة للقبالاه اللوريانية والتراث الماراني.

كما أن الاهتمام الحاد لدى فرويد بالجنس يمكن رؤيته كتعبير طبيعي عن تصاعد معدلات العلمنة ومحاولة رد كل شيء إلى عنصر واحد كامن/حالّ (الجنس في حالة فرويد). ولكن القبالاه اللوريانية كانت قد قامت قبل ذلك بعدة قرون بإنجاز هذا معرفياً وبشكل متبلور. وقد وصف أحد المراجع القبالاه بأنها جنَّست الإله وألَّهت الجنس، أي جعلت الجنس نموذجاً تفسيرياً كلياً ونهائياً يُردُّ له كل شيء. وهذا ما فعله فرويد.

وتلجأ بعض المراجع لحيلة رخيصة لتأكيد وجود حضارة يهودية مستقلة وهوية يهودية ثقافية مستقلة نابعة منها، فتتحدث موسوعة الثقافة اليهودية عن هذا الزي «اليهودي الصميم» الذي يرتديه يهود المغرب والذي يسمَّى Keswa Kubra وهي «الكسوة الكبيرة»، وتُكتب الكلمة بحروف لاتينية، فيتصور القارئ الذي لا يعرف العربية أن هذه كلمة عبرية أو كلمة عربية عبرية لا يستخدمها سوى اليهود المغاربة! ويوجد للزي اليهودي الصميم شيء لم نسمع عنه من قبل أو بعد يسمَّى Cum وهو «الكم». ويأكل أعضاء الجماعات اليهودية في بخارى طعاماً يهودياً مميَّزاً يسمَّى Yachni أي «الياخني»، أما في اليمن فهم يأكلون طعاماً خاصاً للغاية لم نسمع عنه قط من قبل يسمَّى Khubz أي «خبز». أما في إسرائيل فإن اليهود يأكلون طعاماً موغلاً في

يهوديته اسمه Falafel أي »الفلافل« والتي اكتشفت أنها طعام إسرائيلي فريد حينما كنت أعيش في مدينة نيويورك!

ورؤساء يهود الفلاشاه نوع خاص من الحاخامات يسمونهم »قسيم« وهي صيغة الجمع العبرية لكلمة »قس« العربية (وربما الأمهرية) التي اقتبسها يهود الفلاشاه الذين دخلت على يهوديتهم عناصر مسيحية كثيرة! وحينما يحاول الإسرائيليون أن يرقصوا فهم يرقصون رقصة يهودية صميمة تسمَّى »الهورا« (من أصل روماني) أو رقصة يهودية أخرى تسمَّى »الدبكة« ! وحينما ترتدي مضيفات شركة العال زي الفلاحة الفلسطينية، فهذا زي إسرائيلي نابع من الثقافة اليهودية. وحينما أسس متحف في قرى حيفا على هيئة قرية عربية، ذكر كتيب المعرض للزائرين أن هذه قرية من حوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك حتى يمكن تحاشي ذكر كلمة »فلسطين« وحتى يختبئ الأصل الحقيقي للمنتج الحضاري. لكن هل يمكن تأسيس ثقافة من خلال مثل هذا التلفيق الرخيص والعنف اللفظي الذي يبعث على الرثاء؟! قد ينجح الصهاينة في تأسيس بعض المستوطنات من خلال العنف والبطش العسكري، ولكن التجذر الحضاري أمر آخر، والقلاع الصليبية المهجورة التي لا يبكي أحد على أطلالها شاهد على ذلك.

وما دام "الاستقلال" الثقافي اليهودي أمراً لا وجود له، فلا

يمكن الحديث عن خصوصية يهودية، ذلك لأن مفهوم الخصوصية ليس له ما يسانده في الواقع الثقافي لليهود. والواقع أن ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية بل ومعتقداتهم الدينية تتسم بقدرٍ عالٍ من عدم التجانس النابع من وجودهم في مجتمعات شتى يتكيفون مع حضاراتها ويستوعبونها ويستمدون خصوصياتهم منها (فلا خصوصية يهودية واحدة عالمية كما يدَّعي الصهاينة والمعادون لليهود)، ولذا فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية، تماماً مثل حديثنا عن ثقافات الجماعات اليهودية، بدلاً من الحديث عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مستمدة من معجم حضاري واحد.

الهوية اليهودية

ثمة انطباع عام في الأوساط العربية مفاده أن الصهيونية مشروع ناجح تماماً، فقد تم تأسيس الدولة وتحقيق كل ما يصبو إليه الصهاينة من أهداف وغايات. ولا يمكن إنكار أن في هذا القول شيئاً من الحقيقة، فانتصارات الدولة الصهيونية العسكرية، ووجود أربعة ملايين مستوطن صهيوني في وسط العالم العربي، هو إنجاز استعماري لا ريب فيه: ويعود هذا النجاح إلى عدة أسباب من بينها أن الصهاينة اكتشفوا الإمبريالية الغربية باعتبارها الآلية الأساسية في القرن التاسع عشر لتنفيذ أي

المشروع خارج أوربا، فكل من كان لديه مشروع يرغب في تحقيقه بما كان عليه إلا أن يتبنى الحل الدارويني السحري وهو الحل الإمبريالي. وقد أنجزت الصهيونية ذلك بنجاح كبير.

وقد حرص الصهاينة، قبل تأسيس الدولة وبعده، أن يحتفظوا بدورهم كقاعدة للاستعمار الغربي، وكقلعة أمامية له تدافع عن أمنه ومصالحه. وقد ضمن لها هذا الوضع الدعم الغربي، العسكري والسياسي والاقتصادي، الدائم.

والأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية حديثة بمعنى الكلمة، داروينية حتى النخاع، لا تؤمن إلا بقيم الصراع والبقاء المادي للأقوى. وهي بالتالي أيديولوجية ذات جاذبية خاصة تلاقي هوى عند إنسان أوربا الحديث، دارويني المنزع والاتجاه. ومع هذا، ورغم داروينيتها الواضحة، نجحت هذه الأيديولوجية في إخفاء هذا الجوهر المادي الحديث من خلال ديباجات دينية واشتراكية وديمقراطية قوية ومتنوعة. وقد أعطى تنوُّع الديباجات الصهيونية قوة تعبوية عالية لهذه الأيديولوجية بين جماهير اليهود.

إلى أن ثمة مواطن ضعف إلى جانب مواطن القوة هذه، ومنها مثلاً أن كل أيديولوجية إصلاحية تنطوي على نزعة مثالية، وأن كل أيديولوجية إصلاحية تنطوي على قوة مثالية، ولذلك فإن ثمة مسافة تفصل بين الأيديولوجية الإصلاحية والواقع الظالم، ولكن لابد أن

تكون المسافة معقولة حتى تكون هذه الأيديولوجية أيديولوجية فعالة ولا تصبح أيديولوجية فاشية. والأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية لها برنامج إصلاحي: الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وتجميع أعضاء الشعب اليهودي من كل أنحاء العالم وتأسيس دولة يهودية خالصة. ولكن المسافة التي تفصل البرنامج الإصلاحي الصهيوني عن الواقع مسافة أقل ما توصف به أنها شاسعة. وهو برنامج يمكن تلخيصه في عبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وهو برنامج لا علاقة له بأي واقع، سواء واقع الفلسطيني أو واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم.

ومنذ البداية، ارتطم البرنامج الإصلاحي الصهيوني بالواقع غير المتجانس ليهود العالم. وفي عام ١٩٥٠، صدر قانون العودة الإسرائيلي الذي يؤكد أنه «يحق لكل يهودي أن يهاجر إلى إسرائيل» ولكن من أصدروا القانون نسوا (أو تناسوا) أن يعرِّفوا من هو اليهودي الذي يحق له الهجرة إلى فلسطين المحتلة بموجب هذا القانون. وقد أثيرت قضية «من هو اليهودي» عدة مرات، وكان الأمر ينتهي إلى تجاهلها نظراً لعدم التوصل إلى حدٍ أدنى من الاتفاق حولها، وهو ما عبَّر عنه أحد المعلقين الإسرائيليين بقوله إنه "مع مرور السنين، اتضح شيئاً فشيئاً أنه لا تتوفر إمكانية لتكوين إجماع وطني بخصوص هذه القضية". وقد طرح البرنامج

الإصلاحي الصهيوني في بداية الأمر رؤية «أتون الصهر» أو «مزج الجاليات» (بالعبرية: ميزوج جاليوت)، وفحواها أن أعضاء الجماعات اليهودية سيحضرون إلى إسرائيل ويتخلون تدريجياً عن هوياتهم القديمة التي اكتسبوها في المنفى ويتم صهرهم جميعاً في بوتقة واحدة فيكتسبوا هوية إسرائيلية جديدة، وبذلك يتحقق الحلم الصهيوني الخاص بتجميع «الشعب اليهودي» الواحد. وبالفعل، كان علم الاجتماع الإسرائيلي يدور في إطار هذا التصور، وكان يراكم الحقائق التي تؤكد هذا الزعم _ لاحظ، على سبيل المثال، الاختفاء التدريجي للأحزاب التي تستند إلى أساس عِرْقي وظهور الأحزاب الأيديولوجية التي سيطرت على المسرح السياسي في الدولة الصهيونية حتى نهاية الستينيات.

ولكن، بمرور الوقت، بدأت أسطورة «أتون الصهر» تتآكل، وبدأ علم الاجتماع الإسرائيلي يعترف تدريجياً بأن هناك أمتين واحدة غربية (إشكنازية) والأخرى شرقية (سفاردية)، ثم بدأ الانقسام الديني العلماني في التبلور، وعادت الأحزاب العِرْقية إلى الظهور، فهناك حزب "شاس" (السفاردي) وهناك أحزاب روسية وأخرى دينية إشكنازية وهكذا.

ومن المشاكل الجديدة التي يواجهها الجيب الصهيوني مشكلة العمال الوافدين، وهي مشكلة آخذة في التفاقم. فقبل اندلاع

انتفاضة الأقصى، كان العمال الفلسطينيون يذهبون إلى فلسطين المحتلة (قبل عام ١٩٤٨) فيؤدون عملهم ثم يعودون إلى منازلهم في الضفة أو القطاع. ولكن مع اندلاع الانتفاضة، أصبحت هذه الهجرة اليومية مصدر تهديد أمني، فأوقفتها السلطات الإسرائيلية. وبدأ الكيان الصهيوني يفتح أبوابه للعمال من الفلبين وتركيا، وإن كان يعتمد أساساً على العمال من شرق أوربا. وقد بلغ عددهم حوالي ٣٠٠ ألف، وهي كتلة بشرية كبيرة مقيمة بشكل دائم داخل التجمع الصهيوني. ولذا، فهي تهدد أمنه الاجتماعي إذ بدأ أعضاء هذه الكتلة، وغالبيتهم الساحقة من الذكور، في الزواج من الإسرائيليات. والأدهى من ذلك أن كثيرين منهم أعلنوا استعدادهم للتهود والحصول على الجنسية الإسرائيلية (بكل ما يحمله ذلك من مزايا اقتصادية). وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن المهاجرين السوفيت من غير اليهود وأشباه اليهود الذين يعلنون أنهم يهود أو لا مانع لديهم من التهوُّد من أجل الحصول على مستوى معيشي أفضل.

ويُعد الانتماء العِرْقي الروسي واحداً من عشرات الانتماءات الأخرى التي تبين كذب مقولة "الشعب اليهودي الواحد" وتقوِّض أسطورة «أتون الصهر» الذي سيقفز فيها كل مهاجر يهودي جديد ليخرج بعد قليل مواطناً إسرائيلياً لا علاقة له بتراثه الحضاري

وتاريخه الاجتماعي وهويته العِرْقية التي حملها من وطنه الأصلي.

وقد أدى فشل أسطورة »أتون الصهر« إلى تفاقم حدة قضية الهوية، بل وإلى انفراط العقد الاجتماعي الصهيوني أو على الأقل تآكله. فقد كان هناك اتفاق على المقولات الأساسية، مثل القول بأن اليهود شعب واحد (يضم الدينيين والإشكناز والسفارد وغيرهم)، وأنه شعب يطمح للعودة إلى أرضه للاستيطان فيها، وأن الصهيونية ستنهي حالة النفي وستقوم بتطبيع اليهود. الصهيونية قد فشلت في كل هذا، فاليهودي (هذا المكون الأساسي لهذا الشعب اليهودي) لم يعرَّف بطريقة ترضي كل الأطراف، وهو شعب يرفض العودة لوطنه »القومي«، الأمر الذي يخلق أزمة سكانية استيطانية. ولهذا، لم يعد هناك اتفاق على المكونات الأساسية للصهيونية وأهدافها المبدئية، فالرؤية ليس لها ما يساندها في الواقع، والواقع صلب لا يود أن يخضع للرؤية.

وقد ترجم هذا التآكل نفسه إلى عدم اكتراث بالمشروع الصهيوني الذي قام بدوره بترجمة نفسه إلى عدم الإيمان بالقيم الصهيونية (الريادية) المبنية على التقشف وتأجيل الإشباع. وبدلاً من ذلك، ظهر السعار الاستهلاكي والنزوع نحو الأمركة والعولمة والخصخصة، وهي حالة لا تصيب الصهاينة وحدهم وإنما تصيب أيَّ مجتمع يفتقر إلى الاتجاه وإلى المشروع الحضاري ولا يحل

مـشكلة المعنى. ولكن، رغم كل هذا التـآكل، يظل هناك إجـمـاع صهيوني لم يتآكل وهو رفض الاعتراف بالفلسطينيين وحقهم في هذه الأرض التي تم اغتصابها.

من هو اليهودى ؟

أصدر المؤتمر الصهيوني الرابع والثلاثين (٢٠٠٢) قراراً يدعو الكنيست إلى الموافقة على القانون الأساسي الخاص بالحرية الدينية (هاَرتس، ٢١ يونيو/حزيران ٢٠٠٢). ومن المعروف أن الدولة الصهيونية ليس لها دستور، بل مجموعة من القوانين الأساسية التي صدرت في فترات مختلفة. والقانون الأساسي المقترح يعترف بعقود الزواج وأحكام الطلاق المدينة (أي التي تمت أمام محكمة مدنية وليس على يد حاخام). كما يضمن القانون المساواة الكاملة بين جميع المذاهب اليهودية ويمنع التفرقة على أساس ديني. وقد تقدمت مجموعة تسمى "الأغلبية الصهيونية" بمشروع القرار، وهي مجموعة تضم المهاجرين من اليهود السوفييت وممثلين لليهودية الإصلاحية والمحافظة والعناصر العلمانية في التجمع الصهيوني، وهم بالفعل يشكلون أغلبية في المنظمة الصهيونية (كما يشكلون أغلبية في التجمع الصهيوني). وقد وافق على مشروع القرار معظم ممثلي حزبي الليكود والعمل في المنظمة، كما وافق عليه الكنيست بشكل مبدئي بعد القراءة الأولى (وكل مشروع يحتاج لثلاث قراءات لتتم الموافقة النهائية

عليه).

ولكن ماذا سيحدث في التجمع الصهيوني لو وافق الكنيست على هذا القانون الأساسي المقترح؟ أعتقد أن النتائج ستشكل ما يشبه الكارثة بالنسبة لإسرائيل. فالتجمع الصهيوني يستند إلى ما يسمى اتفاقية الوضع الراهن. فقد أرسل بن جوريون عام ١٩٤٧ (باعتباره رئيس الوكالة اليهودية) خطاباً إلى زعماء حركة "أجودات إسرائيل" وعد فيه بالحفاظ على الوضع الراهن، أي الواقع الديني بين المستوطنين الصهاينة إبان حكم الانتداب، مما كان يعني أن الصلاحيات المطلقة في مجال الزواج والطلاق وُضعت في يد مؤسسة القضاء الحاخامي التي يسيطر عليها المتدينون. وبالإضافة إلى ذلك، تم الاعتراف بالتعليم الديني المستقل، وهو ما يعني أن الدولة عليها أن تموله، كما أُعفي طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية. وتُرفق اتفاقية الوضع الراهن بكل اتفاق ائتلافي منذ عام , ١٩٩٥

وقد ظل الوضع الراهن قائماً حتى عهد قريب إلى أن ظهرت عدة عوامل أدت إلى زيادة حدة الاستقطاب الديني _ العلماني على مستوى الدولة الصهيونية وعلى مستوى العالم، وهو الأمر الذي وضع اتفاقية الوضع الراهن موضع التساؤل. ومن أبرز هذه العوامل:

تزايد معدلات العلمنة منذ السبعينيات بين اليهود وفي التجمع الصهيوني.

يُلاحظ أنه مع تزايد معدلات العلمنة بين يهود العالم (خاصة يهود الولايات المتحدة) يتزايد ضيقهم بهيمنة المؤسسة الحاخامية الأرثوذكسية على مناحي الحياة في التجمع الصهيوني.

يُلاحظ أن الهوة التي تفصل بين المذاهب اليهودية مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة والتجديدية، من جهة، واليهودية الأرثوذكسية، من جهة أخرى، قد تزايدت عبر السنين. فالحاخامات الإصلاحيون، على سبيل المثال، لا يترددون الآن في عقد زيجات "شرعية" بين شخصين من نفس الجنس أمام حائط المبكى، وهو الأمر الذي يُقابل بالاستهجان لدى أتباع اليهودية الأرثوذكسية. ولهذا صرح أحد الحاخامات الأرثوذكس أن هناك الآن عقيدتين يهوديتين: اليهودية الأرثوذكسية ثم المذاهب الأخرى. وهو محق في ذلك تماماً، فالمذاهب اليهودية الأخرى قد ابتعدت تماماً عن العقيدة اليهودية الحاخامية.

وعلى الرغم من هذا يُلاحظ أن ممثلي هذه المذاهب اليهودية (شبه العلمانية) بمساعدة العلمانيين في التجمع الصهيوني قد سيطروا تماماً على المنظمة الصهيونية، في الوقت الذي تزايدت فيه هيمنة الأحزاب الدينية في الدولة الصهيونية.

يُضاف إلى هذا كله ظهور كتلة اليهود السوفييت، وهي كتلة علمانية تماماً، بل إن كثيراً من أعضائها ليسوا يهوداً أساساً، فهؤلاء هاجروا إلى الدولة الصهيونية بحثاً عن الحراك الاجتماعي ولا يربطهم رابط باليهودية أو الصهيونية، وأمثال هؤلاء بطبيعة الحال يقفون بكل حزم في المعسكر العلماني.

وفي الوقت ذاته، تصاعدت حدة الخطاب الديني ونفوذ الأحزاب الدينية داخل التجمع الصهيوني، بحيث أصبحوا يكونون كتلة كبيرة لها ثقل ملحوظ.

يُلاحظ أن الاستيطان في الضفة الغربية (والاستيطان هو عمود الصهيونية الفقري) أصبح حكراً تقريباً على المهووسين الدينيين. بل إن كثيراً من العلمانيين (من أعضاء حزب العمل وغيره من الأحزاب العلمانية) يعارضون الاستيطان في الضفة الغربية، بل ويطالب بعضهم بضرورة إخلاء المستوطنات، حفاظاً على أمن إسرائيل (داخل حدود عام ١٩٤٨).

عند إعلان الدولة الصهيونية كان عدد طلبة المعاهد الدينية، عندما اتُفق على إعفائهم من الخدمة العسكرية، لا يتجاوز ٤٠٠، ولكن عددهم الآن يزيد عن ٣٠ ألفاً. ومع اندلاع انتفاضة الأقصى وتساقط القتلى والجرحى الإسرائيليين واستدعاء جنود الاحتياط تصاعد احتجاج الجمهور العلماني على إعفاء طلبة المعاهد الدينية

من أداء الخدمة العسكرية، خاصة وقد أصبح يُنظر إليها لا باعتبارها واجباً فحسب بل وضرورة لبقاء التجمع الصهيوني. وحينما أصدر الكنيست تشريعاً يقضي بتأكيد إعفاء طلبة المدارس الدينية ثار الرأي العام العلماني وبدأ توجيه الاتهامات إلى طلبة المدارس الدينية بأنهم يتهربون من الخدمة العسكرية ومن عبء الدفاع عن المجتمع الإسرائيلي، لا سيما وأن هؤلاء الطلاب من أشد دعاة التوسع الاستيطاني وإقامة ما يُسمى "إسرائيل الكبرى". وقد وصف يوسف لبيد، أحد قادة حزب "شفوي" العلماني قرار الكنيست بأنه نوع من التمييز بين دم [العلمانيين] ودم [طلبة المدارس الدينية]. أما أوفير باينز، عضو حزب العمل، فقد تنبأ بأن هذا القانون سيترك "جرحاً لا يندمل بين العلمانيين والمتدينين"، كما قال بعض المعلقين إن هذا القانون سيجعل التمييز بين الفريقين مسألة راسخة ذات سندٍ قانوني. وقد رد المتحدثون باسم المؤسسة الدينية بأن دراسة التوراة هي سر بقاء "الشعب اليهودي" ("الهيرالد تريبيون" ٢٥ يوليو/تموز ٢٠٠٢)، وهي أطروحة لا أعتقد أن الصهاينة العلمانيين يقبلونها.

وقد تبلور الصراع بين الصهاينة الدينيين والصهاينة العلمانيين في إشكالية "من هو اليهودي؟" أي ما الذي يشكل يهودية اليهودي؟ وهل هو انتماؤه العرقي وحسب (أي أنه وُلد لأم يهودية)

أم انتماؤه العرقي والديني (أي أنه وُلد لأم يهودية ويؤمن بالعقيدة اليهودية ويمارس شعائرها). وهذه الإشكالية قديمة داخل العقيدة اليهودية التي عرفت اليهود على أساس عرقي وديني، وهي لا تزال تزلزل الكيان الصهيوني من آونة لأخرى، وإصدار القانون الأساسي الخاص بالحرية الدينية لن يكون مجرد زلزال عابر وإنما سيكون بركاناً متفجراً يدمر العقد الذي يستند إليه هذا الكيان. ولعل هذا هو السبب في أن القرارات النهائية لهذا المؤتمر الصهيوني لم تتضمن القرار الخاص بالقانون الأساسي الخاص بالحرية الدينية، رغم أن صحيفة "هآرتس"، كما سبقت الإشارة، قد نشرت خبر صدوره عن المؤتمر في صدر صفحتها الأولى.

التهويد العلماني

استقر في إسرائيل خلال الأعوام القليلة الماضية مالا يقل عن نصف مليون شخص غير يهودي، نصفهم من المهاجرين والنصف الآخر من العمال الأجانب. ويشكل هؤلاء، الذين قدموا في معظمهم من بلدان الاتحاد السوفيتي السابق وبعض بلدان آسيا، كتلة بشرية كبيرة بالقياس إلى إجمالي تعداد السكان في الدولة الصهيونية، وقد أصبحت تسبب الكثير من المشاكل الاجتماعية، ومن أهمها أن أعضاء هذه الكتلة البشرية، كما هو متوقع من أي بشر، يتزاوجون وينجبون. ولكن هذا الأمر البسيط والمتوقع له

توابع في المجتمع الاستيطاني العنصري الصهيوني، فهو يزيد من عمق الهوة بين المتدينين والعلمانيين.

ولفهم هذه القضية كان من الضروري تطوير مصطلحات جديدة تتلاءم مع جدة الظاهرة، وهذا ما فعله أشير كوهين، وهو من علماء الاجتماع في إسرائيل (قسم الدراسات السياسية في جامعة بارإيلان)، حيث نحت مصطلحاً جديداً هو "الاندماج الداخلي". والاندماج في الخطاب الصهيوني هو عاده اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات غير اليهودية. ولكن أشير كوهين لاحظ أنه لأول مرة في التاريخ تظهر عملية اندماج عكسية، أي اندماج المهاجرين والعمال غير اليهود في "المجتمع اليهودي" في إسرائيل، فهم يندمجون ثقافياً واجتماعياً (اثنياً) في هذا المجتمع ، فيتحدثون العبرية ويكتسبون طبائع الإسرائيليين ويأكلون طعامهم ويرتدون رداءهم، ولكنهم يظلون من منظور الشريعة اليهودية غير يهود، لأن هذه الشريعة تُعرِّف اليهودي تعريفاً مزدوجاً. فاليهودي هو أولاً من ولد لأم يهودية (وهذا هو الجانب العرقي أو الإثني/أو العلماني الذي يرضي العلمانيين ولهذا يكتفون به)، ولكن الشريعة اليهودية تضيف شرطاً آخر يقضي بأن اليهودي هو من يؤمن بالعقيدة اليهودية أو من تم تهويده علي يد حاخام أرثوذكسي. وهذا بطبيعة الحال لا يرضي

العلمانيين، ولهذا إذا قرر أحد هؤلاء المهاجرين في المستقبل أن يتزوج من مواطنة إسرائيلية يهودية، فإن مثل هذا الزواج سيصنف باعتباره زواجاً مختلطاً، أي أنه زواج بين يهودي وغير يهودي، وهو الأمر الذي تحرمه العقيدة اليهودية.

وقد لاحظ أشير كوهين أن هناك ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص، ممن لا ينطبق عليهم هذا التعريف لليهودي، غير متزوجين وعلي استعداد للزواج، أي أنهم يمثلون قنبلة موقوتة ستطرح قضية "من هو اليهودي؟" مرة أخري وبعنف على المجتمع الإسرائيلي. فالإسرائيليون العلمانيون يذهبون إلى أن المهاجر غير اليهودي الذي اندمج ثقافياً في المجتمع الصهيوني وربط مستقبله بمصيره، يصبح يهودياً، بل إنهم يذهبون إلي أبعد من هذا، فهم يتحدثون الآن عما يُسمى "التهويد العلماني". ومن أبرز دعاة هذا الاتجاه يوسى بيلين (وزير العدل في حكومة باراك)، وكذلك يعقوف مالكين (أستاذ علم الجمال في جامعة تل أبيب ورئيس تحرير مجلة اليهودية الحرة (Free Judaism، فهما يحددان بعض قواعد أو شعائر هذا "التهويد العلماني"، ومن بينها المعرفة الوثيقة بما يسمي "الثقافة اليهودية"، والانخراط في الحياة اليهودية الجماعية، وممارسة بعض الشعائر الدينية باعتبارها فلكلور الشعب اليهودي، وتلاوة التوراة باعتبارها كتاباً تراثياً غير ملزم دينياً أو أخلاقياً. بل

إن العلمانيين يرون أن كثيراً من الشعائر والمحظورات الدينية تثير السخرية والضحك. فهم يذهبون مثلاً إلى أن أكل لحم الخنزير، الذي تحرمه الشريعة اليهودية، هو مسألة شخصية يقررها كل شخص لنفسه، وأن الشذوذ الجنسي مسألة طبيعية ولا يجوز أن تُقابل بالرفض والتحريم من جانب المتدينين، فهي مجرد أسلوب حياة يختاره الفرد لنفسه. وكل هذا يعني أن العلمانيين يرون أن من يكتسب ما يسمي الثقافة اليهودية يصبح يهودياً، بل إنهم يرون أن المعيار الأساسي هو أن يربط الإنسان المتهود مصيره بمصير "الشعب اليهودي"، أما العقيدة اليهودية وما يرتبط بها من شعائر فهذه مسائل ثانوية.

والملاحظ أنه كلما ازداد العلمانيون شططاً في دعواتهم وأنشطتهم، ازداد الأرثوذكس بدورهم تطرفاً في المقابل، حيث وصل الأمر بهم إلى المطالبة بزيادة الحواجز بين اليهود وغير اليهود. فقد طالب الحاخام جداليا أكسيلورد (وهو يعمل قاضياً في المحكمة الدينية في محكمة حيفا الحاخامية) بأنه حتى بعد أن يتم إصدار شهادة التهويد لأحد المهاجرين غير اليهود، لابد وأن يُعاد اختبار صاحب هذه الشهادة وأسلوب حياته كل عام للتأكد من مدى تمسكه باليهودية، وكأن شهادة التهويد هي مجرد وثيقة مثل رخصة القيادة لابد من تجديدها.

ويري أشير كوهين أن قانون العودة الصهيوني لابد وأن يُعدل لأنه فتح الباب علي مصراعيه أمام غير اليهود للهجرة والاستقرار في إسرائيل. فهو يطالب علي سبيل المثال بإلغاء البند الخاص بالأحفاد، وهو البند الذي يسمح لشخص ما بالهجرة إلي الدولة الصهيونية إذا كان جده يهودياً، حتى لو كان أبواه غير يهوديين (أي تنصرا أو تزوج أحدهما من زوج غير يهودي). كما طالب أشير كوهين بعدم الربط بين حق العودة وحق الحصول علي الجنسية الإسرائيلية! وهذا شيء مضحك للغاية يدل علي عمق الأزمة التي يواجهها الكيان الصهيوني، فماذا تعني "عودة" اليهودي إلى أرض الميعاد دون أن يحصل على الجنسية؟ هل سيجلس هناك علي حقيبته ينتظر "العودة" إلي دولةٍ أخرى تمنحه الجنسية؟ وأخيراً يطالب أشير كوهين بأن تكون المؤسسة الحاخامية أكثر مرونة في شعائر التهويد، وهي شعائر تحددت عبر مئات السنين ويصعب تغيرها أو تعديلها خاصةً مع تصاعد هذه اللهجة العلمانية وهذا الحديث الجديد عن التهويد العلماني، والذي يوحي بأن اليهودية العلمانية أصبحت متساوية مع اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية.

وليس من الغريب أن أشير كوهين لم يتقدم بأية اقتراحاتٍ محددةٍ بخصوص تغيير شعائر التهويد، فأي خوضٍ في هذه

القضية لابد وأن يصطدم في نهاية المطاف بالسؤال المعلق الذي لم يتفق المتدينون ولا العلمانيون على إجابةٍ محددةٍ له، وهو "من هو اليهودي؟".

أتون الصهر الإسرائيلي

تنطوي كل أيديولوجية إصلاحية على نزعة مثالية. ففي جنوب أفريقيا، على سبيل المثال، كانت أيديولوجية الثوار الأفريقيين هي إزالة النظام العنصري الذي يستند إلى التفرقة بين البشر على أساس اللون، وتشييد نظام جديد مبني على المساواة بين كل المواطنين دون تفرقة بسبب الدين أو اللون أو العرق. وفي الولايات المتحدة، في أواخر القرن السابع عشر، تمثلت أيديولوجية السكان البيض في ضرورة الاستقلال عن العرش البريطاني الذي كان يستغلهم ويفرض عليهم الضرائب دون وجه حق.

وثمة مسافة تفصل بين الأيديولوجية الإصلاحية والواقع الظالم، ولكنها ليست مسافة شاسعة، خاصة وأن الأيديولوجية الإصلاحية في حالة جنوب أفريقيا والولايات المتحدة كانت تستند إلى منظومة أخلاقية تعبر عن أنبل القيم الإنسانية" ولذا نجد أن الثوار في الولايات المتحدة وفي جنوب أفريقيا حملوا السلاح ضد القوة الظالمة الحاكمة وحاربوا ضدها وكُللت جهودهم بالنجاح.

والأيديولوجية الصهيونية هي الأخرى أيديولوجية لها برنامج إصلاحي: الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وتجميع أعضاء الشعب اليهودي من كل أنحاء العالم وتأسيس دولة يهودية خالصة. ولكن المسافة التي تفصل البرنامج الإصلاحي الصهيوني عن الواقع مسافة أقل ما توصف به بأنها شاسعة. بل يمكن القول إنه لا توجد علاقة واضحة بين البرنامج الإصلاحي الصهيوني والواقع سواء الواقع الفلسطيني أو واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. فالواقع الفلسطيني أثمر مقاومة فلسطينية مستمرة منذ أن وصل المستوطنون الصهاينة، وهي مقاومة أخذت في التصاعد والنضج إلى أن وصلت إلى ذروتها في انتفاضة الأقصى. كما أن واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم يثبت أنهم ليسوا شعباً يهودياً بل جماعات يهودية تستمد كل جماعة منها خطابها الحضاري من المجتمع الذي تعيش فيه. ومع هذا استمر الصهاينة في محاولة تنفيذ برنامجهم "الإصلاحي". وقد عبر هذا عن نفسه مؤخراً فيما سُمي "ميثاق طبرية" الذي وقع عليه عدد من المفكرين وقادة الرأي والقادة السياسيين والعسكريين في الكيان الصهيوني. تقول الوثيقة إن إسرائيل تجسد حق الشعب اليهودي في تقرير المصير. وهي ملتزمة بمواصلة وجود الشعب اليهودي وحقه في أن يحكم نفسه بنفسه في دولته السيادية. وهي

دولة لها طابع يهودي واضح يجد تعبيره في التزامها العميق بالتاريخ اليهودي والثقافة الإسرائيلية وتشجيع الهجرة والاستيعاب، ونشر اللغة العبرية وهي لغة الدولة الأساسية، ولغة الإبداع الإسرائيلي المميز، كما يُقال.

ومنذ البداية، ارتطمت هذه الكلمات الطنانة بالواقع غير المتجانس ليهود العالم. وفي عام ١٩٥٠، صدر قانون العودة الإسرائيلي الذي يؤكد أنه "يحق لكل يهودي أن يهاجر إلى إسرائيل" ولكن من أصدروا القانون نسوا (أو تناسوا) أن يعرِّفوا من هو اليهودي الذي يحق له الهجرة إلى فلسطين المحتلة بموجب هذا القانون. ولذا لم يكن أحد يهتم بتفحص كل مهاجر وما إذا كان قد ولد لأم يهودية بالفعل أو أنه قد خضع لطقوس التهويد حسب الشريعة اليهودية.

وقد أُثيرت قضية "من هو اليهودي" عدة مرات، ولكن الأمر كان ينتهي إلى تجاهلها نظراً لعدم التوصل إلى حدٍ أدنى من الاتفاق حولها، وهو ما عبَّر عنه أحد المعلقين الإسرائيليين بقوله إنه "مع مرور السنين اتضح شيئاً فشيئاً أنه لا تتوفر إمكانية لتكوين إجماع وطني بخصوص هذه القضية". وقد طرح البرنامج الإصلاحي الصهيوني في بداية الأمر رؤية "أتون الصهر" أو مزج الجاليات (بالعبرية: ميزوج جاليوت)، وفحواها أن أعضاء

الجماعات اليهودية سيحضرون إلى إسرائيل ويتخلون تدريجياً عن هوياتهم القديمة التي اكتسبوها في المنفى ويتم صهرهم جميعاً في بوتقة واحدة فيكتسبوا هوية إسرائيلية جديدة، وبذلك يتحقق الحلم الصهيوني الخاص بتجميع "الشعب اليهودي" الواحد. وبالفعل كان علم الاجتماع الإسرائيلي يدور في إطار هذا التصور، وكان يراكم الحقائق التي تؤكد هذا الزعم. لاحظ على سبيل المثال الاختفاء التدريجي للأحزاب التي تستند إلى أساس عِرقي وظهور الأحزاب الأيديولوجية التي سيطرت على المسرح السياسي في الدولة الصهيونية حتى نهاية الستينيات.

ولكن بمرور الوقت بدأت أسطورة "أتون الصهر" تتآكل، وبدأ علم الاجتماع الإسرائيلي يعترف تدريجياً بأن هناك أمتين واحدة غربية (أشكنازية) والأخرى شرقية (سفاردية)، ثم بدأ الانقسام الديني العلماني في التبلور، وعادت الأحزاب العِرقية إلى الظهور، فهناك حزب "شاس" (السفاردي) وهناك أحزاب روسية وأخرى دينية أشكنازية وهكذا.

والتركيبة السكانية الإسرائيلية (حسب بيانات عام ١٩٩٢) تبين مدى عدم التجانس، فالأوروبيون والأمريكيون يشكلون قرابة ٤٠ بالمئة والنسبة الباقية ذات أصول شرقية (إفريقية آسيوية) واصطلاح "أصول شرقية" اصطلاح عريض للغاية يشير إلى

متحفٍ من الأقليات العِرقية والدينية ليس له نظير في العالم.

ولنبدأ بالمهاجرين الذين جاءوا من اتحاد دول الكومنولث (الاتحاد السوفيتي سابقاً). فلم يكن الدافع وراء هجرة هذه الكتلة البشرية هو العودة إلى أرض الأجداد تحقيقاً للوعد الإلهي، وإنما كان بشكل فرار مجموعة من المرتزقة من إمبراطورية تداعت أركانها إلى بقعة من الأرض يمكنهم أن يحققوا فيها مستوى معيشياً معقولاً.

وقد أظهر بحث أجراه العلامة يوحانان بيريس من قسم العلوم الاجتماعية بجامعة تل أبيب، وعُرضت نتائجه في مقال بعنوان "غرباء في بيتنا: فشل بوتقة الصهر" بقلم ناتاشا موزجوفياه (يديعوت أحرونوت ٢٩ مايو/أيار ٢٠٠٠)، أن ٨ بالمئة فقط من مهاجري دول الكومنولث يعتبرون أنفسهم إسرائيليين. وقد شمل البحث ١٢٠٠ شخص، وتنخفض النسبة إلى ٤ بالمئة فقط بالنسبة للذين هاجروا بعد عام ١٩٧٧! كما لُوحظ أن هؤلاء المهاجرين يبتعدون تدريجياً عن اللغة العبرية، فعدد الذين يستخدمون اللغة العبرية حتى بعد أربع سنوات من التواجد في الكيان الصهيوني لا يزيد عن ٦ بالمئة. ولذا توجد عشرات المجلات والجرائد باللغة الروسية، كما توجد محطات إذاعة وتليفزيون باللغة

الروسية، كما أن هناك حزبين روسيين.

ويبدو أن أعضاء التجمع الصهيوني لم يرحبوا بهؤلاء المهاجرين الجدد، وهذا أمر مفهوم فهم يحصلون على امتيازات كثيرة (رغم احتفاظهم بهويتهم الروسية ورغم أن يهوديتهم أمر مشكوك فيه)، بينما توجد قطاعات كثيرة في هذا التجمع تعاني من الفقر وليس ثمة شبهة في انتماءها اليهودي. وقد اشتكت إحدى المهاجرات الروسيات من هذا الوضع بقولها: "أنا بالذات لا تبدو ملامحي كروسية نموذجية، ولكن ما أن افتح فمي لأتكلم حتى يعرفوا أنني روسية. وعندها يحدث هذا تبدأ التعليقات والإهانات والشتائم وعبارات الازدراء". ويتعرض كثير من أبناء المهاجرين الروس للإيذاء بسبب انتمائهم العِرقي، بل إن ناتان شارانسكي عضو الحكومة الإسرائيلية قال: "أنا شخصياً اعتبر نفسي يهودياً إسرائيلياً من أصل روسي. ولكن عندما ينادون عليك بكلمة "روسي"، فإنك تجد نفسك رغم أنفك في هذا الإطار الضيق. والانتماء العِرقي الروسي هو واحد من عشرات الانتماءات الأخرى التي تبين كذب مقولة "الشعب اليهودي الواحد" وتقوِّض أسطورة "أتون الصهر" الذي سيقفز فيها كل مهاجر يهودي جديد ليخرج بعد قليل مواطناً إسرائيلياً لا علاقة له بتراثه الحضاري وتاريخه الاجتماعي وهويته العِرقية التي حملها من وطنه الأصلي.

هوية الدولة اليهودية

يطرح أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الكثير من الأسئلة بشأن هوية الدولة اليهودية، ومدى عمق أو حتى حقيقة انتمائها لليهودية، سواء بالمعنى الديني أو الإثني. فالمتدينون يتساءلون: كيف يمكن أن تصنف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية وهي من أكثر الدول إباحية في العالم ولا يقيم سكانها الشعائر الدينية اليهودية؟ ويتساءل اليهود المهتمون بإثنيتهم وموروثهم اليهودي السؤال نفسه: كيف يمكن أن نسمي الدولة الصهيونية التي تتزايد فيها معدلات الأمركة والعولمة بخطى متسارعة دولة يهودية؟ فبدلاً من أن تكون إسرائيل هي صهيون الجديدة أصبحت «ماك إسرائيل» الجديدة (نسبة إلى ماكدونالد). ويتساءل اليهود من ذوي الاتجاهات الثورية: إنها دولة تقوم بالتجسس لحساب الولايات المتحدة، وبتزويد النظم الفاشية في أمريكا اللاتينية بالأسلحة، وكانت تتعاون مع نظام الأبارتهايد (التفرقة اللونية) في جنوب أفريقيا، وحاولت قمع الانتفاضة بكل أنواع الإرهاب المتاحة ولا تزال تنكر على الفلسطينيين حق تقرير المصير وتستعمر أرضهم، فكيف يمكن أن نصف مثل هذه الدولة بكلمة «يهودية»؟

وقد طُرحت القضية نفسها داخل إسرائيل ولكن على مستوى آخر وبشكل مختلف. فمن المعروف أن الاستعمار الصهيوني قد مر

بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي المرحلة الإحلالية التي وصلت إلى ذروتها عام ١٩٤٨ مع إعلان الدولة وطرد الفلسطينيين ووصول آلاف المهاجرين للاستيطان في أرض فلسطين، ثم انتهت هذه المرحلة عام ١٩٦٧ حين قامت إسرائيل بضم الضفة الغربية والقطاع وهي مناطق مأهولة بالسكان العرب الذين لم يتمكن الاستعمار الصهيوني من طردهم، فتحول الاستعمار الاستيطاني الإحلالي (على طريقة أمريكا الشمالية حيث يُباد السكان الأصليون أو يُطردون) إلى استعمار استيطاني مبني على التفرقة اللونية (على طريقة جنوب أفريقيا حيث يتم الاحتفاظ بالأرض بمن عليها من سكان يتم تحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة). وقد أتاح النظام العالمي الجديد فرصاً جديدة للنظام الاستيطاني الصهيوني بحيث أصبح بوسعه أن يتجاوز نطاق فلسطين المحتلة ليتغلغل في البلاد العربية وليحول السوق العربية إلى سوق شرق أوسطية يلعب هو فيها دور الوسيط الأساسي بين العرب والغرب، بل وبين كل دولة عربية وأخرى، ويصبح هو القناة التي توزع من خلالها رؤوس الأموال الخارجية على المنطقة، والهدف النهائي هو أن يقوم التجمع الصهيوني بتحديد شكل المنطقة وإدارتها بما يتناسب مع مصلحته والمصالح الغربية.

وتكمن المفارقة الكبرى في أن توسع الجيب الاستيطاني يتطلب

المزيد من المستوطنين، أي المادة البشرية المطلوبة للاستيطان والقتال، حتى يمكنه الاضطلاع بوظيفته التي تشكل أساس كيانه. ولكن المصادر البشرية للهجرة اليهودية قد جفت إلى حدٍّ كبير (بسبب تناقص أعداد اليهود في العالم لانخفاض نسبة الخصوبة بينهم. وقد أفرغت الهجرة اليهودية السوفيتية الأخيرة المصدر الأخير للمادة البشرية الاستيطانية في شرق أوربا، فيهود الولايات المتحدة وغرب أوربا هم صهاينة توطينيون ويحركون دائماً من أجل المستوطن الصهيوني ولا يهاجرون إليه قط). وتشاهد الدولة الصهيونية عدداً كبيراً من النازحين، أي المستوطنين الصهاينة، ممن يهاجرون من فلسطين المحتلة إلى الولايات المتحدة أو إلى أي بلد آخر. ومما يفاقم الأزمة تزايد السكان العرب.

وكل هذا يجعل التوسع الاستيطاني والاقتصادي أمراً عسيراً. وقد ظهر في إسرائيل صراع بين ما يسمّى «الصهيونية الديموجرافية» أو«الصهيونية السكانية» و«صهيونية الأراضي». ويرى الاتجاه الأول (الديموجرافي) أن الاحتفاظ بالأراضي المأهولة بالسكان العرب ليس من الحكمة في شيء، فهم بتكاثرهم سيفوقون الصهاينة عدداً ويهددون الطابع اليهودي للدولة الصهيونية، بل ويرى هؤلاء أن تزايد عدد العرب يهدد الديمقراطية الإسرائيلية ذاتها، إذ من الصعب على دولة ديمقراطية أن تضم

أقلية كبيرة (قد تصبح أغلبية) وتنكر عليها حق الاشتراك في صنع القرار. ولهذا، يطالب دعاة هذا الاتجاه بتسليم المناطق المأهولة للعرب (كما حدث مع قطاع غزة) والاحتفاظ فقط بالنقاط الإستراتيجية لضمان الأمن الإسرائيلي، الأمر الذي سيوفر لإسرائيل الجو الملائم لتطوير اقتصادها بطريقة تسمح لها بقيادة منطقة الشرق الأوسط. أما الاتجاه الثاني (صهيونية الأراضي) فيذهب إلى أنه لا يمكن الانسحاب من أي من الأراضي التي احتلها الصهاينة (فهي أرض الميعاد المقدسة) وأنه يمكن الاحتفاظ بها بمن عليها من السكان دون التخلي بالضرورة عن الطابع اليهودي للدولة (فالقمع المستمر للعرب سيضمن هدوءهم وهدوء »المناطق« كما تسمَّى الأراضي المحتلة في الخطاب الصهيوني). ومما يجدر ملاحظته أن الاتجاه الأول يوصف بأنه »معتدل« بينما يوصف الثاني بأنه »متطرف«. وحقيقة الأمر أنه لا يوجد فارق جوهري بينهما، فكلاهما يصدر عن الإجماع الصهيوني، وهما لا يختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع. وترى الولايات المتحدة (رائدة النظام العالمي الجديد) أن مدرسة الصهيونية السكانية هي الأقرب لأهدافها، فالنظام العالمي الجديد يفضل عدم المواجهة المباشرة مع الشعوب المستغلة على حين أن صهيونية الأراضي تؤدي إلى مثل هذه المواجهة.

الدولة اليهودية أم دولة اليهود؟

ثمة خلل في طريقة تصنيف الدولة الصهيونية في كثيرٍ من الكتابات العربية، إذ تصنفها على أنها دولة يهودية، متبعةً في ذلك الكتاب الغربيين بل والصهاينة أنفسهم. ولكن هذه الكتابات لم تكلف نفسها عناء النظر في الأسباب التي دعت العالم الغربي لتصنيف الدولة الصهيونية على هذا النحو، ولا عناء اكتشاف بعض التناقضات الكامنة في التصنيف الصهيوني الغربي للدولة الصهيونية.

فقد كانت القوى الاستعمارية الغربية منذ منتصف القرن التاسع عشر تريد إنشاء جيبٍ استيطاني في فلسطين يضم بعض أعضاء الجماعات اليهودية، حتى يتسنى لها التخلص مما كان يُسمى "الفائض البشري اليهودي" Jewish surplus، وحتى تؤسس قاعدة للاستعمار الغربي تخدم المصالح الغربية. ولتغطية هذه الدوافع ادعت القوى الغربية أن هذه القاعدة المنشودة ستكون "دولة يهودية" يحقق اليهود فيها هويتهم وينفذون تعاليم شريعتهم، وتمكنت بذلك من تجنيد بعض العناصر البشرية اليهودية ونقلها إلى فلسطين، كما أمكنها توظيف هذه العناصر في خدمة الاستعمار الغربي الذي يدعمها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ويصب فيها بلايين الدولارات. وهي تبرر هذا الدعم السخي أمام

جماهيرها بأن تخبرها أن هذه دولة يهودية، وأنها جزء من التراث اليهودي المسيحي.

وتصنيف الدولة الصهيونية باعتبارها دولة يهودية يجعل من طردها للفلسطينيين واحتلال أراضيهم مسألة تحرير للوطن القومي، ويجعل من الاستمرار في قتل الفلسطينيين وتشريدهم عملية دفاع مشروع عن النفس، ويجعل من مقاومة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني عملاً "إرهابياً". فالخطأ في التصنيف هنا ليس مسألة أكاديمية، بل مسألة تحدد كثيراً من المفاهيم والمواقف. وهذا ما أكده مناحم بيجين، رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق، في خطاب أمام بعض أعضاء كيبوتس عين حرود في الستينات، إذ قال: "لو كانت هذه الأرض فلسطين وليست أرتس يسرائيل [أي لو كانت هذه الأرض هي وطن الفلسطينيين وليست أرض الميعاد التي ورد ذكرها في التوراة] فأنتم مجرد غزاة ولصوص"، لأن تصنيف الدولة الصهيونية باعتبارها دولة يهودية تستند إلى العهد القديم هو الذي يسبغ عليها الشرعية ويكفل لها تأييد الرأي العام في الغرب.

والجدير بالذكر أن مؤسس الحركة الصهيونية، ثيودور هرتزل، لم يكن يكترث بالعقيدة اليهودية وكان يتعمد خرق تعاليمها، شأنه في هذا شأن معظم الزعماء الصهاينة الأوائل. وكان عنوان الكتاب

الذي عرض فيه رؤيته لحل المسألة اليهودية هو "دولة اليهود" وليس "الدولة اليهودية"، وشتان ما بين الاثنين. فإذا كانت دولة يهودية تستند شرعيتها إلى ما جاء في العهد القديم، وجب عليها تنفيذ التعاليم اليهودية في كل مجالات الحياة، لتكون متسقة مع نفسها. أما إذا كانت دولة اليهود، فهذا يعنى أنها لا تكترث بالشرعية اليهودية ولا بالحياة الدينية اليهودية، وإنما تهتم بأعضاء الجماعات اليهودية، فتحاول إنقاذ اليهود أينما كانوا والحفاظ على هويتهم اليهودية وتراثهم اليهودي وعلى الأشكال الثقافية اليهودية المختلفة.

وقد انقسمت الحركة الصهيونية حول هذه المسألة منذ البداية، فكان هناك منْ يصر على أن الصهيونية حركة دينية وأن الدولة الصهيونية دولة يهودية، وهؤلاء هم دعاة "الصهيونية الدينية"، وفي المقابل كان هناك دعاة ما يسمى "الصهيونية الثقافية ممنْ يرون أن الصهيونية حركة علمانية لا تدافع عن الدين اليهودي وإنما تدافع عن اليهود وعن هويتهم.

ورغم التناقض الظاهري بين الاتجاهين الصهيونيين، فكلاهما يدور حول مفهوم "الشعب اليهودي" الواحد وينطلق منه، وكلاهما يضفى القداسة على هذا الشعب ويفترض وجود حقوق مطلقة له في أرض فلسطين. إلا إن أتباع الاتجاه الأول يرون أن مصدر

القداسة هو الإله، بينما يرى أتباع الاتجاه الثاني أن مصدر القداسة هو الشعب نفسه.

ولم يمنع هذا الاتفاق المنهجي من ظهور الخلافات بين الفريقين في مجال الممارسة في الدولة الصهيونية. فدعاة الصهيونية الدينية يرون أنه إذا لم تكن الدولة الصهيونية يهودية حقاً ومحكومة بالشريعة اليهودية وبأوامرها ونواهيها، سواء في المسائل العامة أو الشخصية، فإنها تفقد شرعيتها ولا يحق لها المطالبة بأرض فلسطين. ولكن الأوامر والنواهي الدينية اليهودية كثيرة ومعقدة إلى درجة يصعب تصورها، ويضيق بها المواطنون الإسرائيليون العاديون والمهاجرون الجدد، ويتزايد ضيقهم مع تصاعد معدلات العلمنة في إسرائيل.

وقد ظهر الصراع بين التيارين لدى إعلان الدولة الصهيونية، حيث أصر المتدينون على أن ترد عبارة أن الدولة تؤسس "تحت رعاية الإله" وهذا ما رفضه العلمانيون بطبيعة الحال. وحُلت المشكلة مؤقتاً باستخدام العبارة العبرية "تسور يسرائيل" أي "صخرة إسرائيل" وهى عبارة مبهمة، فهي أحد أسماء الإله في العقيدة اليهودية، ولكن يمكن للصهيوني العلماني أن يفسرها على أنها تعنى "الأساس القوى" الراسخ أو "الهوية القومية" الثابتة.

ولكن هذا التوافق المؤقت لم يحل المشكلة بل أجّلها لبعض

الوقت ليس إلا، كما بينت تطورات الأحداث فيما بعد. فهناك المهاجرون الجدد والعمال الأجانب الذين لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية، ولكنهم لا يمانعون في الاندماج في المجتمع الصهيوني كيهود إثنيين، شأنهم في هذا شأن الإسرائيليين العلمانيين. وهناك المطالبة بإقرار شرعية الشذوذ الجنسي والزواج بين شخصين من نفس الجنس وهو ما يرفضه المتدينون. بل وأصبح الدفن يثير مشكلةً، فالمؤسسة الدينية ترفض دفن غير اليهود في مدافن اليهود، وهنا تُثار قضية "من هو اليهودي؟"

وقد تنبه الكاتب المسرحي (الأمريكي اليهودي الشهير) آرثر ميللر لهذا التناقض الذي وقع هو نفسه فيه. ففي مقال له في مجلة "التايمز" اللندنية (٣ يوليو/تموز ٢٠٠٣) يقول إنه عند إعلان الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨، تصور أن ذلك الحدث السياسي يشبه أحداث العهد القديم، واهتزت مشاعره بعنف، ولكنه تنبه بعد ذلك إلى أن أبطال هذا الحدث بشر عاديون، تجد من بينهم "سائقي الحافلات ورجال الشرطة والكناسين والقضاة والمجرمين والعاهرات ونجمات السينما والنجارين ووزراء الخارجية". واعترف بأنه نسي في غمرة فرحه أنه إذا أصبحت الدولة اليهودية مثل كل الدول فإنها ستتصرف كأي دولة تدافع عن بقائها بكل الوسائل المتاحة، شرعية كانت أم غير شرعية، بل وستحاول أن تتوسع على

حساب الآخرين.

وبعبارةٍ أخرى، فإن ميللر يعترف بأنه أخطأ في تصنيف الدولة الصهيونية ولم يستطع التمييز بين الدولة اليهودية ودولة اليهود. فالدولة اليهودية، كما تصورها، لا تنتمي *إلى التاريخ* لأنها خرجت من صفحات الكتب المقدسة، أما دولة اليهود فتخضع للقوانين التاريخية التي تنطبق على الظواهر المماثلة. وحينما استرد ميللر وعيه، صنف الدولة الصهيونية التصنيف الصحيح، فرأى عنفها وبطشها، وسجل احتجاجه عليها.

الصهيونية: حركة قومية أم حركة عقارية؟

يحاول الصهاينة الدفاع عن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بشتى السبل وباستخدام كل أنواع الاعتذاريات. ومن أطرف هذه الاعتذاريات (وأكثرها وقاحة) القول بأن الصهاينة قد "اشتروا" الأرض الفلسطينية من أصحابها ودفعوا ثمنها من حر مالهم وكأن الأوطان عقار. وقد لجأ نتنياهو لنفس الحجة في الدفاع عن "حق" الصهاينة في مستوطنة أبو غنيم. وهذه الحجة البلهاء الوقحة لها تاريخ طويل ولفهمها لابد من العودة إلى بعض المفاهيم الأولية.

وبداية يمكن القول إن ارتباط الإنسان بوطنه ارتباط قد يُفسر في بعض جوانبه على أسس مادية اقتصادية، ولكنه لا يرد برمته

إلى الدوافع الاقتصادية وحسب، فهو ارتباط لا يمكن تفسيره إلا على أسس أكثر تركيباً (الذاكرة التاريخية المشتركة _ الإحساس بالأمن وسط مجموعة بشرية ينتمي إليها الإنسان _ مجموعة القيم المشتركة _ رؤية المستقبل... إلخ). فالإنسان الاقتصادي المحض، الذي يبيع ويشتري كل شيء، هو كائن مستحيل، فمهما بلغت مادية الإنسان يظل هناك جزء ما يتجاوز عالم الاقتصاد والمادة.

ولكن هناك جماعات من البشر وجدوا أنفسهم في موقع يضطرهم للقيام بوظيفة محددة (التجارة _ الربا _ جمع الضرائب... إلخ) يطلق عليها علم الاجتماع الغربي "الجماعات التجارية الهامشية". وقد قمت بتطوير المفهوم ليصبح "الجماعات الوظيفية"، ثم طبقته على أعضاء الجماعات اليهودية الذين اضطلعوا بدور التجار والمرابين داخل التشكيل الحضاري الغربي. فأعضاء هذه الجماعات يقتربون إلى حدٍّ كبير من هذا الإنسان الاقتصادي المحض، وعلاقتهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه هي علاقة تعاقدية نفعية باردة، فهم ينزعون القداسة عن كل الأشياء، وكل شيء يصبح مباحاً لهم، وتصبح أرض الوطن بالنسبة لهم عقارات تباع وتُشترى، فهم حبيسو تجربتهم التي حولتهم إلى أدوات اقتصادية، ولذا فهم يدركون البشرية من خلال تجربتهم ويسقطون دوافعهم على الآخرين.

ونحن نرد على هذا بقولنا أن هذا ليس جزءاً من طبيعة اليهود على وجه العموم، بل إنه جزء من الموروث الاقتصادي ليهود العالم الغربي. والصهيونية هي حركة سياسية نبتت من هذا الموروث. ولذا، فإننا نجد أن الفكر الصهيوني يدور في نطاق رؤية تعاقدية وظيفية نفعية ضيقة سواء في رؤيته لليهود أو في رؤيته للآخر، إذ أن الصهاينة يرون أن العالم بأسره إن هو إلا سوق تُباع فيها الأشياء وتُشترى، وضمن ذلك ما يسمى "الوطن القومي"، ويبدو أنه، في المراحل الأولى للحركة الصهيونية، ساد تصور بين المفكرين الصهاينة مفاده أن الحصول على هذا الوطن يمكن أن يتم من خلال عملية تجارية رشيدة عبر المقايضة والمساومة والسعر المغري. وكان هرتزل يتصور أن الحركة الصهيونية، ممثلة الشعب اليهودي، ستقوم بشراء العريش أو أوغندا أو فلسطين من أصحابها. فالأرض هنا ليست وطناً وإنما هي عقار، وعلاقة الإنسان بها ليست علاقة انتماء وكيان وإنما هي علاقة نفعية تعاقدية تشبه علاقة الجماعة الوظيفية بالمجتمع المضيف. وحينما نشر هرتزل كتابه دولة اليهود، اتهمه بعض اليهود بأنه تقاضى مبلغاً ضخماً من شركة أراضٍ بريطانية كانت تود القيام بأعمال تجارية في فلسطين فتم تفسير الحلم القومي على أنه مشروع تجاري. وعلق هو على هذا الاتهام بقوله: "إن اليهود لا يصدقون

أن أي شخص يمكن أن يتصرف مدفوعاً باقتناع أخلاقي". وكان هرتزل يتصور، في واقع الأمر أن العالم حانوت أو سوق كبيرة، فحينما ذهب لمقابلة جوزيف تشامبرلين (وزير المستعمرات البريطاني) ليطلب منه قطعة أرض ليقيم عليها وطناً، كان يتخيل أن الإمبراطورية الإنجليزية مثل دكان كبير للعاديات لا يعرف مالكه عدد السلع فيه على وجه الدقة، وتخيل هرتزل نفسه زبوناً يطلب سلعة اسمها "مكان لتجمع الشعب اليهودي" ويحاول مع صاحب الدكان أن يبحث له عن مثل هذا المكان/السلعة في بضاعته.

لكن هرتزل كان ينوي المتاجرة في عدة بلاد حتى يكسب إحداها في نهاية الأمر ومجاناً (فالطفيلية هي إحدى سمات الجماعة الوظيفية في آخر مراحل تطورها). وعلى سبيل المثال، حاول هرتزل أن يحصل على امتياز شركة أراضٍ في موزمبيق من الحكومة البرتغالية دون أن يدفع فلساً واحداً، وذلك بأن يعد بسداد الديون ويدفع ضريبة فيما بعد. ثم يوضح هرتزل للقارئ نواياه قائلا "على أني أريد موزمبيق هذه للمتاجرة عليها فقط وآخذ بدلاً منها جزيرة سيناء مع مياه النيل صيفاً وشتاءً، وربما قبرص أيضاً دون ثمن". فالمسألة كلها تبادل وتعاقد وعلاقات موضوعية رشيدة.

ويؤمن هرتزل بأن الدولة اليهودية ذاتها سلعة مربحة ناجحة، فهو يوضح أن الجمعية اليهودية ستعمل مع السلطات الموجودة في الأرض، وتحت إشراف القوى الأوربية: "وإذا وافقوا على الخطة فإن هذه السلطات ستستفيد بالمقابل، وسندفع قسطاً من دينها العام ونتبنى إقامة مشاريع نحن أيضاً في حاجة إليها، كما سنقوم بأشياء أخرى كثيرة. وستكون فكرة خلق دولة يهودية مفيدة للأراضي المجاورة لأن استثمار قطعة أرض ضيقة يرفع من قيمة المناطق التي تجاورها".

والرؤية الصهيونية التعاقدية (التي تضع لكل شيء سعراً مهما سمت مرتبته) تفترض أن فلسطين (هي الأخرى) سلعة، بل سلعة غير رائجة لا يود أحد شراءها سوى المعتوهين من اليهود. ويقدر هرتزل الثمن لفلسطين الحقيقي، بمليونين من الجنيهات فقط (حيث أن العائد السنوي منها عام ١٨٩٦ كان _حسب تصوره وحساباته الحقيقية أو الوهمية_ حوالي ٨٠ ألف جنيه). ولعله أخذ في الاعتبار سعر الفائدة والتحويل. وقد وافق كثير من الصهاينة على هذا الثمن الواقعي أو التجاري، إلا أن السمسار السياسي يعرف أن الثمن التجاري يختلف عما يجب أن يُدفع عندما يحين وقت البيع والشراء، وهو لهذا يجب أن يرفع السعر إلى عشرين مليون جنيه تركي دفعة واحدة، يدفع منها مليونين لتركيا والباقي لدائنيها.

بل ويبدو أن هرتزل كان يحاول الحصول على فلسطين بالمجان مثل أي سمسار غشاش من أعضاء الجماعات الوظيفية المالية الذين تفوقوا في الغش التجاري. فقد ذهب إلى السلطان عبد الحميد خاوي الوفاض، ودوَّن في مذكراته أنه لو عُرضت عليه فلسطين الغالية نظير سعر مخفض لشعر بالحرج لأنه لا يحمل معه كل المبلغ. إن كل ما يريده من السلطان هو وعد ببيع فلسطين له، وهذا الوعد سيكون له بمثابة السلة التي يستخدمها المتسولون لجمع التبرعات. وإن لم ينجح التسول، فإن هرتزل لن تعجزه الحيلة، فهو يقرر أن يقبل الصفقة على أن يطلب بعض الامتيازات من تركيا (مثل احتكار الكهرباء) حتى يتسنى له الدفع بيسر.

ولا يقتصر هذا التصور التجاري التعاقدي للوطن القومي اليهودي بأي حال على هرتزل وحده. فها هو موسى هس يؤكد أنه لا توجد أية قوة أوربية تفكر في منع اليهود من شراء أرض أجدادهم ثانيةً. وهو يتصور أن تركيا سترد لهم وطنهم نظير حفنة من الذهب. كما أن تصور ليلينبلوم فكرة شراء الوطن ليس مغايراً لفكرة هس: "على رجالنا الأغنياء أن يبدأوا بشراء العقارات في تلك الأرض، ولو ببعض مما يملكون من ثروة. وما دام هؤلاء لا يرغبون في ترك أراضيهم التي يسكنونها الآن، فليشتر كل منهم قطعة أرض في أرض إسرائيل ببعض من مالهم حيث تُعطى هذه الأرض لمن يستغلها على أساس اتفاقية بشأن العائد (أو الربح)

مع الشاري". ويرى بنسكر من ناحيته أن حل المسألة اليهودية يتلخص في تأسيس شركة مساهمة لشراء قطعة أرض تتسع لعدة ملايين من اليهود يسكنون فيها مع مرور الزمن. والواقع أن هذا التصور التجاري لكل أراضي آسيا وأفريقيا لم يكن أمراً غريباً على العقل الغربي الاستعماري في القرن التاسع عشر الذي كان يرى العالم بأسره حيزاً للاستغلال وأرضاً توظف بطريقة مربحة (من خلال شركات ذات براءة في معظم الأحيان).

ولا يزال التصور الوظيفي التجاري التعاقدي قائماً حتى الآن. فحينما يتحدث وايزمان عن فائدة الدولة الصهيونية للإمبريالية ويقدم حساب التكاليف، وحينما تقدم الحركة الصهيونية الحوافز المادية والرشاوي ليهود المنفى ليهاجروا إلى أرض فلسطين، فإن العقلية التجارية تؤكد أنها لا تزال موجودة. بل وقد حاول الصهاينة في بادئ الأمر الاستيلاء على حائط المبكى عن طريق الشراء، ومن تلك المحاولات محاولة الحاخام عبد الله (حاخام الهند) شراء الحائط عام ١٨٥٠. ففي عام ١٨٨٧، حاول البارون روتشيلد شراء الحي المجاور للحائط لإخلائه من السكان، واقترح أن تشتري إدارة الوقف أرضاً أخرى بالأموال التي ستحصل عليها وتوطن السكان فيها، وهو حل يحمل كل ملامح الحلول الصهيوني (الترانسفير)، لكن طلبه قد رفض. وقبل الحرب العالمية الأولى، قام البنك الأنجلو فلسطيني بمحاولات "جادة" لشراء

الحائط، كما قام الصهاينة بمحاولات للاستيلاء عليه، أو التسلل إلى منطقة هضبة الحرم عن طريق تقديم رشاوى، أولاً للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين حيث عرضوا عليه نصف مليون جنيه استرليني، ثم عرض على الشيخ سعيد العلمي مبلغ مليون دولار. وغني عن البيان أن هذه المحاولات لم تكلل لا بكثير ولا بقليل من النجاح.

وقد أدرك بعض المستوطنين خطورة المنطق العقاري الصهيوني. فقد حذر إسحق إبشتاين الصهاينة من سطحيتهم وعجزهم عن الغوص في بواطن الأمور. وحاول أن يبين لهم أن الحق القانوني (أي العقاري) قد يكون في جانبهم، ولكن الموقف يصبح أكثر تركيباً إن تمت رؤيته في إطار سياسي قومي. وقد استخدم إبشتاين كلمة denationalization أي "نزع الصبغة القومية" ليصف عملية الشراء هذه، أي أنه بيَّن لهم أن الأرض ليست عقاراً وأن السيادة القومية ليست أمراً مطروحاً للبيع.

ومع هذا، استمر الصهاينة في استخدام المنطق العقاري، فكيف نفسر هذا؟ كيف نفسر أن شخصاً في ذكاء نتنياهو ودهائه، خريج MIT (معهد ماساشوستس للتكنولوجيا)، يمكن أن يتبنى مثل هذا المنطق الأبله؟ لابد أن صلف القوة قد أعماه تماماً عن إدراك الحقائق وجعله يتخفى وراء منطق متهافت مثل "شراء

فلسطين". ولكن هناك أسباباً أكثر عمقاً، فالصهاينة (الذين يدورون في إطار الميراث الاقتصادي للجماعة الوظيفية) كانوا في كثير من الأحيان يمنون أنفسهم بأن يكون العربي الفلسطيني حيواناً اقتصادياً يمكن تخديره عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التي سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق حثه على الرحيل إلى البلاد العربية (بعد إعطائه التعويض الاقتصادي المناسب عن وطنه). وكما قال الفيلسوف البرجماتي الصهيوني هوراس كالن: "لو حصل اللاجئون على جوازات سفر وغير ذلك من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كافٍ من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سبل العيش المعقولة، وقيل لهم إن هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً، لو حدث هذا لبدأوا عندئذٍ في الاعتماد على النفس وتركوا فلسطين. ومن الصعب مهما بلغ الإنسان من عنصرية، أن يتخيل العربي كتاجر، فمن الممكن تصوره ممسكاً سيفاً تقطر منه الدماء أو إرهابياً ماكراً يقتل الأطفال، أما تصوره كتاجر فأمر مستبعد".

فما هو مصدر هذه الصورة النمطية المستحيلة؟ أعتقد أن ما يحدث هنا هو عملية إسقاط كاملة. فأدبيات معاداة السامية تتهم اليهود بأنهم تجار ومرابون، وقد تبنى الصهاينة هذه الرؤية

(فالصهيونية على عكس ما هو شائع معادية تماماً لليهود واليهودية). وكما أسلفنا، فقد وصف هرتزل اليهود بأنهم غير قادرين على تصور سلوك إنساني لا يكون دافعه الأساسي هو المال.. وتتهم الصهيونية العالمية يهود المنفى بأنهم عناصر تجارية هامشية طفيلية لا تجيد سوى فن السمسرة والبيع والشراء -وهي عناصر لا يمكن إصلاحها وشفاؤها من أنانيتها إلا من خلال المزارع الجماعية.

لكن ما حدث أن العرب تحولوا في العقل الصهيوني والإسرائيلي إلى يهود المنفى الطفيليين الذين لا جذور لهم والذين يعانون من ازدواج الولاء ويبيعون كل شيء وأي شيء طالما أنهم يحققون ربحاً معقولاً، ولذا، فإن المتوقع من هؤلاء العرب أن يبيعوا أوطانهم. ومن هنا يرى العقل الصهيوني أن المقاومة الفلسطينية والرفض الفلسطيني للاستيطان الصهيوني مسألة لاعقلانية. وحينما يقاوم هؤلاء العرب الاستيطان الصهيونى وينتفضون ضده ويمكثون فى الأرض حتى بعد هدم بيوتهم وحتى بعد أن ترسل البلدوزرات، تبدو المسألة غير عقلانية، فالمفروض أن العربي تاجر والتاجر لا يقاوم وإنما يساوم وحسب: ومن هنا أخرج نتنياهو العقلاني أوراقه العقارية البلهاء ليثبت للعالم أن حدود رؤيته لا تختلف كثيراً عن حدود رؤية صغار البقالين، وأن الصهيونية ليست حركة قومية وإنما حركة عقارية!

الفصل الثانى
خرافة التجانس اليهودى

خرافة "الشعب اليهودي الواحد"

يضم التجمع الصهيوني جماعات يهودية وغير يهودية تجعل من أسطورة "أتون الصهر" أكذوبةً كبرى. وكان علم الاجتماع الإسرائيلي يذهب إلى أن التجمع الصهيوني يضم مجموعتين أساسيتين هما الأشكناز والسفارد ومجموعات صغيرة أخرى. وهذا في حد ذاته تزييف؛ فالمجموعة الأشكنازية ليست كياناً متجانساً، إذ تضم داخلها يهوداً من شرق أوروبا ويهوداً من وسط أوروبا ويهوداً من غربها، بالإضافة إلى يهود من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وأمريكا اللاتينية. وتضم كل من تلك الجماعات أقليات مختلفة، فجماعة يهود غرب أوروبا تضم يهوداً من فرنسا، وهؤلاء مختلفون عن يهود هولندا ويهود إيطاليا ويهود إنجلترا.

واصطلاح "سفارد" هو الآخر اصطلاح عريض، فهو اصطلاح ديني وإثني في ذات الوقت، ويشير إلى اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة (ومن بينهم يهود هولنديون وإيطاليون وإنجلترا) ولكنه يشير أيضاً إلى اليهود الذين جاءوا من شبه جزيرة أيبريا. وهناك كثير من الدراسات التي تبين عمق التفرقة العنصرية ضد اليهود السفارد في الدولة الصهيونية التي أسسها الأشكناز وتهيمن عليها المؤسسة الإشكنازية. وتزداد الصورة اختلاطاً حينما نتعامل مع "المجموعات الصغيرة" الأخرى،

ومنها مثلاً:

يهود الهند

وهي جماعات يهودية متباينة، من أهمها "يهود كوشين" و"بني إسرائيل" و"اليهود البغدادية"، وهاجر عدد من هؤلاء إلى إسرائيل، وتم توطينهم في مدن التنمية خصوصاً تلك الموجودة في النقب والمنطقة الجنوبية مثل بئر سبع وعسقلان وعراد إضافة إلى بيسان في غور الأردن. ويعيش قسم آخر في المدن الكبرى الثلاث: القدس وتل أبيب وحيفا. ويعيش عدد قليل للغاية في بعض الكيبوتسات (وهي مؤسسات أشكنازية بالدرجة الأولى). ويعاني يهود الهند (خاصة "بني إسرائيل") من التفرقة العنصرية؛ فالمؤسسة الحاخامية لم تعترف بهم يهوداً، لأنهم فقدوا صلتهم باليهودية الحاخامية ودخلت على عباداتهم كثير من الشعائر الهندوكية.

يهود جورجيا

وهم اليهود الذين كانوا يقطنون في دولة جورجيا. وهؤلاء ابتعدوا عن تقاليد اليهودية الحاخامية لأنهم، على سبيل المثال، لا يحافظون على قوانين الطعام الشرعية ولا يعرفون كثيراً من الشعائر اليهودية. وقد هاجر عدد كبير منهم إلى إسرائيل، خاصةً في أوائل السبعينيات. وهم يعانون أيضاً من التفرقة العنصرية، وقد أصبحوا من أهم أعمدة الجريمة المنظمة في الدولة الصهيونية

وتخصصوا في تزييف النقود.

اليهود القراءون

وهم أتباع فرقة دينية يهودية تأسست في العراق في القرن الثامن الميلادي وانتشرت أفكارها بين كل الجماعات اليهودية في العالم. ويُلاحظ أثر التفكير الديني الإسلامي على فكر القرائين. ويتضح هذا في أن القرائين جعلوا التوراة (النص المقدس المكتوب) المرجع الأول والأخير في الأمور الدينية كافةً، ولذلك هاجموا التلمود، وفنَّدوا التراث الحاخامي باعتباره اجتهاداً من وضع البشر وليس نصاً إلهيا ملزماً. وهناك اختلافات أساسية بين اليهودية القرائية واليهودية الحاخامية، ولعل من أهمها أن القرائين يؤمنون بأن تشتت اليهود في العالم هو شيء إيجابي لأنه يطهرهم من ذنوبهم، وبالتالي فهم لا يؤمنون بضرورة العود إلى أرض الميعاد، أي أنه لا يوجد تيار صهيوني داخل اليهودية القرائية، وعندما أُعلنت الدولة الصهيونية كان القراءون معادين لها. ومع هذا، كان من شأن السياسات التي انتهجتها بعض الحكومات العربية، والنابعة من عدم إدراك الاختلافات بين اليهودية الحاخامية واليهودية القرائية، أن اضطرت القرائين إلى الهجرة إلى إسرائيل، ويبلغ عددهم نحو عشرين ألفاً. ويترأس الجماعة القرائية حاخام أكبر متنقل ولا يزال انتماؤهم الديني القرائي قوياً،

ومن ثم تستمر خلافاتهم مع اليهود الحاخاميين، وهو الأمر الذي ينعكس على العلاقات بينهم داخل المستوطنات المشتركة.

الفلاشاه

وهم "يهود" إثيوبيا الذين يُصنفون ضمن اليهود تجاوزاً، فبعض علماء الأنثروبولوجيا الغربيين يصنفونهم "مسيحيين دخلت عليهم عناصر يهودية". وبالفعل نجد أن الكتاب المقدس لديهم هو أسفار موسى الخمسة وبعض أجزاء من العهد الجديد، وهم قد يتحدثون الأمهرية ولكنهم يتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة الأثيوبية المقدسة، ورجال الدين عندهم ليسوا حاخامات وإنما قساوسة كما أن عندهم رهباناً وراهبات، وأعيادهم الدينية مختلفة عن أعياد اليهود الحاخاميين، وهم لا يعرفون التلمود ويجهلون كثيراً من الشعائر اليهودية، ويُسمون معبدهم اليهودي "مسجداً" ويخلعون النعال حين يدخلون للصلاة.

وقد تسبب وصول الفلاشاه إلى إسرائيل في تقويض مقولة الشعب اليهودي الواحد إلى حدٍ كبير. ولنتخيل يهودياً أمريكياً أشقر من أتباع المذهب الإصلاحي يقف بجوار يهودي من من الفلاشاه، أسود البشرة يرقص في مسجده اليهودي في أعياده الأفريقية، فهل سيقتنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد، خاصةً وأن التجمع الصهيوني الذي يرحب بهجرة اليهود الأشكناز

لم يرحب كثيراً بيهود الفلاشاه؟ وقد رفضت الحاخامية أن تعترف بهم يهوداً وطلبت أن يُعاد تختينهم وأن يأخذوا حماماً طقوسياً لتطهيرهم. ولكن الرفض على أساس عنصري وعرقي كان أعمق وأشد حدة؛ فقد رفضت مدينة إيلات تزويدهم بالماء والكهرباء، ورفضت مدن أخرى مجرد توطينهم. وقد كُشف النقاب مؤخراً عن أن بنك الدم الإسرائيلي أخذ يتخلص من مخزون الدم الذي تبرع به يهود الفلاشاه، خوفاً من أن يكون ملوثاً بفيروس مرض الإيدز.

العبرانيون السود

وهم فريق من الأمريكيين السود يؤمنون باليهودية ويلتزمون بتطبيق الشريعة اليهودية بتشدد يفوق تشدد اليهود البيض وإن كانت لهم رؤية مختلفة تماماً عن الرؤية الصهيونية. إذ يؤكد العبرانيون السود أنهم هم وحدهم سلالة اليهود القدامى، وأن أنبياء اليهود كانوا من السود وأن إسرائيل القديمة كانت دولة سوداء أيضاً، وأن قناة السويس ما هي إلا ثغرة صنعها الإنسان الأبيض لفصل إسرائيل عن إفريقيا السوداء. وقد دخل العبرانيون السود إلى إسرائيل بتأشيرات سياحية ثم استقروا في إسرائيل، ولكن المؤسسة الصهيونية رفضت إصدار أية بطاقات رسمية لهم. وهم يُعاملون معاملة أسوأ من معاملة الفلاشاه، فوسائل الإعلام الإسرائيلية تشكك في يهوديتهم وترفض كثير من المدن الإسرائيلية

توطينهم فيها. وقد تم توطينهم في ديمونة في أكشاك مؤقتة. وتتسم أسر العبرانيين السود بالخصوبة العالية فعدد أطفال الأسرة يصل إلى ١٠ أطفال في المتوسط، بل وهناك أسر وصل عدد أطفالها ٢٠ (الجيروساليم بوست الدولية ٢٨ يونيو/حزيران ٢٠٠٢)، ولذا تعد المنطقة التي يعيش فيها العبرانيون السود من أكثر المناطق ازدحاماً في إسرائيل.

العمال الوافدون

من المشاكل الجديدة التي يواجهها الجيب الصهيوني مشكلة العمال الوافدين، وهي مشكلة آخذة في التفاقم. فقبل اندلاع انتفاضة الأقصى كان العمال الفلسطينيون يذهبون إلى فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٤٨ فيؤدون عملهم ثم يعودوا إلى منازلهم في الضفة أو القطاع. ولكن مع اندلاع الانتفاضة أصبحت هذه الهجرة اليومية مصدر تهديد أمني، فأوقفتها السلطات الإسرائيلية. وبدأ الكيان الصهيوني يفتح أبوابه للعمال من الفلبين وتركيا، وإن كان يعتمد أساساً على العمال من شرق أوروبا. وقد بلغ عددهم حوالي ٣٠٠ ألف، وهي كتلة بشرية كبيرة مقيمة بشكل دائم داخل التجمع الصهيوني، ولذا فهي تهدد أمنه الاجتماعي، إذ بدأ أعضاء هذه الكتلة وغالبيتهم الساحقة من الذكور، في الزواج من الإسرائيليات. والأدهى من ذلك أن كثيرين منهم أعلنوا

استعدادهم للتهود والحصول على الجنسية الإسرائيلية (بكل ما يحمله ذلك من مزايا اقتصادية). وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن المهاجرين السوفيت من غير اليهود وأشباه اليهود الذين يعلنون أنهم يهود من أجل الحصول على مستوى معيشي أفضل.

فما الذي يجمع إذن بين يهود الهند ويهود جورجيا ويهود القرائين ويهود الفلاشاه والعبرانيين السود والسفارد بكل انتماءاتهم الدينية والعرقية المختلفة؟ وهل يمكن، والحال كذلك، الحديث عن "أتون الصهر" أو عن "الشعب اليهودي الواحد"؟

هل الفلاشاه يهود؟

من أكثر الشواهد على عدم تجانس ما يسمَّى بالشخصية اليهودية يهود الفلاشاه. ويتركز الفلاشاه أساساً في شمال إثيوبيا في المنطقة الواقعة بين نهر نازي في الشمال والشرق، وبحيرة تانا والنيل الأزرق في الجنوب، والحدود السودانية في الغرب. وهم يعيشون في قرى صغيرة مقصورة عليهم تضم كل قرية نحو خمسين أو ستين عائلة وتوجد أهم القرى بجوار مدينة جوندار. كما يوجد داخل جوندار نفسها جماعة صغيرة من الفلاشاه تعيش في حي مقصور عليها. وتوجد قرى الفلاشاه عادة على قمة أحد التلال القريبة من النهر. وتتكون كل قرية من مجموعة من الأكواخ المستديرة يغطيها القش، ويخصص أحد الأكواخ معبداً لهم، كما

يخصص كوخان أخران بعيدان عن القرية لعزل النساء وقت الطمث وبعد الإنجاب.

ولا تختلف ملامح الفلاشاه كثيراً عن ملامح غيرهم من الإثيوبيين، كما لا يمكن الحديث عن نمط فلاشي متميز إذا اختلطت فيهم الدماء الحامية والسامية. ولذا، لا توجد اختلافات في لون الجلد وملامح الوجه. ولا يختلف أسلوب حياتهم، من معظم الوجوه، عن أسلوب حياة جيرانهم، كما أنهم يرتدون نمط الثياب نفسه ويأتزرون بالعباءة المسماة "الشامة". وهم يعملون أساساً بالزراعة كعمال أجراء، كما يعملون في بعض الحرف الأخرى مثل صناعة الفخار والغزل والنسيج وصنع السلال، كما يعملون حدادين وصاغة وحائكي ملابس، ويعمل كثير منهم الآن بحرفة البناء في المدن.

ويتحدث معظم الفلاشاه الأمهرية. وثمة أقلية منهم تعيش في تيجري وفي إريتريا وتتحدث اللغة التيجرينية. وهناك أقلية أخرى في الجزء الشمالي تتحدث لهجات قبائل الأجاو. أما أدبهم، فكله مكتوب باللغة الجعزية أو الإثيوبية (لغة إثيوبيا الكلاسيكية) وهي أيضاً لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية. والفلاشاه يجهلون العبرية تماماً، فمعرفتهم بها مقصورة على بضع كلمات لا يدركون هم أنفسهم أنها من هذه اللغة.

والتراث الشعبي للفلاشاه، كما هو الحال في أفريقيا، ثري للغاية، فلهم أغان ورقصات عديدة. كما إن لهم تاريخهم الأسطوري. ويمارس الفلاشاه طقس الزار لطرد الأرواح. ويقال إن هذ الطقس بدأ في إثيوبيا وانتشر منها إلى بعض بلاد الشرق الأوسط. كما أنهم يقومون بصنع الأحجبة والتعاويذ اتقاء للعيون الشريرة. وبسبب اشتغالهم حدادين، يعتبرهم أهل القرى من السحرة.

ويلقي تعريف الفلاشاه في الموسوعة اليهودية كثيراً من ظلال الشك على انتمائهم الديني، إذ جاء فيه ما يلي: "الفلاشاه جماعة إثنية في إثيوبيا تزعم أنها من أصل يهودي، ومرتبطة بنوع من أنواع الديانة اليهودية يستند إلى العهد القديم والكتب الخارجية (أبوكريفا)، أي الكتب غير المعتمدة، والكتب الدينية الأخرى التي ظهرت بعد الانتهاء من تدوين العهد القديم".

والواضح أن هذا التعريف يرى أنهم من أصول إثنية ليست يهودية بالضرورة، وأنهم ليسوا يهوداً وإن كانوا "يزعمون" أنهم من أصل يهودي. كما أن ما يعرفونه عن اليهودية يختلف عن اليهودية التي يتبعها معظم يهود العالم والسائدة في الدولة الصهيونية. ففي أي شيء تختلف يهودية الفلاشاه عن اليهودية الحاخامية؟

وتستند عبادة الفلاشاه إلى العهد القديم الذي لا يعرفونه إلا باللغة الجعزية، وهي لغة الكنيسة الإثيوبية. ويضم العهد القديم الذي يعرفونه كل الكتب المعتمدة وبعض كتب الأبوكريفا غير المعتمدة مثل: كتاب يهوديت، وحكمة سليمان، وحكمة بن صيرا، وكتاب المكابيين الأول والثاني، وكتاب باروخ. ولم يصل التلمود إلى الفلاشاه. وغني عن الذكر أن التلمود هو العمود الفقرى لليهودية الحاخامية وعصبها، وينطوى عدم الاعتراف به على عدم اعتراف بها.

وهناك كثير من العناصر اللاهوتية والحضارية المشتركة بين المسيحيين واليهود في إثيوبيا. فبعض الكتب الدينية متداولة بين الفريقين معاً، واللغة الجعزية هي لغة العبادة بين اليهود والمسيحيين هناك، كما أن أسطورة الأصل مشتركة مع تنويعات خفيفة. ويمكن أن نضيف هنا أن الفلاشاه ليس لديهم حاخامات وإنما قساوسة يطلق على واحدهم لفظة "قس". كما أنهم ينتسبون، مثل الكهنة القدامى في يهودية ما قبل التهجير، إلى هارون. وينتخب الكهنة في كل منطقة كاهناً أعظم لهم لكي يصبح زعيماً دينياً للجماعة، ويصبح من صلاحياته ترسيم الكهنة.

ويقدم الكهنة القرابين في المناسبات الدينية المختلفة. ويعيش بعض هؤلاء الكهنة في الأديرة رهباناً وراهبات على النمط

المسيحي، ويطلق عليهم لقب "ناذير" وهي لفظة عبرية تعنى "الذي نذر نفسه للشعائر الدينية وانقطع لها". كما أن البعض الآخر يعيش على طريقة النساك في الغابات والصحارى وعلي حواف القرى. ومن الطريف أن طقس "الاعتراف" في المسيحية موجود عند الفلاشاه، فهم يدلون باعترافاتهم إلى الكاهن من آونة إلى أخرى وعند نهاية اليوم. وإلى جانب الرهبان والكهنة، يوجد علماء يستخدمون صحن المعبد لتعليم الدين.

ويقيم الفلاشاه شعائر يوم السبت بصرامة غير عادية، فيمتنعون عن الجماع الجنسي في ذلك اليوم، ويقضى الرجال يومهم في الصلاة. لكن التحريمات الخاصة به مختلفة من بعض الوجوه عن تحريمات اليهود الأرثوذكس. فهم مثلاً لا يعتبرون استخدام النور الكهربائي من المحرمات. كما أنهم يحتفلون بعدد من الأعياد أكبر من المنصوص عليه في الشريعة اليهودية، وهم يحافظون على شعائر الزواج والختان اليهودية، ولكنهم يختنون البنات على عادة بعض الشعوب الأفريقية. وهم يحافظون كذلك على التحريمات الخاصة بالطعام، ولكنهم لا يستعملون أواني منفصلة للمأكولات من الحليب واللحم على غرار الجماعات اليهودية الأخرى.

ومن ناحيتهم، فإن المسيحيين الإثيوبيين (هم الآخرون) يختنون

أولادهم الذكور، ويمتنعون عن تناول المأكولات المحرمة عند اليهود. كما أنهم، ولفترة طويلة، كانوا يتخذون السبت يوم راحة لهم بدلاً من الأحد. ومن الجوانب اليهودية الأخرى في المسيحية الإثيوبية، التشديد على أهمية العهد القديم في الكتاب المقدس. وكذلك يلاحظ وجود الرموز المتعلقة بسفينة العهد في الكثير من الكنائس المسيحية الإثيوبية.

كما اشتهر الفلاشاه بمغالاتهم في التطهر، ولذا فهم يمتنعون قدر الإمكان عن لمس الغرباء. وإذا حدث أن لمس أحدهم غريباً، فإن عليه أن يتطهر (ولذلك توجد قراهم على مقربة من الأنهار حتى يمكنهم التطهر دائماً). ومن هنا، فإن الفلاشاه الذين يعيشون في جوندار، ويفرض عليهم أسلوب حياتهم الاحتكاك الدائم بالأجانب والغرباء، يعدون "غير طاهرين" في نظر بقية الفلاشاه.

وتتبدى مغالاة الفلاشاه في قوانين الطهارة في تعاملهم مع النساء. فبعد أن تلد المرأة ولداً، فإنها تعد غير طاهرة مدة أربعين يوماً. وإن وضعت بنتاً، فإن المدة تتضاعف. وبعد نهاية المدة، تحلق المرأة شعر رأسها وتغطس في الماء وتغسل ملابسها قبل أن تعود إلى منزلها. وأحياناً يحرق الكوخ الذي قضت فيه فترة العزل.

والمعبد هو مركز الحياة الدينية بين الفلاشاه، والذي تطلق عليه

كلمة "مسجد" أو "بيت إجزا بهير" أو "بيت الإله". ويستخدم الفلاشاه اللغة الجعزية في الصلاة، ويقضون معظم يوم السبت وأيام الأعياد في الصلاة داخل المسجد، ويقفون لتناول الطعام في مأدبة جماعية. كما أنهم يغنون ويرقصون في الأعياد.

ويؤمن الفلاشاه بإله واحد ويؤمنون بالبعث والعالم الآخر والثواب والعقاب، كما يؤمنون بعقائد اليهود الأخرى، كإيمانهم بأنهم من الشعب المختار وأنه سيظهر بينهم ماشيح. ويبدو أن بعض الفلاشاه ممن تقع قراهم على مقربة من قرى المسلمين قد استوعبوا أيضاً عناصر إسلامية في عقيدتهم، وربما كان بينهم مسلمون بالفعل. إذ ذكرت الصحف الإسرائيلية أن بعضهم قد اعتنق الإسلام في إسرائيل. كما أوردت أن بعضهم، أثناء زيارة حائط المبكى، سمع صوت الأذان فاتجه إلى المسجد لإقامة الصلاة. كما ذكرت إحدى الصحف الإسرائيلية أن بعضهم أقام الصلاة على طريقة المسلمين في المطار فور وصوله إلى إسرائيل وقد وصفتهم الصحيفة بأنهم "فلاشاه سنيون".

وقد احتفظ الفلاشاه بهويتهم المتميزة، وهي هوية إثنية أفريقية استمدوها من بيئتهم ومن طبيعة التشكيل الحضارى الأفريقى. ويرى بعض المتخصصين في مجتمع الفلاشاه أنهم من قبيلة الأجاو، وأنهم عرق إثيوبي صاف. أما تقاليدهم وعاداتهم فتشمل

خليطاً من المعتقدات والطقوس الوثنية واليهودية والمسيحية وربما الإسلامية. وقد نفي أحد المؤرخين صفة اليهودية عنهم ووصفهم بأنهم مسيحيون تمسكوا لسبب أو آخر بالعهد القديم بدلاً من العهد الجديد. وهو يرى إن علاقات الفلاشاه، الحضارية والعرقية، مع جيرانهم المسيحيين الإثيوبيين، تتخطى تلك التي يشاركون بها يهود العالم. وقد تكون هذه الطبيعة المختلطة لهوية الفلاشاه هي ما حدا بأحد المسئولين في الوكالة اليهودية في أوائل الخمسينيات إلى إسداء النصح لمن فكر منهم في الهجرة إلى إسرائيل بالتنصر وحل مشكلتهم بهذه الطريقة بدلاً من الهجرة إلى إسرائيل.

الفلاشاه وأزمة المستوطن الصهيوني

رغم الاختلاف العميق بين يهود العالم ويهود الفلاشاه، فقد تم تهجيرهم باسم الهوية اليهودية العالمية. ومن الواضح أنهم سيفقدون في إسرائيل هويتهم الأفريقية ولن يكتسبوا هوية جديدة، لأن المجتمع ينظر إليهم بعين الشك بسبب لون جلدهم وتوجههم الثقافي بل ومعتقداتهم الدينية. وقد شككت دار الحاخامية في يهوديتهم في بادئ الأمر، ثم عادت واعترفت بهم كيهود تمهيداً لعملية التهجير. ومع هذا، لم يكن الاعتراف بهم كاملاً، فيهوديتهم حسب التصور الديني ناقصة. ولذا، طلب منهم عند وصولهم أن يعاد تختينهم وأن يأخذوا حماماً طقوسياً لتطهيرهم. ويلاحظ أنه

لا تصدر لهم بطاقة هوية إلا بعد هذه الطقوس، بل ويتسلمها بعضهم دون تحديد الديانة حتى بعد الختان والاستحمام الطقوسي. ومن الطريف أن هؤلاء الفلاشاه، المشكوك في يهوديتهم، ذهلوا من علمانية المجتمع الصهيوني وعدم حرصه على الشعائر اليهودية إذ لا حظوا أن يهود الكيان الصهيوني لا يلتزمون بشعائر السبت.

ولكن الرفض على أساس إثني وعرقي كان أعمق وأشد حدة. فعلى سبيل المثال، رفضت مدينة إيلات (عدد سكانها عشرون ألفاً) تزويد المستوطنين الفلاشاه بالماء والكهرباء، كما رفض المجلس المحلى لمستوطنة يروحام إدخال الفلاشاه إليها. وفى صفد، تظاهر السكان ضد إعطاء المهاجرين من إثيوبيا بيوتاً، كما هدد أولياء أمور الطلاب فى المدارس الدينية بالامتناع عن إرسال أطفالهم إليها إذا استمر أطفال الفلاشاه معهم. وشكا رئيسا بلدية عكا ونهاريا من توطين الفلاشاه فى بلدتيهما بحجة أن هذه مدن اصطياد سياحية ووجود الفلاشاه لا يساعد كثيراً على اجتذاب السياح، بل يخلق التوتر ويزيد تفاقم ظاهرة العنصرية في المدينة.

وقد بدأت الدولة الصهيونية تتحرك نحو تهجير الفلاشاه موراه. وهم فلاشاه تنصروا بكامل إرادتهم منذ مدة تتراوح بين قرنين وثلاثين عاماً. ويبدو أن الفلاشاه أنفسهم يعتبرون الفلاشاه

موراً (أياً كان نوعهم) غير يهود. ولذا، فإن أياً منهم، إذا أراد العودة إلى حظيرة الدين اليهودي، تطبق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، فيحلق شعر رأسه وجسمه، وهي شعائر لا تطبق إلا على غير اليهود (ومهما يكن من أمر سخرية الصحافة الإسرائيلية من هذه الشعائر، فإنها على أية حال هي الشعائر نفسها التي كانت تطبق في الماضي قبل ظهور اليهودية الحاخامية).

ويمكن طرح السؤال التالي: ما الذي يمكن أن تربحه الدولة الصهيونية من تهجير ما بين ٥٠ ألفًا و٦٠ ألف يهودي من إثيوبيا (العدد الكلي للفلاشاه في إسرائيل)، خصوصاً أنها كانت تدرك بعض المشاكل التي ستنجم عن هذه الهجرة؟ يمكننا ابتداء استبعاد العنصر الإنساني، فلو كان الدافع إنسانياً لانصب اهتمام الكيان الصهيوني على تحسين أحوالهم في بلادهم، وعلى الدفاع عن حقوقهم هناك، ولشمل كل ضحايا المجاعة في إثيوبيا. ولعل أول الدوافع الحقيقية هو الدافع المالي، فالقصص المثيرة عن تدهور حال يهود إثيوبيا تؤدي إلى تدفق التبرعات. كما أن هناك مردوداً إعلامياً. فإسرائيل دولة معروفة للعالم الغربي بعنصريتها. ولذا فإن إنقاذ يهود الفلاشاه (السود.. الأفارقة) قد يحسن صورتها بعض الشيء.

وهذه الدوافع المادية والمالية والإعلامية دوافع حقيقية ولكنها سطحية. أما الدافع الحقيقي الكامن وراء تهجير الفلاشاه فهو الأزمة العقائدية والسكانية العميقة للنظام الصهيوني. فالكيان الصهيوني يعاني من نضوب مصادر الهجرة اليهودية، إذ أن يهود الغرب المتحمسين يكتفون بإرسال الشيكات وبرقيات التأييد الحارة ولا يهاجر منهم إلا القليل النادر. أما يهود الاتحاد السوفيتي فهم، بالمثل، يؤثرون الهجرة، إن هاجروا، إلى الولايات المتحدة. وبعد الهجرة السوفيتية اليهودية الأخيرة، جف منبع شرق أوربا، وقد كان المصدر التقليدي للمستوطنين، لكن العنصر البشرى أساسي بالنسبة للاستعمار الاستيطاني الإحلالي، والفلاشاه (والفلاشاه مورا) سيساهمون بلا شك في سد هذا العجز، فالدافع وراء تهجير الفلاشاه والفلاشاه مورا هو تعطش آلة الحرب والاستيطان الصهيونيتين للمادة البشرية، وستساعد هجرتهم الاستيطانية هذه الآلة على الدوران. كما أن الفلاشاه زراع مهرة، وقد يمكنهم زراعة الأرض الفلسطينية التي استولت عليها الدولة الصهيونية، خصوصاً بعد انصراف المستوطنين الصهاينة عن فلاحتها. كما أن المؤسسات الزراعية الصهيونية تعانى من ندرة الأيدي العاملة اليهودية وتضطر إلى استئجار عمالة عربية، وقد

يبطئ وجود الفلاشاه هذه العملية قليلاً. ويلاحظ أيضاً أن الوظائف الدنيا في الهرم الإنتاجي أصبحت شاغرة بعد أن حقق اليهود الشرقيون شيئاً من الحراك الاجتماعي، وبدأ العرب في ملئها، الأمر الذي أدى إلى تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على العمالة العربية، وهو أمر يهدد أمنه، ولعل المادة البشرية الوافدة، يهودية كانت أم غير يهودية، تسد هذه الثغرة.

ومن الواضح أن تهجير الفلاشاه هو تعبير عن مقدرة الصهاينة على الحركة والإنجاز ولكنه في الوقت نفسه تعبير عن أزمة صهيونية. وهي عملية تحل بعض المشاكل مؤقتاً، ولكنها ستفجر بعض المشاكل الأخرى، وبكل حدة، داخل الكيان الصهيوني. وقد تفجرت مرة أخرى مع وصول الفلاشاه مسألة من هو اليهودي. كما أنها قد تساعد على التشكيك في المقولة الصهيونية الخاصة بوحدة الشعب اليهودي، إذ يأتي الفلاشي بملامح وقيم وعادات مختلفة. ولنتخيل يهودياً أمريكياً أشقر من أصحاب المذهب الإصلاحي أو يهودياً علمانياً أو يهودياً ملحداً يقف بجوار يهودي من الفلاشاه أسود البشرة يرقص في "مسجده" اليهودي في الأعياد، فهل سيقتنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد؟

تهجير الفلاشاه مورا:
حل الأزمة بمزيد من الأزمات!!

مع تفاقم الأزمات داخل الكيان الصهيوني، ولاسيما الأزمة السكانية ونضوب مصادر الهجرة اليهودية التقليدية، بدأ التفكير في تهجير أعداد من "الفلاشاه مورا" من إثيوبيا للاستيطان في فلسطين المحتلة. ويثير هذا المسعى كثيراً من التساؤلات عن واقع الجماعات اليهودية في العالم وعن طبيعة الدولة الصهيونية وادعائها بأنها "دولة يهودية"، فضلاً عن السؤال التقليدي عن "من هو اليهودي؟".

ولكن يجدر في البداية إلقاء الضوء على هذه المادة البشرية الجديدة التي تستهدفها المساعي الصهيونية، وعلاقتها باليهودية. فكلمة "فلاشاه" تعني "الغرباء" أما "مورا" فإنها تعني "الأغيار" أى غير اليهود. فإذا كانت هناك شكوك قوية حول يهودية "الفلاشاه"، فإن "الفلاشاه مورا" مشكوك في يهوديتهم حتى من "الفلاشاه" أنفسهم. ويتجلى ذلك بصفة خاصة إذا أراد أحد أفراد "الفلاشاه مورا" العودة إلى حظيرة الدين اليهودي، حيث تُطبق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، مثل حلاقة الرأس، وهي شعائر لا تُطبق إلا على غير اليهود. ويرجع ذلك إلى أن "الفلاشاه مورا" تنصروا على أيدي المبشرين المسيحيين قبل حوالي قرنين من الزمان.

وتحاول الصحافة الإسرائيلية تبرير عملية تهجير هؤلاء، فتصنفهم على أنهم من "يهود المارانو"، أي اليهود المتخفين، وهو اصطلاح يُطلق في الأدبيات اليهودية على اليهود الذين يتظاهرون بتغيير دينهم ولكنهم يستمرون في ممارسة شعائر دينهم اليهودي في الخفاء، ويبلغ عدد "الفلاشاه مورا" حوالي ١٧٥ ألفاً، منهم ١٥ ألفاً ممن تنصروا واندمجوا في المجتمع المسيحي، ولا تربطهم باليهودية سوى جذورهم الفلاشية (العرقية).

وكانت المؤسسة الحاخامية في الكيان الصهيوني (والعناصر الأخرى التي تعارض هجرة "الفلاشاه مورا") تشير إلى أن أفراد هذه الجماعة لم يتنصروا قسراً، بل تحولوا عن يهوديتهم لتحقيق المغانم الاقتصادية والحراك الاجتماعي وللاستفادة من المعونات المالية التي يقدمها المبشرون، وأنهم يودون الهجرة إلى إسرائيل للأسباب نفسها. ومن ثم، فإن دوافعهم ليست دينية ولا أيديولوجية، فهم إذن مرتزقة.

ولكن يبدو أن بعض العناصر الدينية في إسرائيل لا تُمانع في الوقت الحاضر في هجرتهم، كما بدأت الولايات المتحدة تدعو إلى تهجيرهم. والدافع وراء هذا، على ما يبدو، هو تعطش المستوطن الصهيوني للمادة البشرية، خاصة بعد أن أدت انتفاضة الأقصى إلى تراجع عدد المهاجرين اليهود من الخارج من ٦١ ألف شخص

عام ٢٠٠٠ إلى حوالي ٢١ ألف شخص فقط في عام ٢٠٠٣ (موقع www.moia.gov.il). وفي المقابل، تتزايد أعداد النازحين والراغبين في النزوح من الكيان الصهيوني، حيث تشير الإحصائيات إلى أن حوالي ١٩٣ إسرائيلي غادروا البلاد خلال شهر فبراير/شباط الماضي، ويمثل هذا الرقم زيادة بنسبة ٢٠ بالمئة عن مثيله في نفس الفترة من العام السابق (موقع www.IsraelNN.com، ١٧ مارس/آذار ٢٠٠٤)، ويفضل معظم هؤلاء الاستقرار في أوروبا أو أمريكا الشمالية. كما يُلاحظ أن الوظائف الدنيا في الهرم الإنتاجي أصبحت شاغرة بعد أن حقق اليهود الشرقيون شيئاً من الحراك الاجتماعي، وبدأ العرب في ملئها، وهو الأمر الذي أدى إلى تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على العمالة العربية، مما يهدد أمنه. ولعل المادة البشرية الوافدة، يهودية كانت أم غير يهودية، تسد هذه الثغرة.

ويبدو أيضاً أن المؤسسة الحاخامية قد غيرت موقفها التقليدي من "الفلاشاه مورا". فقد صرح الحاخام السفاردى الأكبر أن الفلاشاه مورا "يهود كاملون بلا شك"! ولهذا بدأت المؤسسة الحاخامية في حثهم على الهجرة وتهويدهم وضمهم إلى صفوف اليهود الأرثوذكس حتى يتزايد عددهم (مع أن اليهودية الأرثوذكسية لا تشجع التهود).

وتوجد جماعة تسمى "مؤتمر شمال أمريكا بخصوص يهود إثيوبيا" North American Conference on Ethiopian Jewry تعمل على تشجيع الهجرة، وهي تدير مجمعاً ضخماً في أديس أبابا وآخر في جوندا يهتم بتعليم أعضاء جماعة الفلاشاه مورا شعائر الدين اليهودي قبل تهجيرهم إلى فلسطين المحتلة. وتُعقد في المجمع حلقات دراسية لتعلم العبرية، كما يضم معبداً يهودياً.

وقد أعلن سلفان شالوم، وزير خارجية إسرائيل، أنه سيسرع بعملية تهجير وتوطين ٢٤ ألف من جماعة "الفلاشاه مورا" الذين يعيشون في مجمعات "مؤتمر شمال أمريكا" في أديس أبابا وجوندا، كما صرح وزير الداخلية (وهو من حزب شاس الديني) أنه سيساهم في عملية الإسراع هذه.

وقد أدى نشاط "مؤتمر شمال أمريكا" إلى اندلاع نقاش حاد في إسرائيل بين العلمانيين (ومعظمهم من الأشكناز البيض) والمتدينين. فقد اتهم العلمانيون المؤتمر بأنه "يخلق اليهود تخليقاً، وأنه يغري المسيحيين الإثيوبيين بالخروج من قراهم، بأن يعدهم بالطعام والأموال وبالهجرة إلى فلسطين في مقابل اعتناق اليهودية الأرثوذكسية. كما شكك بعض المسؤولين في صدق ادعاءات "الفلاشاه موراه" بأنهم يهود. وصرح وزير الهجرة والاستيعاب أنه

لا يمكن لإسرائيل استيعاب هذا العدد، وأن توطينهم قد يبدأ حلقة مفرغة من تصاعد هجرة "الفلاشاه موراه"، فالمهاجرون الجدد سيطالبون بإحضار باقي أفراد عائلاتهم من إثيوبيا وهي عملية لا نهاية لها، كما قال أحد المسؤولين. ويطالب هؤلاء المعارضون بإغلاق مجمعات أديس أبابا وجوندا ووضع نهاية لهجرة "الفلاشاه مورا".

ويرد أعضاء "مؤتمر شمال أمريكا" بالقول إن "الفلاشاه مورا" يشعرون في أعماق أعماقهم أنهم يهود (ومن الطريف أن أحد تعريفات اليهودي تقول إنه الشخص الذي يشعر أنه كذلك، وكأن الشعور الذاتي يعادل الكيان الموضوعي).

ويعود اعتراض المتحدثين باسم اليهود الأشكناز على هجرة "الفلاشاه مورا" إلى خشيتهم من تزايد عدد اليهود الأرثوذكس، فضلاً عن خوفهم (المسكوت عنه) من تزايد عدد السود والشرقيين بشكل عام، بحيث يصبح اليهود الأشكناز في نهاية الأمر مجرد أقلية في الدولة الصهيونية. ووضع الأقلية هذا هو أكثر ما يخشونه، فقد تركوا أوطانهم الأصلية واستوطنوا في فلسطين المحتلة ليصبحوا أغلبية!

ولكن ما يهمنا نحن العرب، أن هجرة "الفلاشاه مورا" تفاقم من أزمات التجمع الصهيوني. ولو أحسن فهم هذه الأزمات لأمكن توظيفها في عملية تفكيك الجيب الاستيطاني الصهيوني.

يهودي بشكل ما !؟

يتصوَّر الكثيرون أن اليهود كتلة بشرية متجانسة، وأن ثمة قالباً يهودياً يمكن أن نضع فيه كل اليهود. ولكن الدراسة المتأنية تبيِّن أنه لا يمكن الحديث عن اليهود بشكلٍ ما، ولذا فإن الأفضل الحديث عن الجماعات اليهودية، وهي جماعات مختلفة، تكتسب خطابها الحضاري من المجتمع الذي تعيش فيه. وهنا يطرح السؤال نفسه: لِمَ نسميها جماعات يهودية، وليس جماعات وحسب ؟ الإجابة عن هذا السؤال صعبة بعض الشيء إذ يمكننا القول إن ما يجمعها هو عقيدتها اليهودية، ولكن ثمة مشاكل كثيرة ستواجهنا. وابتداءً يجب أن نشير إلى أن ثمة فارقاً بين اليهودية واليهود_ فاليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة، واليهود هم من يؤمنون (أو يدعون الإيمان) بها. ولا يوجد مجال لترادف الواحد بالآخر (هل يوجد ترادف بين الإسلام والمسلمين أو بين المسيحية والمسيحيين ؟). وعدم الترادف هذا يزداد عمقاً في حالة اليهودية التي عرَّفت اليهودي بطريقة عقائدية، كما تفعل كل الأديان (اليهودي هو من يؤمن باليهودية)_ ولكنها عرَّفته أيضاً بطريقة عِرْقية، كما تفعل العقائد البيولوجية الحتمية (اليهودي هو من يولد لأم يهودية).

وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى عدة أقسام أساسية:

إشكناز وسفارد ويهود البلاد الإسلامية. وإلى جانب ذلك توجد جماعات يهودية هامشية لا حصر لها ولا عدد. فهناك على سبيل المثال لا الحصر السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساساً بنسختها المختلفة عن تلك المتداولة بين اليهود كافة، ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجيء الماشيَّح. وهناك أيضاً القرَّاؤون الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلي الإسلامي)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل_ وهناك بقايا يهود كايفنج في الصين، يعبدون يهوه الذي يسمونه تين (السماء) ويتعبدون في معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف. وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تماماً. ويقدمون لأسلافهم قرابين من لحم الضأن، أما هم فلا يمانعون في أكل لحم الخنزير. ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها كونفوشيوسية (تماماً مثلما نجد أن يهودية بني (إسرائيل) في الهند يهودية هندوكية). وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

وبدلاً من الدخول في تفصيلات لا حصر لها، يمكن أن نقارن

بين عينتين: إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر تجمع يهودي في العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشاه الذين يشكلون تجمعاً صغيراً هامشياً ومنعزلاً. وقد لاحظت الأولى عن قرب نتيجةً للوقت الطويل الذي قضيته في الولايات المتحدة، أما الفلاشاه فقد قرأت عنهم الكثير.

وينتمي يهود الولايات المتحدة، بالدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل إشكنازي (ألماني أو روسي/بولندي). وتوجد قلة من السفارد، والقرّائين، والكرمشاكي (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة من شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالتترية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزر). وهناك أيضاً بعض الأميركيين السود الذين يُدعون العبرانيين السود (يقال إن بعضهم ثمرة الجماع بين بعض أصحاب المزارع اليهود وخليلاتهم السود والبعض الآخر ثمرة التهود)؛ وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن أفريقيا عن طريق شق قناة السويس، ويدّعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق في استرداد (إسرائيل) والاستيطان فيها وحكمها. وتوجد جماعة منهم في شيكاغو هاجرت أعداد منها إلى (إسرائيل)، حيث استقروا في جوار ديمونا وفي أماكن أخرى.

وبطبيعة الحال فإن(إسرائيل) والمؤسسات الحاخامية لا تعترف بأمثال هؤلاء، ولذا فهم يشكلون أقلية منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة.

أما الفلاشاه، فهم من يهود إثيوبيا، وملامحهم لا تختلف من قريب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هناك بينهم من تنويعات، فهي تنويعات تشبه في بعض الوجوه التنويعات الموجودة في مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشاه موراه، وهي جماعة مسيحية شبه يهودية منبوذة من الفلاشاه كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان_ومن الناحية الدينية، ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون، ويهود متدينون، وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحافظين وتجديديين وأرثوذكس (وتوجد بعض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيون في الولايات المتحدة يتعبدون في المعبد اليهودي (السيناجوج)، ويرأسهم حاخام، ولا يقيمون معظم الشعائر، ولا يكترثون بالطعام الشرعي أو بشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

ولا يندرج الفلاشاه في نطاق اليهودية الحاخامية، فهم لا يعرفون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية؛ فشعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع

هذا، فهم يقيمون شعائرهم كلها (وقد صُدموا حينما هاجروا إلى (إسرائيل) بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية). ويرأس يهود الفلاشاه قساوسة (يُقال لهم قسيم)، وهي جمع كلمة قسيس بالعبرية، ولا أدري هل يستخدمون هذه الصيغة العبرية في إثيوبيا نفسها، أو أنها شكل من أشكال التدليس الصهيوني، فكُتبت الكلمة على هذا النحو حتى لا يضطر المؤلف إلى كتابة كلمة priests الإنجليزية بكل إيحاءاتها المسيحية ؟ وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون في معبد يهودي يسمًّى المسجد، ويخلعون نعالهم قبل دخوله! (هل يمكن اعتبارهم يهوداً أساساً؟).

ومن ناحية اللغة، يتحدث يهود الولايات المتحدة الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والآرامية. كما توجد العبرية في بعض كتب الصلوات. أما يهود الفلاشاه، فهم يتحدثون بالأمهرية (ويتحدث بعضهم بالتيجرينية)، ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد. ولكل جماعة من هاتين الجماعتين خطابها الحضاري وفلكلورها الذي ينبع، في حالة يهود أميركا، من محيطهم الحضاري الحالي (الأميركي)، أو من محيطهم الحضاري السابق (روسيا _بولندا _إنجلترا). أما في حالة يهود الفلاشاه، فهو

ينبع كله من محيطهم الحضاري الإثيوبي الأفريقي. وفي حين أن اليهودي الأميركي يرتدي البنطلون الجينز ويأكل الهامبرجر ويرقص الديسكو ويعيشَ في منزل عصري، وقد يُطعِّم حديثه ببعض الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم باليديشية، كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التي كانوا يرتدونها في شرق أوربا، فإن يهودي الفلاشاه يرتدي شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة في منطقته، ويعيش في كوخ مغطى بالحطب لا يختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة. والوضع الاجتماعي ليهود أميركا (نسبة الطلاق - الوظائف - المهن) ورؤيتهم للكون مختلفان تماماً عن وضع الفلاشاه ورؤيتهم. لهذا كله، يمكن القول إن مصطلح يهودي مصطلح عام للغاية، ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه.

ولعل عدم تحدد مصطلح يهودي يظهر في عبارة تستخدمها الإحصاءات اليهودية لتشير إلى مجموعة من الناس يصنفون على أنهم يهود بشكل ما (بالإنجليزية : جويش سامهاو Jewish somehow)، وهي عبارة خالية من المعنى، تدل على مدى الإخفاق في تعريف اليهودي.

أبناء يهود اليمن:
ضحايا في أرض الميعاد!

الصهيونية ... ذلك الحلم الرومانسي بالعودة السعيدة إلى أرض الميعاد التي تنتظر شعبها المنفي منذ ألفي عام، لم يكن سبباً في تحقيق السعادة بالنسبة لكل من حملته أقداره بإرادته أو رغماً عنها إلى هذه الأرض، ومن ضمنهم مئات الأسر من اليهود اليمنيين الذين اختفي أطفالهم من المستشفيات ومخيمات المهاجرين في أوائل الخمسينيات في ظروفٍ غامضة!!.

ولمحاولة فهم ما حدث لهؤلاء الأطفال لابد من العودة إلى أصول فكرة الصهيونية، التي انطلقت من توليفة من الأفكار العلمانية الشاملة التي شاعت في الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر، ولعل أهمها هو الفكر العنصري العِرْقي الذي يرى البشر جميعاً مادة، ولذا فالاختلافات بينهم مادية تنبع من خصائصهم العِرْقية والتشريحية، ومن هنا تبرز أهمية الاختلافات العِرقية (لون البشرة _ حجم الرأس ...) كمعيار للتفرقة بين البشر، وما يترتب على ذلك من اعتبار أن حضارة أو رقي شعب ما أو وتخلفه هو نتيجة حتمية لصفاته العِرقية والتشريحية. وقد تبنت الصهيونية هذه النظرية لتفسير ظاهرة نبذ الشعب العضوي اليهودي في أوروبا وضرورة نقله، واستخدمتها في فلسطين لتبرير

عملية طرد العرب من بلادهم باعتبارهم عِرقاً أدنى من العرق اليهودي.

ومنذ تأسيس الدولة الصهيونية سرت جرثومة العنصرية فيها وعبرت عن نفسها لا على المستوى الدستوري والقانوني فحسب (قانون العودة مثلاً) وإنما على مستوى الممارسة في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية أيضاً. فالتفرقة بين العرب واليهود من المواطنين الإسرائيليين واضحة لكل مراقب، وقد عبر موسيه آرتس، وزير الدفاع السابق وأحد أقطاب الليكود، عن ذلك بقوله: "هناك في دولة إسرائيل شيء يهودي خاص، فهل يتمكن العرب من الشعور الكامل بالانتماء إليه؟؟". وعلى سبيل المثال لا الحصر يظهر ذلك واضحاً في المجال السياسي وفي مخصصات المجالس المحلية اليهودية التي تبلغ خمسة أضعاف المخصصات للمجالس العربية وفي مخصصات إعالة الأطفال وقروض الإسكان، وكذلك في مستوى التعليم وفرص العمل وغيرها الكثير.

وفي داخل النطاق اليهودي نفسه تُعتبر قصة اختطاف أبناء اليهود اليمنيين دليلاً واضحاً على تميز اليهود من ذوي الأصول الغربية على اليهود من ذوي الأصول الشرقية. ففي الفترة من عام ١٩٤٩إلى عام ١٩٥٢ اختفى حوالي ١٠٣٣ طفل يمني من مخيمات المهاجرين والمستشفيات، وادعت السلطات في ذلك الوقت

أنهم قد تُوفوا ودُفنوا، ولكنها لم تُعط لأهلهم شهادات وفاة ولم تُقدم لهم أية إيضاحات عن أسباب هذه الوفيات. وهكذا ظل السؤال حائراً في عقول وقلوب هؤلاء الآباء الذين يرفضون تصديق ما حدث. ونتيجةً لاستمرار إثارة هذه القضية تشكلت عام ١٩٦٧ لجنة للتحقيق في هذه المسألة توصلت إلى أنه لم تحدث عمليات اختطاف لهؤلاء الأطفال. ولكن الأهالي لم يفقدوا الأمل، وفي عام ١٩٨٨ تشكلت لجنة تحقيق ثانية توصلت في عام ١٩٩٤ إلى نفس النتيجة.

ورداً على هذه النتيجة المخيبة للآمال حدث احتجاج مسلح على يد الحاخام عوزي ميشولام الذي فتح النار هو وأتباعه على الشرطة، مطالبين بلجنة جديدة للتحقيق. وبالفعل تكونت هذه اللجنة عام ١٩٩٥ وانتهت في عام ٢٠٠١ إلى القول بأنه لم يحدث اختطاف لهؤلاء الأطفال على يد المؤسسة الرسمية، وذكرت اللجنة أن ٩٧٢ طفلاً قد تُوفوا وأن خمسة أطفال لا يزالون أحياء ولكن مصير ٥٦ طفلاً لا يزال في طي المجهول. وادعت اللجنة أن بعض العاملين في مجال الرعاية الاجتماعية ظنوا أن عائلات هؤلاء الأطفال قد تخلت عنهم، ولذلك عرضوهم للتبني على مجموعة من الأسر الأشكنازية المحرومة من الإنجاب!! وأن هذا كله حدث دون أدنى مسؤولية من المؤسسة الحاكمة.

وفي إطار عمل اللجنة الأخيرة تم استخراج بقايا جثث ٢٢ طفلاً من مقبرة في بتاح تكفا لإجراء فحوص الحامض النووي DNAفي محاولة لإثبات علاقتهم بتلك الأسر اليمينية، ولكن هذه المحاولة لم تؤد إلا إلى المزيد من الشكوك بدلاً من إغلاق هذا الملف الذي أصبح مثاراً بشكل متواتر وحاد في الكيان الصهيوني (هآرتس، ١٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٧). فعند فتح القبور، التي تعود لأكثر من خمسين عاماً، لم يجد الأهالي إلا قطع غير مكتملة من العظام مما حرك في أذهانهم فكرة أن هذه القبور فارغة، وزرع الشك مرة أخرى بين الأهالي والسلطات وأعاد فكرة المؤامرة إلى الوجود بعد خمسين عاماً من عدم التصديق (هآرتس، ٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١). وكانت الخيبة الكبرى هي نتائج الفحوص التي أثبت أن جثة واحدة فقط "قد توجد بينها صلات عائلية" مع إحدى الأسر الشاكية!!

إن هذه القضية التي تبدو عصيةً على الحل تسلط الضوء بقوة على العنصرية الصهيونية التي لم يفلت من براثنها حتى اليهود، وتبدو بالنسبة لأهالي أولئك الأطفال وكأنها رحلة بحث لا نهاية لها، على حد تعبير صحيفة الجيروساليم بوست (٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١). فهؤلاء الأهالي يشعرون وكأن أطفالهم "قد تبخروا في الهواء"، مثلما قالت أخت أحد المفقودين الذي اختفى بعد

ولادته في مستشفى عام ١٩٥٠، ولا تزال عائلات الضحايا تأمل في كشف ما حدث، إلا إن بعض الأهالي يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن اشتراك المؤسسة الحاكمة في مؤامرةٍ منظمةٍ لاختطاف أطفالهم سوف يمنع أية لجنة تحقيق من كشف ما حدث، فكيف يمكن للمؤسسة أن تعري أخطاءها؟؟

ومما لاشك فيه أن اختطاف طفل من أسرته أمر عصيٌّ على النسيان بالنسبة لأية أسرة، ولكن مأساة هؤلاء الأطفال تمثل للمهاجرين اليمنيين كل الإحباطات والمصاعب والإهانات التي تعرضوا لها منذ أن تركوا بلاد اليمن السعيد وتوجهوا إلى "أرض الميعاد السعيدة" تحت تأثير الدعاية الصهيونية عن الجنة الموعودة التي تنتظرهم.

وتروي إحدى الأمهات قصة طفلها الذي ولدته عام ١٩٤٩ وفي المستشفى سخر الأطباء منها ورفضوا أن يسلموها الطفل بدعوى أنه ليس ابنها، ثم أجبروها على أن تقسم على التوراة أنها أمه حتى تأخذه. وفي العام التالي، وعند ولادة طفلها الثاني اختفى الطفل في المستشفى بعد شهرين من الولادة!!

ويعبِّر أخو هذا الطفل، الذي يبلغ من العمر الآن خمسين عاماً، عن سخطه على الطريقة التي عُومل بها أهله لدى وصولهم إلى "أرض الميعاد"، ويتساءل "هل كان الناس هنا يظنون أن اليمنيين لا

يحسون بالألم كغيرهم من البشر؟". وينظر بأسى إلى الطريقة التي جُمع بها يهود المنفى ونُقلوا إلى إسرائيل على يد الصهاينة، ويقول "إن القضية تنتقل من جيلٍ إلى جيل. لقد كانوا يظنون أننا سوف نبقى بدائيين إلى الأبد ولكننا لسنا كذلك، نحن نعرف الآن كل ما ارتكبوه بحقنا من الفظائع، وحتى لو نسي والدي فإن أولادي لن ينسوا".

إنه ميراث الكراهية الذي زرعته العنصرية الصهيونية حتى في قلوب اليهود _ شعب الله المختار -!!!.

الحاخام القائد وتناقضات الشخصية اليهودية

توجد تناقضات عميقة تعتمل داخل التجمع الصهيوني من أهمها التناقض الديني العلماني. كما توجد تناقضات هامة في حد ذاتها مثل التناقض الإشكنازي/السفاردي، ولكنها تقل في أهميتها عن التناقض الديني العلماني. وقد عبَّر الحاخام عوفاديا يوسف عن تناقضات التجمع الصهيوني حين أصدر منذ عدة أعوام فتوى دينية شهيرة حول تأييد الانسحاب الإسرائيلي من أراضي عربية محتلة (حقناً للدماء وصوناً للأرواح اليهودية). وقد استدعى الحاخام مفهوماً دينياً يهودياً هو »بيكواح نيفيش« أي »فداء النفس«، أي أن النفس *اليهودية* أغلى من الأرض *(اليهودية)*

ولا يصح التضحية بها.

ولكن هذا الحاخام نفسه صرح في موعظته الأسبوعية في عيد الفصح العبري هذا العام (٢٠٠٠) بأن "الإله يجب أن يدمر العرب" وطلب من أتباعه أن يكرروا وراءه عبارة "صب غضبك على الأغيار" كما طلب من الإله "أن يرد الصاع صاعين إلى العرب وأن يقطع نسلهم ويبيدهم ويذلهم ويمحو أثرهم". وفي مناسبة أخرى، صرح بأن العرب "أنجاس وأفاعٍ" وأن "الإله يندم كل يوم على أنه خلق ذرية إسماعيل".

وقد حاول بعض المتحدثين الرسميين الإسرائيليين التخفيف من حدة وقع هذه التصريحات العنصرية، فقالوا إن الحاخام يقصد »المخربين« وليس العرب على وجه العموم. وكما قال الحاخام ميخائيل ملكيئور (من حزب ميماد الديني »المعتدل« والمؤتلف مع حزب العمل) فإن "ثمة وصية في الدين اليهودي تقول لنا بعدم إدارة الخد الأيسر لمن يصفعنا على الخد الأيمن. ومن هنا، فليس المطلوب منا أن نكون إنسانيين مع الذين يريدون المس بنا تنفيذاً للوصية القائلة: الذي يأتي لقتلك بكروا بقتله".

وفي هذا السياق، لا يهمنا اتهام الحاخام يوسف بالعنصرية أو تبرئته من التهمة أو التخفيف منها، وإنما يهمنا أن نفسر سر هذا التحول حتى نفهم حركيات التجمع الصهيوني. ولفهم هذا، لابد

وأن نضع اللعنات التي صبها عوفاديا يوسف على العرب في سياق أوسع من اللعنات الأخرى!

وقد أعلن الحاخام في فبراير عام ١٩٩٩ أن كل قضاة المحكمة العليا في إسرائيل نجسون يرتكبون الفاحشة (معاريف، ١٩ مارس/آذار ٢٠٠٠). كما صب لعناته على النساء العلمانيات اللائي لا يمارسن شعائر الطهارة وبالتالي يلدن أطفالاً نجسين. وفي عام ١٩٩٧، صرح بأن "الرجل يجب ألا يسير بين امرأتين أو حمارين أو جملين" لماذا؟ "لأن النساء لا يعرن التوراة أي التفات، وكل من يسير بالقرب منهن يصبح مثلهن". وفي ٣ مارس/آذار ٢٠٠٠، قال الحاخام في إحدى مواعظه أن يوسي ساريد (وهو من أهم شخصيات اليسار العلماني) ملعون، تماماً مثل كل أعداء اليهود وأن الإله سيجتثه من جذوره. وقد أدلى الحاخام بتصريحه هذا قبل عيد البوريم حيث يتم شنق تمثال هامان، الوزير الفارسي الذي حاول أن يبيد اليهود.

ولم تسلم المؤسسة الدينية الإشكنازية من هجمات الحاخام عوفاديا يوسف، فحينما سُئل عن أقرب العقائد الدينية إلى اليهودية قال "حركة حبد"، وهي حركة دينية إشكنازية يهودية أرثوذكسية. وهو بتعليقه هذا ينكر عليها صفة اليهودية.

الهجوم، إذن، ليس ضد العرب وحدهم وإنما ضد حزمة من

المؤسسات والعقائد والجماعات البشرية، فما هي دوافع الحاخام؟ ابتداءً، يجب أن نشير إلى أن الحقيقة الأساسية في حياة الحاخام عوفاديا يوسف هي أنه مؤسس حزب شاس وزعيمه الروحي، وهو حزب ديني/قومي سفاردي. والحاخام من مواليد العراق (١٩٢٠)، وكان رئيس المحكمة الدينية اليهودية في القاهرة (١٩٤٧ - ١٩٥٠)، والحاخام السفاردي الرئيسي لمدينة تل أبيب (١٩٥٤ - ١٩٧٢)، والحاخام السفاردي الرئيسي في إسرائيل (١٩٧٣ - ١٩٨٣).

والواقع أن بزوغ نجمه هو انعكاس لعدم تجانس التجمع الصهيوني. فهذا التجمع منقسم على نفسه عدة انقسامات: فهناك الانقسام الأكبر وهو الانقسام الديني العلماني، ولكن هناك انقساماً آخر لا يقل عن الانقسام الأول أهمية هو الانقسام الغربي الشرقي. والجدول التالي الخاص بالتقسيم على أساس ديني يبين مدى تداخل الأمور في إسرائيل:

٣,٩٪	أرثوذكس متطرفون (حاريدي)
١١,٠٪	متدينون (داتي)
٢٦,٨٪	تقليدي (ماسورتي)
٢٤,٣٪	علماني يحتفظ ببعض التقاليد (حيلوني حاميكاييم ماسورت)

٦, ٣٠٪ علماني (حيلوني)

٤, ٤٪ معادٍ للدين

والجدير بالذكر أن الماسورتي (التقليدي) ليس متديناً بالمعنى المعروف وإنما هو من يرى ضرورة الحفاظ على التقاليد الإثنية الدينية (كنوع من أنواع الفولكلور)، وهو ليس بالضرورة من يؤمن بالعقيدة.

وتزداد الصورة تركيباً إن صنفنا أعضاء التجمع الصهيوني على أساس أصولهم العِرْقية. وإلى جانب هذه الانقسامات والصراعات، يوجد الصراع الأكبر، وهو الصراع العربي الإسرائيلي. لكن هذا الصراع، رغم تأثيره العميق على الصراعات الأخرى، يتطلب معالجة منفصلة.

وقد أسس الدولة الصهيونية مجموعة من يهود شرق أوربا ممن فَقَدوا إيمانهم الديني وأصبحوا ملاحدة يرون أن الصهيونية إنما هي ثورة على العقيدة اليهودية. فالرواد الصهاينة أو الآباء الصهاينة كانوا لا يكنون أي حب أو احترام للعقائد والتقاليد اليهودية، وكانوا يرون أن دولتهم العبرية تشكل نهاية للشخصية اليهودية التقليدية وبداية للشخصية العبرية التي تصاغ على نمط الشخصية القومية العلمانية في الغرب، وعلى هذا الأساس تم تأسيس الدولة الصهيونية. ولكن الدولة الصهيونية، مع هذا، ادعت

أنها «دولة يهودية» تستمد شرعيتها من كونها يهودية. مع دخول الفكر العلماني مرحلة الأزمة على المستوى العالمي وعلى مستوى إسرائيل، بدأت المؤسسة الدينية في إسرائيل تطرح نفسها كبديل، فعلت ذلك على استحياء في بادئ الأمر. ومع تصاعد أزمة الصهيونية العلمانية، ازدادت هذه المؤسسة الدينية ثقة بنفسها وازدادت نبرتها حدة.

وتطالب المؤسسة الدينية أن تصبح الدولة اليهودية «يهودية» بالمعنى الديني وليس بالمعنى الإثني، بمعنى أن يهودية هذه الدولة يجب ألا تكمن في مجموعة من الرموز القومية الدينية (مثل النشيد القومي وأنواع معينة من الطعام... إلخ) وإنما يجب أن تتبدى في مجموعة من الممارسات والشعائر الدينية الحقيقية (مثل إقامة شعائر السبت التي يرى العلمانيون أنها قاسية للغاية وتحرمهم من عطلة نهاية الأسبوع، واتباع قوانين الكاشروت، أي الطعام المباح شرعاً، وهي كثيرة ومركبة وصعبة).

وإلى جانب الصراع الديني العلماني، هناك الصراع السفاردي/الإشكنازي (الشرقي/ الغربي). فمن المعروف أن التقاليد السفاردية الدينية، أي المنهاج السفاردي، كان له اليد الطولى في فلسطين، وكان على الحاخامات الإشكناز أن ينضموا إلى الجماعة الدينية السفاردية التي كان يترأسها ريشون لتسيون

(الأول في صهيون) وهو حاخام سفاردي كان يختاره المجلس الحاخامي ثم توافق عليه السلطة العثمانية.

ولكن، ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر، ومع تزايد النفوذ الغربي، بدأت في الظهور جماعات إشكنازية مستقلة تمولها الجماعات اليهودية في أوربا وبمساعدة قناصل الدول الغربية، خاصةً روسيا القيصرية التي كانت تبذل قصارى جهدها في التدخل في الشئون الداخلية للدولة العثمانية.

وبدأ سلطان الإشكناز يتزايد حتى عام ١٩١١ حينما وافق الحاخام السفاردي بن زيون أوزايل أن يتقاسم السلطة الدينية مع الحاخام يتسحاق كوك. ولكن ما حدث أن الحاخام كوك، وكان صهيونياً حتى النخاع، نجح تقريباً في الاستئثار بها حتى سادت التقاليد الإشكنازية، ووجد الحاخام السفاردي نفسه مضطراً للتنازل إلى أن وصل الأمر إلى حد أن أصبحت الثقافة السفاردية الدينية والشعبية موضع احتقار. وتحت شعار صهر المنفيين، حاولت المؤسسة الإشكنازية محو هوية السفارد.

ويقود الحاخام عوفاديا يوسف ثورة ضد هذا الوضع بشقيه الديني والإثني ليعيد الأمور إلى ما كانت عليه، وليعيد المنهاج الديني السفاردي إلى مكان القيادة ويؤكد الهوية السفاردية. فهو، إذن، يقود صراعاً حضارياً تبدى في تأسيسه لحزب شاس الذي

أخذ يتعاظم نفوذه في الخارطة السياسية الإسرائيلية إلى أن حصل على ١٧ معقداً في الكنيست في انتخابات ١٩٩٩، وبذلك أصبح ثالث حزب ومنافساً قوياً لحزب الليكود على القواعد الشعبية الشرقية التي يرتكز إليها والتي استطاع من خلالها مناحم بيجين أن يحقق ثورته الانتخابية عام ١٩٧٧ حينما أسقط المؤسسة العمالية وحل محلها.

ويحاول الحاخام عوفاديا يوسف تأكيد الهوية اليهودية الدينية الإثنية الشرقية، وعلى هذا فإن صراعه الحضاري يتم على المستويين الديني والإثني. وهو لم يكتف بابتزاز الحكومات الإسرائيلية المتتالية لتمويل نظامه التعليمي أو مؤسساته الاجتماعية بل نجده يحاول الآن أن يلعب دوراً سياسياً قيادياً حتى يمكنه المشاركة في السلطة وحتى يمكن إعادة تقسيم الثروة القومية "اليهودية".

وفي إطار هذا المناخ السياسي العام المشبع بالتفكير العنصري ضد العرب (خاصةً بعد تصاعد الانتفاضة) والمشبع بالخوف منهم، يتم التحرك في إسرائيل. ولعل تخلي الحاخام عوفاديا يوسف عن موقفه القديم بخصوص «فداء النفس» بمثابة محاولة من جانبه لأن يثبت للجمهور الإسرائيلي أن حزبه الشرقي قد تأسرل تماماً وأنه بالتالي قادر على قيادة الدولة الصهيونية، ولعل الهجوم على العرب يكسبه قدراً كبيراً من الشرعية.

لغات اليهود ولهجاتهم

تستخدم بعض المراجع الصهيونية اصطلاح «اللغات اليهودية» للإشارة إلى اللغات واللهجات والرطانات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم.. ونحن نفضل العبارة الثانية على الأولى نظراً لمقدرتها التفسيرية العالية ولتأكيدها الوحدة وعدم التجانس في ذات الوقت.

ولم يتحدث اليهود اللغة التي تُعرَف بالعبرية إلا لفترة قصيرة للغاية، فلغة الآباء (إبراهيم وإسحق ويعقوب) (٢١٠٠ – ١٢٠٠ ق.م) كانت لهجة سامية قريبة من العربية أو الآرامية، أما العبرية فكانت لهجة من اللهجات الكنعانية ولم يتخذها اليهود لساناً لهم إلا بعد إقامتهم في كنعان (ابتداءً من ١٢٥٠ ق.م). ويبدو أن العبرية قد اختفت بوصفها لغة الحديث بين اليهود مع التهجير البابلي (٥٦٧ ق.م). وثمة نظرية تذهب إلى أن الآرامية (كانت لغة المسئولين في بلاط ملوك مملكة يهودا الجنوبية). ورغم أنه بقي بعض اليهود في فلسطين يتحدثون العبرية، إلا أن الآرامية حلت تماماً محل العبرية نحو ٢٥٠ ق.م.

أما اللغات التي كان يستخدمها أعضاء الجماعات اليهودية في تعاملهم مع الآخرين بعد انتشارهم في العالم، فكانت في معظم الأحيان لغة الوطن الذي استقروا فيه وانتموا إليه، أو إحدى

اللغات الدولية السائدة. فكان يهود بابل يتحدثون الآرامية، لغة التجارة الدولية والإدارة في الشرق الأدنى القديم. وكان يهود الإسكندرية في العصر الهيليني يتحدثون اليونانية، كما أن يهود فلسطين كانوا يتكلمون إما الآرامية أو اليونانية (جاء في العهد الجديد أن القديس بولس تحدَّث للناس في فلسطين باليونانية ثم تحدَّث معهم بالآرامية بعد ذلك). وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، كان يهود الإمبراطورية الشرقية يتحدثون لغة هذه الإمبراطورية، أي اليونانية (وظلوا يتحدثون بها حتى الفتح العثماني). أما يهود الإمبراطورية الغربية وأفريقيا وغرب أوربا، فكانوا يتحدثون اللاتينية. ويبدو أن بعض يهود الإمبراطورية الإيرانية كانوا يتحدثون باللهجات الفارسية المختلفة (ففي سفر إستير ورد أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يتحدثون بالفارسية مع الفرس بدون صعوبة)، وكان يهود العالم العربي يتحدثون العربية، وهكذا. وفي بعض الأحيان، كان أعضاء الجماعات اليهودية يستخدمون، في التعامل فيما بينهم، رطانات مُكوَّنة من لغة الوطن أو لغة المنشأ بعد أن يُدخلوا عليها بضع كلمات ومصطلحات عبرية أو آرامية أو ألفاظاً من أية لغة أخرى كانوا يتحدثون بها في البلد الذي كانوا فيه قبل هجرتهم. فيهود الأندلس، على سبيل المثال، كانوا يتحدثون رطانة تُسمَّى «العربية

اليهودية»، ويهود إسبانيا كانوا يتحدثون اللادينو، وهي رطانة إسبانية (وسيطة) دخلت عليها بضع كلمات من العبرية والتركية واليونانية. أما يهود أوربا الشرقية، فكانوا يتحدثون اليديشية، وهي رطانة ألمانية تحوَّلت في مرحلة لاحقة إلى ما يشبه لغة مستقلة للحديث والكتابة. وفي القرن السادس عشر، يبدو أن معظم يهود العالم كانوا يتحدثون إما اليديشية (في أوربا) أو اللادينو (في الدولة العثمانية). وكثيراً ما كان أعضاء الجماعات اليهودية يستخدمون الحروف العبرية في كتابة هذه الرطانات في المعاملات اليومية، مثل الفواتير التجارية أو غير ذلك من أمور الدنيا. ولم يكتب أعضاء الجماعات اليهودية بهذه الرطانات أدباً ذا بال، لا في الماضي ولا في العصر الحديث. وربما يمكن استثناء اليديشية من ذلك، فنظراً لأنها عمرت طويلاً (نسبياً) وأصبحت، مع القرن التاسع عشر، لغة مستقلة يتحدث بها معظم يهود العالم الغربي الذين كانوا مُركَّزين في روسيا وبولندا، فكُتب بها أدب شعبي للنساء والعامة في بادئ الأمر، ثم كُتبت بها أعمال أدبية بعضها يرقى إلى مستوى الأعمال الجادة. ولكن هذه المرحلة دامت فترة قصيرة للغاية بسبب اختفاء اليديشية.

وفي محاولة لتفسير وجود لغة أو رطانة أو لهجة خاصة بأعضاء الجماعات اليهودية، يمكن القول بأن كثيراً من الجماعات

اليهودية شكلت جماعات وظيفية وسيطة تضطلع بدور التجارة والربا والأعمال الشبيهة الأخرى، ومثل هذه الجماعات كانت في العادة تربطها بالمجتمع علاقة موضوعية، الأمر الذي تطلَّب خَلْق مسافة بينها وبين المجتمع. واللغة الخاصة تزيد من غربة الجماعة الوظيفية وتزيد تجردها وتحتفظ لها بعزلتها وهو ما يُيسِّر اضطلاعها بدورها الخاص في المجتمع، فجماعات الغجر تتحدث لغة خاصة بهم تماماً كما كان المماليك يتحدثون الشركسية.

أما بالنسبة للغة التأليف الديني، فقد كُتب العهد القديم كُتب بعبرية قديمة اختفت كلغة مُستخدَمة بعد التهجير البابلي، ولذا نجد أن لغة التلمود هي الآرامية بالأساس. ومع هذا، ظلت العبرية لغة المؤلفات الدينية في معظم الأحيان وليس كلها، فوضع هليل وشماي مؤلفاتهما بالعبرية، في حين وضع المفكرون اليهود، في الإسكندرية في العصر الهيليني، مؤلفاتهم الدينية والدنيوية باليونانية. وكان موسى بن ميمون يكتب بالعربية، أما راشي فكان يكتب بالعبرية، وكُتب معظم أدب القبَّالاه الصوفي بالآرامية. وظل هذا الوضع قائماً حتى القرن التاسع عشر، حين بدأ المفكرون اليهود يضعون مؤلفاتهم الدينية بلغة الوطن الأم وحسب. فكتب موسى مندلسون بالألمانية، وكذا مارتن بوبر وكل المفكرين اليهود الإصلاحيين. ويكتب كثير من المفكرين اليهود الآن، مثل جيكوب

نيوزنر في الولايات المتحدة، مؤلفاتهم الدينية باللغة الإنجليزية. بل إن لغة الصلاة عند اليهود الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين أصبحت الإنجليزية، ولا يستخدم العبرية سوى الأرثوذكس.

وفيما يتعلق بالكتابات التي تقع خارج نطاق التفكير الديني من أدب وفلسفة وعلم، والتي قام بوضعها مؤلفون يهود، وهم قلة نادرة حتى القرن التاسع عشر، فقد كانت اللغة منذ البداية لغة الوطن الأم. ففيلون السكندري وضع مؤلفاته باليونانية، وموسى بن ميمون كان يستخدم العربية، وكذلك كان معظم الشعراء اليهود في الأندلس. أما في العصور الوسطى في الغرب، فلم يظهر مؤلفون يهود يُعتد بهم حتى القرن السابع عشر حيث ظهر إسبينوزا، المنشق على اليهودية، الذي كتب مؤلفاته باللاتينية شأنه شأن كثير من الكُتَّاب الغربيين في عصره.

وغني عن البيان أن المؤلفات غير الدينية للمؤلفين من أعضاء الجماعات اليهودية تُكتب كلها في الوقت الحاضر بلغة الوطن الذي يعيشون في كنفه. فيعقوب صنوع (الكاتب المصري اليهودي) كتب بالعربية، وهايني وماركس بالألمانية، وبروست بالفرنسية، ودزرائيلي وسول بيلو بالإنجليزية، بل إن معظم كلاسيكيات الفكر الصهيوني كُتبت بالألمانية أو الإنجليزية. وكان هرتزل لا يعرف العبرية ولا أبجديتها، لكنه حاول في المؤتمر الصهيوني الأول

(١٨٩٧) أن يُدخل البهجة على قلوب الحاخامات الأرثوذكس فنطق ببعض كلمات عبرية كُتبت له بالأبجدية اللاتينية، وكتب فيما بعد (في مذكراته) ملاحظة يقول فيها: "إن محاولتي هذه سببت لي مشقة كبيرة تفوق كل متاعبي في الإعداد للمؤتمر". وكان هرتزل ونوردو وكثير من المفكرين الصهاينة الأوائل، لا يؤمنون بوجود ما يُسمَّى «الثقافة اليهودية». وقد سخر هرتزل من هذا المفهوم بصوت عال حينما طُرح لأول مرة في أحد المؤتمرات. ولم يكن هرتزل يتصوَّر أن تكون العبرية هي لغة الوطن القومي الذي يقترحه، إذ كان يرى أن كل مستوطن يهودي سيتحدث بلغته. وقد نشبت في السنين الأولي من الاستيطان حرب سُمِّيت «معركة اللغة» بين دعاة استخدام الألمانية من أتباع الاستعمار الألماني ودعاة استخدام العبرية من يهود شرق أوربا التابعين للاستعمار الإنجليزي.

واللغة الأساسية ليهود العالم الآن هي الإنجليزية التي يتحدث بها يهود الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا، وهؤلاء يشكلون الأغلبية العظمى من يهود العالم (وهذا يعود إلى ارتباط الجماعات اليهودية في العصر الحديث بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي بشكل عام، والأنجلو ساكسوني على وجه الخصوص)، ثم تأتي العبرية (لغة يهود إسرائيل) في المرتبة التالية، أما اليديشية فقد اختفت تماماً

تقريباً في الولايات المتحدة، وهي آخذة في الاختفاء في روسيا. ولم يَعُد هناك أثر اللادينو.

ويُقال إن تعدد لغات الجماعات اليهودية في شرق أوربا كان سبباً أساسياً في أزمة الهوية التي جابهوها، فقد كانت لغتهم المقدَّسة هي العبرية، ولغتهم القانونية هي الآرامية (لغة التلمود)، ولغة الحديث هي اليديشية، ولغة المثل الأعلى الاندماجي هي الألمانية أو البولندية أو الروسية وأحياناً الأوكرانية، ولغة المثل الأعلى الصهيوني هي العبرية (كلغة حديث لا كلغة عبادة). وكان يقابل هذه الانقسامات اللغوية انقسام طبقي واجتماعي. وساعدت كل هذه الانقسامات على تصعيد الأزمة.

ومع بدايات العصر الحديث وخروج اليهود من الجيتو، وبعد تحديثهم وزوال تميُّزهم الوظيفي، بدأت تختفي هذه الرطانات إذ طالبت الدولة القومية الحديثة أعضاء الأقليات بأن يكون انتماؤهم القومي لأوطانهم كاملاً. وتعرضت اليديشية بالذات لهجوم شديد، خصوصاً أن التجار اليهود كانوا يستخدمونها، وهو ما كان يُسهِّل لهم غش الآخرين. وتظل الصورة اللغوية العامة بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وفيما يختص بالحديث ولغة المعاملات اليومية، هي أنهم يتحدثون من ناحية الأساس لغة الموطن الذي كانوا يعيشون في كنفه.

أزياء اليهود

يستمد أعضاء الجماعات اليهودية خطابهم الحضاري وعاداتهم وتقاليدهم من المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، وهذا يتضح في كثير من الظواهر مثل: الأزياء التي يرتدونها، والأطعمة التي يتناولونها، واللهجات التي يتحدثون بها. خذ، على سبيل المثال، الأزياء. ابتداءً لا يمكن الحديث عن «أزياء يهودية»، وإنما يمكن الحديث عن الأزياء والملابس والثياب التي يرتديها أعضاء الجماعات اليهودية المتعددة والتي تختلف باختلاف المجتمعات التي يعيشون في كنفها، ومن ثم يكون اصطلاح «أزياء الجماعات اليهودية» أكثر دقة وأعلى قدرة على التفسير والتصنيف، فالذي يحدِّد السمات الأساسية لهذه الأزياء المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها. ولا يمكن فهم تحولات وتطوُّر أزياء أعضاء هذه الجماعات إلا في هذا الإطار، وهو أمر طبيعي تماماً. فالأزياء، شأنها شأن اللغة، رموز اجتماعية لا يبتدعها المرء وإنما يتلقاها من المجتمع، وقد يحاول التغيير في بعض التفاصيل (وحينئذ قد يوصف بالأصالة أو بالشذوذ)، لكن الأزياء في نهاية الأمر لغة اجتماعية. وقد كان العبرانيون في مصر يرتدون (علي ما يبدو) أزياء قدماء المصريين، كما ارتدوا أزياء البابليين ثم الفرس وهم في بابل وفارس، وأزياء

اليونان والرومان إبان حكم الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. ولم يختلف زي اليهود المستعربة عن أزياء العرب. ولا نرى يهود الدولة العثمانية يرتدون سوى الزي السائد في زمانهم ومكانهم. وحينما بدأ العثمانيون يرتدون الطربوش ارتدوه، وعندما تخلوا عنه واستعملوا الأزياء الغربية تحولوا بتحوُّلهم. ويرتدي يهود الهند، من الذكور والإناث، الأزياء الهندية المعروفة، كما ارتدى يهود الصين أزياء أهل بلدهم.

ومع هذا، لابد من الإشارة إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية، شأنهم شأن الأقليات والجماعات الدينية والإثنية الأخرى قبل العصر الحديث، لهم بعض الثياب المميَّزة المرتبطة بشعائر دينهم وأعيادهم ومناسباتهم التي لا يشاركون فيها أعضاء الأغلبية. فعلى سبيل المثال، يرتدي أعضاء الجماعة اليهودية من المتدينين (أي الغالبية الساحقة من اليهود حتى أواخر القرن الثامن عشر، وأقلية صغيرة للغاية في العصر الحديث) شال الصلاة (طاليت) وهم في طريقهم إلى المعبد يوم السبت، ويرتدي بعضهم شال صلاة صغيراً تحت ملابسه طيلة الوقت، وإن كانت أغلبية يهود العالم هجرت هذه الممارسات الدينية. وحيث إن قوانين المجتمعات التقليدية كانت مبنية على الفصل الحاد بين الطبقات والجماعات، فإن الأزياء كانت تُستخدَم وسيلةً لتدعيم هذا الفصل، فلا يرتدي

الفرسان زي الفلاحين، ولا يرتدي هؤلاء زي التجار، وهكذا. ولأن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يتركزون عادةً في مهنة واحدة مثل التجارة، فقد كانوا يرتدون زي أهل هذه المهنة حينما يتطلب الأمر اشتغالهم بها. كما أن انتماء الفرد في تلك المجتمعات إلى إحدى الأقليات، خصوصاً إذا كانت الأقلية من الجماعات الوظيفية الوسيطة، كانت تصحبه مجموعة من المزايا والأعباء كما كان الحال في العصور الوسطى في الغرب، إذ كان لابد من ارتداء شارة تميِّزه عن الآخرين. ومن هنا، وُجدت شارة اليهود المميَّزة التي كانت تُعَدُّ ميزة يحصلون عليها ويسعون من أجلها، فهي تَكفُل لهم الحماية وتضمن لهم الإعفاء من جمارك المرور على سبيل المثال. ولكن أحياناً كان يُفرَض على اليهود في العالم الغربي، وعلى غيرهم من أعضاء الأقليات، زي محددٌ لضمان الأمن الداخلي أو كمحاولة للحد من نشاطهم وتضييق الخناق عليهم، خصوصاً حينما يصبح المجتمع بلا حاجة إليهم. ولكنه، في جميع الحالات، لم يكن هناك زي واحد يُفرَض على اليهود في كل زمان ومكان، بل كانت هناك أزياء مختلفة ومتعددة باختلاف وتعدُّد الأماكن والمراحل التاريخية والظروف الاجتماعية والسياسية.

وإذا كنا قد شبَّهنا الأزياء باللغة، فإن بوسعنا الآن أن نشبه أزياء أعضاء الجماعات اليهودية باللهجات التي يتحدثون بها.

فلهجات أعضاء الجماعة اليهودية تنبثق من لغة ما يتبنونها ثم يضيفون إليها بعض العبارات العبرية، ويستمرون في استخدامها حتى بعد أن تتطور اللغة الأصلية، كما حدث مع اليديشية التي هي عبارة عن ألمانية العصور الوسطى نقلها اليهود إلى بولندا واستمروا في استخدامها كما هي (مع أنها تطورت في وطنها الأصلي) وأضافوا إليها كلمات سلافية وعبرية.

وعلى سبيل المثال، فإن الزي الذي يُسمَّى «الكسوة الكبرى»، وهو رداء العروس اليهودية في المغرب، يضم عناصر من أزياء إسبانيا كان أعضاء الجماعة اليهودية قد تبنوها قبل طردهم منها وأضافوا إليها عناصر من أزياء المغرب. وحدث تطوُّر مماثل في أزياء يهود شرق أوربا، فهم يرتدون رداءً طويلاً مصنوعاً من الحرير ذا أكمام طويلة ومفتوحاً من الأمام حيث يُثبَّت بحزام في الوسط ويُسمَّى «كفتان» (من الكلمة العربية «قفطان»). وكان النبلاء البولنديون يرتدونه. ويبدو أن هؤلاء بدورهم كانوا قد نقلوه من الزي الرسمي لدى المغول في القبيلة الذهبية والتي كانت تمثل القوة العظمى في أوربا السلافية. وتطوَّر الكفتان بعد ذلك وأصبح ما يُسمَّى «كابوت». وقد تبنَّى يهود شرق أوربا، إلى جانب ذلك، بعض العناصر الأخرى من رداء النبلاء البولنديين، حيث كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تمثل مصالح هؤلاء النبلاء

في أوكرانيا وغيرها من الأماكن. ومن أهم هذه العناصر قبعة اليرمولك، وهو غطاء الرأس الصغير الذي أصبح السمة المميِّزة لأعضاء الجماعة اليهودية من المتدينين، بل ويرتديه غير المتدينين كذلك باعتباره طقساً من طقوس حفاظهم على هويتهم. ومن الملامح المميِّزة أيضاً لرداء يهود شرق أوربا قبعة خارجية تُسمَّى «الشترايميل». ومن الواضح أنها من أصول سلافية، فهي قبعة ثُبِّت في طرفها ذيول ثعالب، وكانت كثرة عدد الذيول من علامات الثروة. ويذهب آرثر كوستلر إلى أن هذه القبعة كان يرتديها يهود الخزر وأنهم نقلوها عن قبائل الكازاك.

أما النساء، فقد كن حتى منتصف القرن التاسع عشر يرتدين عمامة عالية بيضاء كانت نسخة طبق الأصل من «الجولوك» التي كانت تلبسها نساء الكازاك والتركمان. ومازالت الفتيات اليهوديات الأرثوذكسيات ملزمات، حتى اليوم، بأن يضعن عوضاً عن العمامة البيضاء العالية شعراً مستعاراً من شعورهن ذاتها، ثم ينزعنه عندما يتزوجن.

وقد احتفظ يهود شرق أوربا بهذا الزي بتنويعاته المختلفة. وبقيت لهذا الزي المميَّز وظيفته في مجال عَزْل أعضاء الجماعة اليهودية الوظيفية الوسيطة عن محيطهم (إلى جانب الرموز والأشكال الأخرى مثل اللهجة المميِّزة والعقيدة المختلفة). ولكن، مع

التحولات العميقة في وسط أوربا وشرقها، ورغبة الدولة القومية المركزية في إنهاء عزلة اليهود وغيرهم من الجماعات والأقليات، طُلب إلى أعضاء الجماعة اليهودية التخلي عن هذا الزي وارتداء الأزياء الغربية، وصدرت قوانين تُحرِّم ارتداء أزياء خاصة بالجماعات اليهودية. لكن أعضاء الجماعة اليهودية رفضوا هذا التغيير القسري في بادئ الأمر، قبل أن يندمجوا في نهاية المطاف. ولا يحافظ على زي يهود شرق أوربا سوى الجماعات الحسيدية، وهم قلة صغيرة.

ومنذ عام ١٨٨١ وحتى عام ١٩٣٥، اشتغل كثير من اليهود في تجارة الرقيق الأبيض المشينة، وكان القوادون يرتدون الكفتان حتى أصبح الكفتان والبغاء مرتبطين تمام الارتباط في الذهن الشعبي في الغرب.

وفي الوقت الحاضر، ترتدي الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الأزياء السائدة في مجتمعاتهم ويتبعون آخر الموضات، إن سمح لهم دخلهم بذلك، وهم في هذا لا يختلفون عن معظم البشر في القرن العشرين.

أما في الدولة الصهيونية، فلم يُلاحَظ ظهور زي إسرائيلي أو يهودي خاص، وإن كان يُلاحَظ أنهم يرتدون الصندل (حتى أصبح إحدى العلامات المميِّزة لجيل الصابرا). ولكن ارتداء الصندل ليس

تعبيراً عن هوية يهودية كامنة أو عن أي شيء من هذا القبيل، وإنما هو تعبير عن حرارة الجو في الشرق الأوسط، ومن ثم نجد أن الصندل منتشر في كل دول المنطقة! كما يُلاحَظ أن المضيفات في خطوط العال الإسرائيلية يرتدين زياً قريباً جداً من زي الفلاحات الفلسطينيات!

ولا يُوجَد زي خاص وموحَّد للحاخامات. فحاخامات يهود فرنسا يرتدون زي الوعاظ الهيجونوت، أما في إنجلترا فبعضهم يرتدي زي قساوسة الكنيسة الإنجليكانية، وفي الولايات المتحدة يرتدون الزي الغربي العادي، شأنهم في هذا شأن الوعاظ في كنائس البروتستانت، وفي الدولة العثمانية كان الحاخامات يرتدون زي الشيوخ أي جُبّة وقفطاناً وعنترية وعمامة.

عندما يكره اليهودى نفسه

في الآونة الأخيرة تناقلت وسائل الإعلام المختلفة اسم جورج سوروس، المليونير الأمريكي اليهودي، مصحوباً بانتقادات قوية من جانب بعض الدوائر الصهيونية. فمن هو سوروس هذا؟ سوروس رجل أعمال أمريكي من أصل مجري يهودي، سافر إلى بريطانيا في منتصف الأربعينات حيث تخرج في جامعة لندن، وتأثر بأفكار كارل بوبر، صاحب فكرة المجتمع المفتوح والذي هاجم الدولة القومية بشراسة. ويعتبر سوروس نفسه من أتباع دوكينز،

الفيلسوف الداروينى والاستاذ بجامعة أوكسفورد. وفي أوائل الستينات بدأ سوروس العمل في فرع المقاصة المتخصص بالمضاربات بين مختلف أسواق البورصة، ويقول إنه اكتشف يومها "أن أموالاً كثيرة يمكن الحصول عليها من نقل أموال بين مختلف أنحاء المعمورة نظراً لاختلاف أسعار صرفها بين نقطة وأخرى".

وفي نهاية السبعينات كان سورس قد كون ثروة طائلة جداً، ولكنه لم يصبح مشهوراً إلا عام ١٩٩٢ حين راهن على تراجع الجنيه الإسترليني، فاقترض مبلغاً كبيراً منه لأجل قصير وحوله إلى ماركات ألمانية، وتحقق ما راهن عليه وخرج الجنيه الإسترليني من نظام النقد المالي الأوروبي وفقد ما يزيد على ١٢٪ من قيمته. وكان الفرق ربحاً صافياً لسوروس يعادل المليار دولار. وتبلغ ثروة سوروس حوالي ٧ بليون دولار ويأتي في المرتبة الثامنة والعشرين بين الأكثر ثراء في الولايات المتحدة.

وأثناء الأزمة المالية التي اجتاحت جنوب شرق آسيا عام ١٩٩٧، ألقى رئيس الوزراء الماليزي محاضر محمد باللوم على المضاربين الأجانب الذين يتلاعبون بالأسواق المالية وخاصة سوروس، باعتباره ممولاً يهودياً قاد هذه العملية. غير أن مراجعة تاريخ جورج سوروس تبين لنا أن هذا النموذج التفسيري لا يفيد كثيراً، فقد اعترف هو نفسه، في حديث مع شبكة التليفزيون

الامـريكيـة WNET-TV عـام ١٩٩٣)، أنه تواطأ مع قـوات الاحتلال النازي للمجر أثناء الحرب العالمية الثانية، وساعد على نهب ممتلكات اليهود في المجر مقابل سلامته الشخصية، وهو لا ينكر في أحاديثه أنه يبحث عن الربح ومراكمة الثروة.

إن سوروس هو نموذج جيد للرأسمالي المضارب "غير المنتمي" (فالرأسمالي الحق لا ينتمي إلا لرأسماله وما يحققه من أرباح) الذي لا يتوانى عن جمع الربح من المضاربات في الأسواق المالية، أية أسـواق، ولا يتـورع حـتى عن بيع يهـود المجـر (بني وطنه وعقيدته!) إلى أعدى أعدائهم. وهو جزء من الاقتصاد الفقاعي (بالإنجليـزية: (bubble economy، أو الاقتـصاد المشـتق (بالإنجليـزية: (derivative economy، أي اقـتـصـاد المضاربات الذي لا علاقة له بالعملية الإنتاجية نفسها، ولا يكن احتراماً كبيراً للإنتاج الصناعي أو الدولة القومية. وما يفسر سلوك سـوروس ليس "يهوديته" وإنما انتماؤه لهذا النوع من الاقتصاد. ومن المعروف أن سوروس لا يتبرع بالكثير للمؤسسات اليهودية أو الصهيونية أو الإسرائيلية، وقد فسر ذلك بأن هناك تبرعات يهودية كثيرة للمؤسسات اليهودية ولذلك فهو يوجه تبرعاته لمؤسسات أخرى غير يهودية.

وقد فجر سوروس مؤخراً قنبلة إعلامية أثناء اجتماع لشبكة

المتبرعين اليهود. فحينما سُئل عن "معاداة السامية" (أي معاداة اليهود واليهودية) قال إن سياسات إسرائيل والولايات المتحدة هي التي تسببت في ذلك، وطالب بتغيير النظام السياسي في الولايات المتحدة وأعلن تأييده لاتفاق جنيف، وأعلن عن عزمه تمويل بعض المشاريع في فلسطين (وقد استخدم كلمة "فلسطين" وليس "إسرائيل"!)، بل إنه أشار إلى خطاب محاضر محمد الذي قال فيه إن اليهود يحكمون العالم، واعترف بأن أفعاله هو شخصياً مسؤولة إلى حد ما عن تصاعد معدلات العداء للسامية، وإن كانت مسؤوليته محدودة، فهو لم يعمد إلى ذلك، وإنما كانت نتيجة غير مقصودة لأفعاله (وورلد تليجرافيك ايجنسي ١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٣). وقد سارعت المؤسسة الصهيونية باتهام سوروس بأنه يتقبل القوالب الذهنية الاختزالية المعادية للسامية، وأن رؤيته متحيزة وتبسط الأمور وأن تعليقاته "قبيحة تماماً". ثم أضاف المتحدث الصهيوني قائلاً: "إذا كان سوروس يري أنه ساهم في تصاعد معدلات السامية، فما هو الحل الذي يطرحه، هل يتنازل عن ثروته؟ هل عليه أن يغلق فمه؟". ورغم هذا الهجوم، فقد لزمت المؤسسة الصهيونية الصمت بعد ذلك، لأنها تطمع في تبرعات سوروس.

وقد وصف أحدهم سوروس بأنه تعبير عن ظاهرة معاداة

وظاهرة كُره اليهود للسامية Jewish Anti-Semitism
اليهودي لنفسه Jewish Self-hate، وهي مصطلحات كانت شائعة من قبل ولكنها توارت ولا تظهر إلا في الحالات الاستثنائية، فهي تُستخدم ضد نعوم تشومسكي وغيره من العلماء اليهود الغربيين الشرفاء الذي يرفضون المشروع الصهيوني. والمصطلحان متداخلان تماماً، فاليهودي الذي يعادي اليهود واليهودية يستخدم الصور الإدراكية النمطية السلبية العنصرية ويطبقها على أعضاء الجماعات اليهودية وعلى نفسه، فيراهم باعتبارهم مرابين وطفيليين غشاشين ومنحلين، يدمرون المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه بدلاً من الاندماج فيه. واليهودي الذي يكره نفسه، شأنه في هذا شأن الصهاينة وأعداء اليهود، يؤمن بوجود جوهر يهودي ثابت، لا علاقة له بالمواضعات التاريخية والاجتماعية، كما يؤمن بوجود صفات يهودية ثابتة وخصوصية يهودية لا تتغير، وبأن هذه الصفات هي التي تعوق اليهودي عن الاندماج الكامل في عالم الأغيار وهي سبب شقاء اليهود، ومن ثم فاليهود مسؤولون عما يحدث لهم.

وقد تفاقمت ظاهرة كُره اليهودي لنفسه بين يهود أوروبا حين ضعف انتماؤهم الديني واكتسحهم التيار الاندماجي العلماني، فصبوا جام غضبهم على الجيتو اليهودي الفعلي والعقلي وعلى

أهلهم وعلى أنفسهم. وانتشرت هذه الظاهرة بشكل واضح بين اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، خاصة بعد تدفق يهود أوروبا الشرقية على بلادهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فهددوا مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية.

ويتبدى كُره اليهودي لنفسه في عدة أشكال، منها محاولة إخفاء الأصول، وحرص بعض اليهود على عدم الإنجاب كلية حتى لا يزيد عدد اليهود، بل إن بعضهم يضع حداً لحياته بالانتحار. وقد يكون التنصر للحصول على تأشيرة دخول إلى الحضارة الغربية (على حد قول الشاعر الألماني هايني) تعبيراً عن الظاهرة نفسها.

وقد يأخذ كره اليهودي لنفسه شكل إعداد المشاريع المختلفة لإبادة اليهود والتخلص منهم. ويُقال إن هتلر نفسه كان طفلاً غير شرعي لأب يهودي، ومن المؤكد أن أدولف أيخمان، الذي أرسل بمئات الألوف من اليهود إلى معسكرات الاعتقال والإبادة، كانت تجري في عروقه دماء يهودية.

ولكن هل يمكن وصف ما قاله سوروس بأنه تعبير عن كره اليهودي لنفسه، أم أنه محاولة جادة لتفسير بعض جذور ظاهرة معاداة اليهودية؟ فبدلاً من القول الصهيوني الأبله بأن سبب تفشي ظاهرة معاداة اليهود هو كره الأغيار الأزلي لليهود، يحاول

سورس أن يحدد الجذور التاريخية والاجتماعية والسياسية الحقيقية لهذه الظاهرة، ويشير بأصابع الاتهام إلى إسرائيل والولايات المتحدة، أي أنه يخرج بظاهرة معاداة اليهود من النطاق النفسي والميتافيزيقي ويدخل بها في نطاق التاريخ. وقد تختلف مع سوروس أو تتفق معه، ولكن لا يمكن اتهامه بالعنصرية أو بكره اليهود أو نفسه، فكل ما قام به هو محاولة لتفسير ظاهرة آخذه في التفشي. ومحاولة التفسير بالنسبة للصهاينة- كما بينا في مقال سابق- أمر مرفوض، فالمطلوب هو أن تبقى كل الظواهر اليهودية داخل جيتو مقدس لا يمسه أحد.

صهيونية ضد اليهود واليهودية

في إطار سعيهم للحصول على الشرعية والتأييد الجماهيري في أوساط الجماعات اليهودية في أوروبا، حاول رواد الحركة الصهيونية إضفاء صبغة دينية على الأفكار الصهيونية، بحيث تبدو وكأنها امتداد لليهودية وليست نقيضاً لها. ومن جهة أخرى، حاول هؤلاء الرواد استغلال مشاعر المعاناة والإحباط لدى الجماهير اليهودية، والتي ساهمت في تفاقمها جملة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المرتبطة بعملية التحديث والتحول الرأسمالي في أوروبا.

وهكذا، لجأت الصهيونية إلى تبني الرموز والأفكار الدينية

المألوفة، فصورت مسعاها الاستعماري باعتباره تحقيقاً لوعد إلهي، ومن ثم أضفت عليه صفة القداسة والحتمية، ووظفت المقولات التوراتية عن "الشعب اليهودي المختار" وعن "العودة إلى صهيون" كمسوِّغات للمشروع الصهيوني المتمثل في اغتصاب فلسطين وإقامة كيانٍ قوميٍ يهودي فيها يكون بمثابة قاعدةٍ لخدمة مصالح القوى الاستعمارية الكبرى. وفي الوقت نفسه، قدمت الصهيونية نفسها باعتبارها حركةً لإنقاذ اليهود واليهودية من التشويه الذي لحق بهم وبها في الشتات، ومن الاضطهاد الذي تكابده الجماعات اليهودية على أيدي غير اليهود.

ومع ذلك، فمن الواضح أن المنطلقات النظرية للصهيونية والحلول التي اقترحتها لحل ما عُرف باسم "المسألة اليهودية" في أوروبا شكلت نقاط التقاءٍ مع نزعات معاداة اليهود، بل وتطور هذا التطابق في بعض الأحيان إلى تعاونٍ عملي وثيق، كما هو الحال في ظل الحكم النازي لألمانيا.

وتتواتر عبارات العداء لليهود واليهودية في كتابات الرواد الصهاينة وتصريحاتهم. فعلى سبيل المثال، يرى موسى هس أن العقيدة اليهودية كارثة لا مفر منها، ولذا فعلى اليهودي أن "يتحمل نير مملكة السماء حتى النهاية". ويذهب هس إلى القول باستحالة

اندماج الجماعات اليهودية في الشعوب الأوروبية لأنهم يشكلون "شعباً منبوذاً ومُحتقراً ومُشتتاً، شعباً هبط إلى مرتبة الطفيليات التي تعتمد في غذائها على الغير، شعباً ميتاً لا حياة له".

وكان هرتزل يؤكد على أن رؤيته الصهيونية ليست لها أية مرجعيةٍ دينية، ويجاهر قائلاً "إنني لا أخضع لأي وازع ديني". وقد تعمَّد هرتزل انتهاك الشعائر الدينية اليهودية حين زار مدينة القدس، لكي يؤكد أن حركته لا تنبع من أية منطلقاتٍ دينية تقليدية. ولا يخفي هرتزل الترابط الحتمي بين الصهيونية ومعاداة اليهود في العصر الحديث، فهو يشير في مذكراته إلى أنه كان متفقاً مع صديقه ماكس نوردو على أن "معاداة السامية" هي وحدها التي جعلت منهما يهوداً. وفي موضعٍ آخر يؤكد أن وجود هذا العداء أمر ضروري للمشروع الصهيوني، باعتباره "البخار المحرك" لانطلاقه.

ولم يتورع ماكس نوردو، الذي خلف هرتزل في زعامة "المنظمة الصهيونية"، عن إعلان إلحاده والتعبير عن شعوره بالاشمئزاز من المبادئ الأخلاقية والفلسفية التي ساقتها التوراة، فكان يرى أن "التوراة طفولية بوصفها فلسفة، ومقززة بوصفها نظاماً أخلاقياً". كما تنبأ نوردو بأنه سيأتي يوم يحل فيه كتاب هرتزل دولة اليهود

محل التوراة، باعتباره كتاباً مقدساً. وهو يتفق مع هرتزل في أن معاداة اليهود ظاهرة طبيعية وعادلة.

أما دافيد بن جوريون، فكان يرى أن التوراة ليست سوى كتابٍ للحكايات والمأثورات الشعبية، وأن "الجيش هو خير مفسر للتوراة". بل ومضى إلى أبعد من ذلك مؤكداً أن "الحياة لو تُركت للحاخامات لظل اليهود حتى الآن كلاباً ضالة في كل مكان يضربهم الناس بالأقدام". ولم يقف بن جوريون عند طرح هذه الأفكار بل عمل على تحويلها إلى واقعٍ ملموس في أوساط المستوطنين الأوائل، كما أصر على "عقد قرانه في حفلٍ مدني في نيويورك، وظل لفترةٍ طويلة يرفض من حيث المبدأ إتمام الزواج وفقاً للشعائر الدينية".

ويشير الكاتب الصهيوني ريتشارد كروسمان، في كتابه أمة تُبعث من جديد: إسرائيل في رؤية وايزمان وبيفن وبن جوريون (١٩٦٩)، إلى أن صداقته مع حاييم وايزمان، أول رئيس لدولة "إسرائيل"، لم تبدأ إلا عندما اعترف له بأنه "معادٍ للسامية بالطبع"، وقد علق وايزمان على ذلك مؤكداً أنه لو قال كروسمان غير ذلك لكان إما يكذب على نفسه أو على الآخرين. أما وايزمان نفسه فكان "يتلذذ" بمضايقة الحاخامات بإصراره على تناول

الطعام غير المباح شرعاً، حسبما روى كروسمان في كتابه.

وكان الكاتب الصهيوني جوزيف برينر أكثر وضوحاً في عداءه لما أسماه "الشخصية اليهودية المريضة"، وتبدو الأوصاف التي يطلقها على اليهود متطابقةً إلى حدٍ بعيدٍ مع ما يردده أشد المعادين لليهود. فهو يقول، مثلاً، "إن مهمتنا الآن أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا، وبكل نقائص شخصيتنا". واليهود في نظره يودون الحياة "كالنمل والكلاب" أو "كالكلاب والمرابين"، فهم "شعب لا يعرف سوى الأنين والاختفاء حتى تهدأ العاصفة، يدير ظهره لإخوانه الفقراء، ويكدس دراهمه، ويتجول بين الأغيار ليؤمن معيشته بينهم، ثم يقضي نهاره يشكو من سوء معاملتهم له".

والملاحظ أن الرؤية الصهيونية، التي تعكسها تلك الكتابات والأقوال، تستند إلى نفس الأسس التي تقوم عليها نزعات معاداة اليهود واليهودية. فنقطة الانطلاق الأساسية عند الطرفين هي أن ثمة "طبيعة يهودية" تميز اليهود عن غيرهم من البشر، وهي طبيعة ثابتة لم يطرأ عليها أي تغيير على مر التاريخ، ولا تختلف باختلاف السياق الحضاري والثقافي الذي يتواجد فيه "اليهودي"، أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي الذي يتبوأه. ومن ثم فلا فرق بين يهود

اليـمن في القـرن الثـامن عـشـر، مـثـلاً، ويهـود الولايات المتـحـدة الأمريكية في أواخر القرن العشرين، أو بين عنصري إرهابي مثل مناحم بيجين ومفكر مناهض للصـهيونية مثل ناعوم تشومسكي. ويؤدي ذلك بدوره إلى الحـديث عن "وحـدة يهـودية" تشـمل كل الجماعات اليهودية في كل زمانٍ ومكانٍ. وبالمثل، فإن ثمة "تاريخاً يهودياً" مستقلاً عن تاريخ البشرية، وهو تاريخ متصل يسير على وتيرةٍ واحدةٍ ولا يعرف الانقطاع، وجوهره هو "تفرد اليـهود"، من جـهةٍ، و"العداء الأزلي الذي يكنه الأغيـار لهم"، من جـهةٍ أخرى. وأمام وضعٍ كهذا، يصبح اندماج هؤلاء اليـهود في مجتمعاتهم مستحيلاً، ويصبح من الضروري التخلص منهم إما بعزلهم خلف أسوار الأحياء المغلقة (الجيتو)، وإما بتهجيرهم إلى أرضٍ ما خارج أوطانهم، حتى وإن استدعى ذلك اقتلاع أصحاب هذه الأرض الأصليين، وإما بالقضاء عليهم فعلياً كما هو الحال في التجربة النازية.

وهكذا، فإن كلاً من الرؤية الصـهيونية والنزعة المعادية لليهود تبدأ من نفي التاريخ وإلغاء الزمان والمكان، وتنتهي إلى نفي اليهود وإلغاء وجودهم.

الفصل الثالث
خرافة الشخصية اليهودية

الشخصية اليهودية واللذة

يدَّعي الصهاينة أن «الشخصية اليهودية» لها خصوصيتها وفرادتها، فاليهود يتسمون بكذا وكذا، ثم يأتون بقائمة من الفضائل التي يختارونها حسب الجمهور المخاطب. فإن كان الجمهور من العسكريين، فإن اليهود يتسمون بالقدرة على القتال وتحمل شظف العيش، أما إذا كان من دعاة السلام فإن اليهود حمائم يكرهون بطبيعتهم منظر الدم. ورغم التناقض الظاهر بين المنطقين فإنه يفترض أن الشخصية اليهودية لها سمات ثابتة تجعل هذه الشخصية بمنأى عن التحولات الناجمة عن تغير المكان والزمان، لكن مثل هذا التصور وهم يفرز الأكاذيب. خذ، على سبيل المثال، الشخصية اليهودية في إسرائيل. فقد ذهب الصهاينة إلى أن الإسرائيليين يحملون لواء أفكار رومانسية مثل العمل العبري، أي أن يعمل اليهودي بيده في الأرض التي يغزوها، وأنه يجب أن يقاتل بنفسه ولا يدع أحد يحرسه، وهكذا. وبالفعل، كان المستوطنون الأوَل يحيون حياة متقشفة امتدت منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧، حيث كانوا يزرعون ويأكلون وينظمون أنفسهم تنظيماً عسكرياً صارماً تحسباً لهجوم السكان الأصليين عليهم بعد الاستيلاء على أرضهم وإبادة البعض منهم. وقد واكب ذلك ضبط للنفس وإنكار للذات، بل التضحية بها.

ولكن (ويالها من لكن) كان كل هذا يتم، منذ البداية، باسم الهدف النهائي والقيمة المرجعية النهائية، أي تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما كان يتم من إرجاء للإشباع وتقشف حاد كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، خاصةً وأن المستوطن الصهيوني (رغم كل الادعاءات الأيديولوجية) قد اقتُلع من وطنه واستوطن في أرض مغتصبة بحثاً عن الحراك الاجتماعي والرفاهية الاقتصادية.

وحينما حققت إسرائيل انتصاراً عام ١٩٦٧، أي بعد نحو ٢٠ عاماً وحسب من تأسيس الدولة، تفجرت الرغبات الاستهلاكية وزاد النزوع نحو اللذة وارتفعت التوقعات وانخفضت المقدرة على التحمل إذ شعر المستوطنون الصهاينة أن المرحلة التقشفية قد انتهت وأن الوقت قد حان لدخول مرحلة الاستهلاك والسلع المستوردة، وهذا يعني أن ارتفاع معدلات العلمنة في المجتمع أدَّى إلى اكتساح القيم، والمطلقات كافة، ومعها المطلق الصهيوني نفسه وسائر آليات ضبط النفس التي تتم في إطاره، وذلك قبل أن يضرب المجتمع بجذوره وقبل أن يؤسِّس بنيته التحتية. ولهذا، تزايدت معدلات الأمركة في المجتمع، وضَعُفت مقدرة المستوطنين على تحمُّل المشاق. ومع تَفجُّر الانتفاضة تصاعدت حدة أزمة المجتمع الصهيوني.

لكل هذا تغيُّرت الأنماط الإدراكية في المجتمع، فتراجع نموذج

"الكيبوتسنيك" (عضو الكيبوتس) المتقشف المحارب، وظهر نموذج "روش قطان"، أي المواطن ذو الرأس الصغير والمعدة الكبيرة، الاستهلاكي الرخو، وظهر مجتمع ما يُسمى "٣ في": الفولفو والفيديو والفيلا.

ومما يساعد على تفشي النزعة الاستهلاكية ظاهرة الأمركة، والأمركة هي أسلوب حياة جوهره اتخاذ موقف برجماتي ينصرف عن الكليات والمبادئ ليركز على التفاصيل وحل المشاكل المباشرة، ويعتمد العنف آلية أساسية من آليات حل الصراع، ويركز بالدرجة الأولى على الفرد وعلى تأكيد ضرورة الإشباع الفوري.

والأمركة مرتبطة تمام الارتباط بالعولمة التي لها نفس الأثر في التجمُّع الصهيوني، فالإنسان الذي يفقد جذوره الإثنية والدينية يميل بشكل أكبر نحو الاستهلاك، لأن استهلاك السلع يصبح السبيل إلى تحقيق الفردوس الأرضي. وفي إطار العولمة، تصبح السلع العالمية (أي الأمريكية) هي رمز هذه الجنة الجديدة.

• وهذه الظواهر موجودة في كل المجتمعات ولكن أثرها السلبي أعمق في التجمُّع الصهيوني لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعي إلى أيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفقري.

ويرتبط بكل هذا الاتجاه نحو الخصخصة، فالخصخصة تعني أن نقطة البدء هي الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردي

يسبق المشروع القومي. ومثل هذا الموقف يزيد بغير شك حدة السعار الاستهلاكي. وللخصخصة أعمق الأثر في التجمُّع الصهيوني، فهو تجمُّع استيطاني لابد أن ينظم نفسه تنظيماً جماعياً ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام مقاومة أصحاب الأرض. ولا شك أن كون المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين يعني أن هناك دائماً جماعات بشرية جديدة تفد على المجتمع وتصعد من سعاره الاستهلاكي.

وفي هذا الإطار وُلِدت الحساسية الجديدة لدى الشباب الإسرائيلي. فهو - على حد قول المعلق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس - لا يفكر إلا في ذاته. والأيديولوجية الصهيونية لا تعني الكثير بالنسبة له، فهو منخرط في حياته اليومية وفي مجتمعه المترف الذي لم تشهده إسرائيل في أي وقت سابق. لقد أصبحت النزعة الفردية وكذلك النزعة المادية هما المسيطرتان على المجتمع الإسرائيلي. وتحولت إسرائيل من بلد كان يقدس الجماعية إلى بلد يقدس الفردية، ومن بلد تتحد كل صفوفه لتطبيق المشروع الصهيوني إلى بلد تغذيه الفردية والمادية من كل جانب.

التحولات فى الشخصية اليهودية

أدت التحولات التي طرأت على شخصية المستوطنين الصهاينة في فلسطين إلى تآكل وتراجع كثير من المفاهيم الصهيونية،

ويتضح ذلك على وجه الخصوص في الموقف من الاستيطان ومن الخدمة العسكرية.

تساقط المفهوم القديم للاستيطان.

تآكل المفهوم القديم للمستوطن الصهيوني باعتباره رائداً يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى، وظهر نوع جديد من المستوطنين الذين يبحثون عن الحراك الاجتماعي وعن رفع مستوى معيشتهم، ولهذا يُلاحظ أن المستوطنات الجديدة في الضفة الغربية مختلفة عن المستوطنات القديمة، فلا يوجد فيها أي مظهر من مظاهر التقشف وإنما توجد فيها منازل فاخرة وحمامات سباحة وكل أشكال الرفاهية، ولا تأخذ الدعوة إلى الاستيطان فيها شكل شعارات دينية أو حتى شبه دينية ولا أيديولوجية (أو حتى شبه أيديولوجية) وإنما هي دعوة سافرة للاستهلاك، فأحد الإعلانات عن أماكن للسكنى في إحدى المستوطنات في الضفة الغربية يتحدث عن فيلا واسعة، في موقع جميل، بنصف ثمن الفيلات المماثلة داخل حدود عام ١٩٦٧ ولكنها مع هذا تقع على بُعد ثلاثين دقيقة من وسط القدس ونتانيا وتل أبيب! أي أنه أوكازيون واستيطان في نفس الوقت، أو استيطان بالتقسيط المريح.

ولا يقوم المستوطنون بحراسة هذه البيوت الاستيطانية الفارهة، إذ يتولى الجيش الإسرائيلي هذه المهمة بالنيابة عنهم،

وبدلاً من أن تكون المستوطنات هي المواقع العسكرية الأمامية للجيش الاستيطاني الصهيوني، أصبحت المستوطنات تشكل عبئاً عسكرياً عليه. ولهذا أطلقت على هذا النوع من الاستيطان »الاستيطان مكيف الهواء«، وهو يعكس واقع الحياة في إسرائيل أكثر من الشعارات الصهيونية الكاذبة التي تطلقها أبواق الصهيونية)والتي يصدقها بعض العرب). ومما فاقم الوضع وصول ما يقرب من مليون مهاجر من الاتحاد السوفيتي ليس لديهم انتماء يهودي)ديني أو إثني) ولا حتى انتماء أيديولوجي صهيوني، فهؤلاء هاجروا لأسباب نفعية واضحة (ولذا نحت مصطلح »الصهيونية النفعية« أو »صهيونية المرتزقة« لوصف دوافعهم)، ولو سنحت لهم الفرصة للهجرة إلى الولايات المتحدة لفعلوا. وقد كوَّن هؤلاء حزباً سياسياً ممثلاً في الوزارة الإسرائيلية، وبرنامجه السياسي مكرس تماماً لخدمة المهاجرين السوفيت دون أية توجهات أيديولوجية.

الخدمة العسكرية.

غرس الاستعمار الغربي عدداً من الجيوب الاستيطانية في أفريقيا وآسيا، وذلك لاستيعاب الفائض البشري في القارة الأوربية، ولكي تكون قواعد للدفاع عن المصالح الغربية في هاتين القارتين. وينتمي الجيب الاستيطاني الصهيوني لهذا النمط، فقد

أُسِّس ليستوعب الفائض البشري اليهودي ولوضع حل للمسألة اليهودية، وحتى يقوم في الوقت نفسه بحماية المصالح الغربية نظير الدعم العسكري والسياسي والمالي الذي يقدمه له الغرب. والواقع أن الجيوب الاستيطانية تفرض على سكان آسيا وأفريقيا بحد السلاح الغربي، ولهذا يستند وجودها إلى القوة العسكرية التي تحاول طرد السكان الأصليين أو قمعهم لتحقيق الحد الأدنى من الطمأنينة لجماهير المغتصبين. والقوة العسكرية الصهيونية تنتمي لهذا النمط، وقد أحرزت قدراً لا بأس به من النجاح والشرعية أمام جماهير المستوطنين.

وكانت العسكرية الصهيونية قد نجحت في أن ترسخ في وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب، بل إن الأيديولوجية الصهيونية تجعل اليهود شعباً مختاراً (بالمعنيين الديني والعلماني) وتخلع القداسة على كل ممتلكات الدولة، وبخاصة حدودها، كما تخلع القداسة على الجيش، حتى أنه وُصف بأنه القداسة بعينها. وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه "خير مفسر للتوراة"، فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل. ومن ثم اكتسبت الخدمة العسكرية قداسة خاصة. وإلى جانب هذا، كانت الخدمة العسكرية السبيل للدخول في النخبة الحاكمة، ففي المجتمع

الاستيطاني لابد أن يدفع الفرد ضريبة الدم ليصبح جديراً بالاشتراك في الحكم وصنع القرار. ولذا كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلي بنجاح شديد، عن طريق التوجه إلى حسِّهم الأخلاقي والقومي والديني، ورغبتهم في البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة، وباعتبار أن العرب يهددون البقاء الإسرائيلي نفسه. ومما دعَّم كل هذه الادعاءات انتصارات إسرائيل المتتالية الحاسمة التي ضمنت للمستوطنين البقاء وتدفق المعونات من الخارج واستمرار الأساطير الصهيونية.

وحتى فترة قريبة، كان التطوع في صفوف قوات النخبة (وحدة المظليين) يعتبر من الأعمال المرموقة، حتى أن هذه القوات كانت تضطر في الماضي إلى الاعتذار لعدد من الراغبين في التطوع لوجود ما يكفيها من العناصر. وقد تم في الماضي تسجيل حالات انتحار من جانب الشباب الذي كان لا يستطيع الالتحاق بالقوات المسلحة.

غير أن هذا الوضع تغيَّر، ولُوحظ مؤخراً انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية بل والفرار منها. فأشار إسحق مردخاي (أحد وزراء الدفاع السابقين) إلى أنه طرأ انخفاض حاد على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية في صفوف الشباب الإسرائيلي.

وفي إحصاء عام ٢٠٠٠، تساءل أحد كبار الضباط عن شرعية قيام الجيش بالتجنيد الإلزامي في وقت لا يتم فيه تجنيد ٢٠٪ من الشباب ويهرب فيه حوالي ٢٠٪ - ٢٥٪ أثناء الخدمة (ملحق صحيفة هآرتس، ٢٦مايو/أيار ٢٠٠٠). وفي أحد استطلاعات الرأي صرَّح ثلث الشباب الإسرائيلي بأنه لو أتيحت لهم الفرصة لتجنب الخدمة العسكرية الإجبارية (التي تستغرق ثلاث سنوات) لفعلوا ذلك. ويعتمد الجيش الإسرائيلي على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالي ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة شهر (حتى سن الخمسين) لإعادة تدريبهم. وقد لوحظ أن حوالي الثُلث يتغيبون. ويطلقون الآن في إسرائيل على الذين يؤدون خدمة الاحتياط الكلمة العبرية »فرياريم« والتي تعني »البُلهاء«. وأثناء الصدام الذي وقع بين الجيش الإسرائيلي وسكان نابلس في سبتمبر ١٩٩٦، استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠ فلم يحضر سوى ٦٠جندياً، ولم يبق منهم سوى ثلاثين. وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية.

وقد نشرت صحيفة هآرتس في ملحقها الذي سبقت الإشارة إليه إحصاءات دقيقة عن هذا الموضوع:

في عام ١٩٩٨ أعرب ٦٥٪ من البنين ممن تتراوح أعمارهم

بين ١٣ سنة و١٨ سنة عن استعدادهم للخدمة في الوحدات القتالية، أما في عام ٢٠٠٠ فقد هبطت النسبة إلى ٥٣٪.

وفي عام ١٩٩٨ أعلن ٢٣٪ تفضيلهم للخدمة بالقرب من منازلهم، أما في عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٣٤٪.

وفي عام ١٩٩٨ أعلن ١٪ من الذكور فقط أنهم لا يرغبون في أداء الخدمة، أما في عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٦,٢٪.

وكلما ارتفعت أعمار المشاركين في الاستطلاع - أي كلما كانت مسألة الخدمة العسكرية أقل نظرية وأكثر واقعية - أصبح موقفهم أكثر سلبية. فعلى سبيل المثال، أعلن ٥,٥ ٪فقط من الأبناء الذين تتراوح أعمارهم بين ١٣ سنة و١٤ سنة عن رغبتهم في عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية في مقابل ٦,٦٪ من الأبناء الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧ سنة و١٨ سنة.

بالنسبة للذكور ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣ سنة و١٤ سنة، أعرب ٥٥,٨٪ ممن شملهم الاستطلاع عن رغبتهم في أداء الخدمة بوحدة قتالية في مقابل ٤٧,٩٪ فقط من الذكور ممن تراوحت أعمارهم بين ١٧ سنة و١٨ سنة.

اتضح أنه كلما كان المستوى الاجتماعي والاقتصادي لمن شملهم الاستطلاع منخفضاً كلما كان الدافع لديهم منخفضاً جداً. فقد أبدى أقل من ٣٠٪ ممن يعتبرون من الطبقة الاجتماعية

والاقتصادية ذات المستوى المنخفض رغبتهم في أداء الخدمة بوحدة قتالية في مقابل أكثر من ٦٥٪ ممن يعتبرون من الطبقة العليا.

وقد ظهرت حركة شبابية في إسرائيل تسمَّى «مظهر جديد» (New Profile) وهي حركة مستقلة تأسست في أكتوبر ١٩٩٨ وهدفها العمل على إلغاء التجنيد الإلزامي. وتقوم الحركة بعقد ندوات للشباب حول قضية الخدمة العسكرية وعمل تجمعات احتجاجية من أجل رافضي الخدمة. كما أن أعضاء هذه الحركة يساعدون الشباب الراغب في الامتناع عن أداء الخدمة أو في التسريح من الجيش، سواء كان ذلك لأسباب تتعلق بالوضع الاقتصادي لأسرهم أو لأسباب أيديولوجية أو لمجرد عدم الرغبة في الخدمة. ويزعم أعضاء هذه الحركة أن أفكارهم نالت تأييداً كبيراً خلال العامين والنصف الماضيين. فحينما أُسِّست الحركة كان بها حوالي ١٥٠ عضواً، ولكنها تضم الآن مئات الأشخاص مما يدل على أن المزيد من الأشخاص أصبحوا يتقبلون الرغبة في عدم الانخراط في الجيش. وكدليل على شرعيتهم المتزايدة، يشير عدد من أعضاء الحركة إلى أن إحدى المشتركات في أنشطة الحركة هي روني بن عامي قرينة شلومو بن عامي (وكان من أهم الوزراء في حكومة باراك).

وهذا كله يعني أن الظاهرة لم تستقر بعد، وأن المنحنى آخذ في التصاعد، وهذا يثير إشكالية كبيرة بالنسبة للجيب الاستيطاني الصهيوني، ذي المهمة القتالية، وخصوصاً مع اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة.

وتُعتبر ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية ظاهرة خطيرة في أي مجتمع، وتزداد خطورتها في مجتمع استيطاني يتهدده السكان الأصليين، ويواجه مشكلة أمنية في علاقته بجيرانه، وأوكل له مهمة قتالية من قِبَل أولياء نعمته. ومع هذا، يجب أن نشير إلى أن القضية، رغم خطورتها، لم تُطرح في المجتمع الإسرائيلي على نطاق واسع لأسباب عملية، منها أن الجيش الإسرائيلي يفضل أن يستبعد مثيري المشاكل ويتركهم وشأنهم حتى لا تُثار القضية وحتى لا يناقشها الرأي العام. وبينما كان الجيش ينشر في الماضي استطلاعات الرأي الخاصة بالرغبة في الخدمة في الوحدات القتالية في الجيش، نجد أنه توصل الآن إلى نتيجة مفادها أن كثرة النشر حول انخفاض الدافع له أثر سلبي واضح، ولذا آثروا الصمت.

ويبدو أن الأمراض النفسية من أهم أسباب الإعفاء من الخدمة العسكرية. ويشير اللواء فينو عام لاوفر إلى أنه لو أقيمت عيادة نفسية تضم ١٠ أطباء فإنه بعد فترة سيكون عندهم من الحالات

النفسية الكثير والكثير. هذا يعني أن الأمراض النفسية يتزايد في إسرائيل ومن ثم الإعفاءات العسكرية. ولكن اللواء يسارع بنفي ذلك بقوله "إن القدرة التشخيصية للأمراض النفسية)وليس الأمراض النفسية ذاتها) قد تزايدت"، ومن ثم فهو يرى أن العيادات النفسية الكثيرة لا ضرورة لها. واللواء لاوفر له مطلق الحرية في أن يفسر الأمور كما يراها هو، ولكن ما أتى به من حقائق تحتمل تفسيرات أخرى غير التي أوردها، ولعل أقربها للواقع أن حالة الحرب المستمرة التي يعيشها المستوطن الصهيوني أمر لا يتحمله الجهاز العصبي للإنسان، ولذا تتزايد الأمراض النفسية، وهو الأمر الذي تؤيده كثير من الدراسات العلمية.

الجريمة والشخصية اليهودية

تدعي الصهيونية أن يهود المنفى شخصيات هامشية طفيلية، ولذلك فهم يتجهون نحو السلوك غير السوي بما في ذلك السلوك الإجرامي. وقد ادعت الصهيونية أنها قادرة على وضع حد لكل ذلك بتهجير اليهود من أوطانهم (والتي يطلقون عليها اسم "المنفى" أو الشتات) إلى "وطنهم الحقيقي" في فلسطين، وهناك سيصبح اليهودي شخصية مبدعة منتجة، شخصية سوية نفضت عن نفسها سمات الهامشية والشذوذ التي وُسِمَت بها في "المنفى".

ولكن من المفارقات التي تستلفت النظر أن الشاعر الصهيوني

نحمان بياليك قال إن الدولة الصهيونية ستصبح دولة عادية طبيعية ("دولة عبرية" حسب قوله) حين يصبح هناك "بغي عبرية"، و"شرطي عبري"، أي أن تطبيع اليهود من وجهة النظر الصهيونية، هي أن يصبح اليهود قادرين على ارتكاب الجرائم بشتى أنواعها، بشكل طبيعي وعادي، أي أن الصهيونية تعد بأن تنقذ اليهود من الجريمة وأن تتيح لهم سبل ارتكابها بشكل طبيعي في ذات الوقت. فماذا حدث في الدولة الصهيونية في هذا الصدد، وما هو شكل تطبيع اليهود الذي تحقق؟

إذا ما طالعنا موسوعة الصهيونية وإسرائيل)من وضع رافييل باتاي) وجدنا بعض الإحصاءات عن معدل الجريمة في فلسطين قبل وبعد إنشاء الكيان الصهيوني. فقد جاء في المدخل المعنون "الجريمة في إسرائيل" أنه في الفترة بين عام ١٩٤٥)انتهاء حكومة الانتداب البريطاني) وعام ١٩٦٠ زاد معدل الجريمة بين المستوطنين الصهاينة عن ٥٠ بالمئة، أي أن "الشخصية اليهودية" لم تعد شخصية خصبة غير سوية، بل أصبحت شخصية سوية، وقلب الهرم اليهودي الإنتاجي كان يعني أن يقوم المستوطنون بالأعمال السوية الإنتاجية، وأن يحقق المستوطن الصهيوني ذاته من خلال الإنتاج لا من خلال التسول والسمسرة. ولكن ما حدث هو العكس (كما سنبين فيما بعد).

ويمكن تقسيم تاريخ الجريمة داخل التجمع الصهيوني إلى عدة مراحل:

المرحلة التي سبقت إنشاء الكيان الصهيوني، وهي التي يُطلق عليها مرحلة الريادة، وتتسم بانخفاض معدل الجريمة بين المستوطنين الصهاينة، نظراً لتركز كل الجهود على تحقيق الهدف الصهيوني المتمثل في إقامة كيانٍ ليهود العالم على أرض فلسطين (كما بينت الموسوعة الصهيونية).

المرحلة الممتدة من بعد إنشاء الكيان الصهيوني حتى عام ١٩٦٧، وهي مرحلة كانت تتسم بالتقشف والانضباط النسبي داخل المستوطن الصهيوني، إذ كان الصهاينة لا يزالون يبنون كيانهم، وكانوا يحولون المؤسسات الاستيطانية إلى مؤسسات حكومية (ولكن هذه المرحلة ذاتها شهدت بدايات ظهور الجريمة، فقد اشتغلت بعض العصابات بتهريب المواد الغذائية، ولكن بعد رفع القيود عن المواد الغذائية كانت الجريمة قد ضربت بجذورها).

المرحلة التي تمتد من عام ١٩٦٧إلى عام ١٩٧٣، وهي المرحلة التي شهد فيها الكيان الصهيوني رخاءً غير عادي نتيجةً لضم الأراضي العربية وتدفق رؤوس الأموال الغربية والمساعدات من الخارج، كما شهد أيضاً تضخم المؤسسة العسكرية وحصولها على كثير من عقود المباني واشتغال ضباط الاحتياط بالأعمال الرأسمالية، وقد

تسبب ذلك في زيادة معدلات الفساد والجريمة.

المرحلة التي تمتد من حرب أكتوبر ١٩٧٣ حتى الوقت الحالي، وقد أصبحت الجريمة أثناءها مشكلة أساسية وسمة لصيقة ببنية التجمع الصهيوني، حتى أن الإسرائيلي اليوم يخرج من بيته صباحاً غير واثق من العودة إليه مرةً أخرى.

ومن أهم الجرائم على الإطلاق في الكيان الصهيوني جريمة الاتجار بالمخدرات وتعاطيها. وتعود أهميتها إلى أنها التجارة الأساسية التي تقوم بها عصابات الجريمة المنظمة، كما أنها هي التي تضطر عديداً من مواطني الكيان الصهيوني إلى التورط في جرائم أخرى مثل السرقة لإشباع حاجتهم إلى المخدرات، أو حتى القتل تحت تأثير المخدر في بعض الأحيان. وقد أشارت إحدى الإحصاءات التي نُشرت مؤخراً إلى أن حوالي ٣٠٠ ألف نسمة (أي نحو ٦ بالمئة من مجموع سكان الكيان الصهيوني) اعترفوا بتعاطي المخدرات، وأن ارتفاعاً حاداً قد طرأ على تعاطي المخدرات في صفوف الجنود والطلاب، حيث ارتفعت النسبة بينهم من ٢.٧ بالمئة في نهاية السبعينات إلى حوالي ١٣.٥ بالمئة حالياً)صحيفة معاريف ٢٧ يونيو/حزيران ٢٠٠٢).

ومن ناحيةٍ أخرى، ذكر تقرير إسرائيلي بعنوان "*الأطفال عام ٢٠٠٠* "أن ٣٧ بالمئة من التلاميذ الإسرائيليين دون سن الثامنة

عشرة يتعاطون الخمور، وأن حوالي ٩ بالمئة من التلاميذ في نفس الشريحة السنية يتعاطون المخدرات (صحيفة البيان الإماراتية ١١ يناير/كانون الثاني ٢٠٠١).

كما صرحت رئيسة لجنة التعليم في الكنيست أن عشرات الصبية الإسرائيلية دون سن الثالثة عشرة يتاجرون بالمخدرات ويستخدمون السلاح، بل إن الشرطة الإسرائيلية اكتشفت شبكة كاملة من الصبية ممن تتراوح أعمارهم بين ١١ و١٢ عاماً، ارتكب أعضاؤها عشرات الجرائم بدءاً من أعمال السرقة والسطو وحتى إضرام النيران في العربات بعد سرقتها (صحيفة معاريف ٥ يونيو/حزيران ٢٠٠٠).

وقد أوضحت الشرطة أيضاً أن الشبكة تعمل بأسلوب منظم ومحكم إلى حد سرقة بعض الأسلحة من وحدات جيش الدفاع ومن دوريات حرس الحدود وبيعها إلى تجار الممتلكات المسروقة. ومع هذا، تُضطر الشرطة إلى إطلاق سراح الجناة نظراً لحداثة سنهم.

ولم يسلم الجيش الإسرائيلي، الذي يُعد مفخرةً للدولة الصهيونية، من ظاهرة العصابات المنظمة التي تتاجر في المخدرات بأنواعها المختلفة. فعلى سبيل المثال، ذكرت إذاعة إسرائيل الناطقة بالعبرية أنه تم ضبط مجموعة من الجنود

والضباط الإسرائيليين تبيع المخدرات، وخاصة الكوكايين، داخل قاعدة إسرائيلية جنوبي إسرائيل، وأنها تضم عدداً من الضباط ذوي الرتب الرفيعة (١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١، موقع .com).arabnews.www

ولعل تفشي المخدرات والجريمة بين الشباب الإسرائيلي هو الذي حدا بأحد أعضاء الكنيست لأن يتقدم بمشروع قرار بعدم تجريم الحشيش، حتى تتفرغ الشرطة لمحاربة المخدرات القوية الأكثر خطورة مثل الهيروين، بل وطالب بإنشاء مركز حكومي لبيع الحشيش.

وقد جاء في تقرير إحدى اللجان الصهيونية التي شُكلت لبحث ظاهرة المخدرات أن سبب انتشار هذا الداء الاجتماعي يعود إلى ما يلي:

التأثير الحضاري الغربي.

موجة المتطوعين والسياح التي وصلت إلى الكيان الصهيوني منذ السبعينات.

توفر كميات كبيرة من المخدرات بأسعار رخيصة.

الاتصال مع عدد كبير من العرب.

وغني عن الذكر أن الأسباب التي توردها اللجنة لها تضمينات عنصرية، فضلاً عن قصورها . فهي لم تذكر، على سبيل المثال لا

الحصر، تآكل الأيديولوجية الصهيونية، والشذوذ البنيوي للدولة الصهيونية، وعدم التجانس بين الجماعات التي تُستجلب من شتى بقاع الأرض للاستيطان في فلسطين، وتصاعد معدلات العلمنة داخل الكيان الصهيوني، ودخول المستوطن الصهيوني في حروب متكررة عقيمة لم تأت بحل لأي من مشكلاته وغير ذلك من الأسباب.

الشذوذ فى الدولة الصهيونية

يمكن تمييز نوعين أساسيين من العلمانية، فهناك العلمانية الجزئية التي تعني فصل الدين عن الدولة، على أن تظل هناك مرجعية ما للدولة وللفرد، أما العلمانية الشاملة فهي فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الدولة والمجتمع، بل وعن الحياة في جانبها العام والخاص بحيث يتحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية. وتتسم العلمانية الشاملة بغياب أية مرجعية فلسفية وأخلاقية وأية معيارية، ومن ثم تصبح القوة الذاتية هي المعيار الوحيد، فالأقوى هو القادر على توظيف العالم والآخرين لحسابه.

العلمانية الشاملة إذن هي النسبية الأخلاقية التي ترفض أية معيارية والداروينية التي لا تقبل سوى القوة. ومن هذا المنظور فإن العلمانية الشاملة هي الإمبريالية، حيث تتحرك الكتلة البشرية الأقوى لتبطش بالأضعف وتوظفه لحسابها، دون الالتزام بأية قيم

خارجة عن ذاتها. والدولة الصهيونية دون شك دولة داروينية تستخدم ما عندها من قوة للاستيلاء على الأرض الفلسطينية وطرد سكانها أو توظفيهم واستغلال مصادرهم الطبيعية لحسابها. فالدولة الصهيونية بهذا المعنى دولة علمانية شاملة، لا تتقيد بأية قيم إنسانية أو أخلاقية.

وقد كان هذا الأمر واضحاً لمؤسس الصهيونية، فهرتزل كان يبحث عن أي أرض لتوطين اليهود فيها، ولم يعر القدس أي اهتمام، لأنه كان يريد "الأرض العلمانية"، على حد قوله. وعندما زار القدس تعمد انتهاك العديد من الشعائر الدينية الصهيونية لكي يؤكد أن الرؤية الصهيونية رؤية علمانية لا دينية. وكذا كان الوضع مع ماكس نوردو الذي كان يجهر بإلحاده، ويؤكد دائماً أن كتاب هرتزل دولة اليهود سيحل محل التوراة باعتباره كتاب اليهود المقدس.

وقد أسس الصهاينة العماليون المستوطن الصهيوني، وهؤلاء ملحدون بشراسة. فكانوا يحرصون على الذهاب إلى حائط المبكى في يوم الغفران (أكثر الأيام قداسة في التقويم الديني اليهودي) ويلتهمون شطائر من لحم الخنزير تعبيراً عن رفضهم لليهودية. ولا تزال الكيبوتسات مؤسسات علمانية تماماً ترفض الاحتفال بالأعياد الدينية وتغير كثيراً من النصوص الدينية. فقد جاء في

إحدى المزامير (24١١٨/) العبارة التالية: "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب"، فتم تغييرها إلى العبارة التالية: "هذا هو اليوم الذي صنعه جيش الدفاع الإسرائيلي". والمؤسسة الصهيونية العلمانية تعتبر التوراة كتاب فلكلور، وليست كتاباً مقدساً)على حد قول بن جوريون) والخالق هو الشعب اليهودي (على حد قول جابوتنسكي) أو أرض إسرائيل (على حد قول ديان).

ولا يعني هذا تقلص المؤسسة الدينية في الدولة الصهيونية، بل العكس فإن نفوذها يتزايد، ولكنها مرت هي الأخرى بعملية "صهينة" وعلمنة، ولم تعد تلتزم بأي قيم أخلاقية أو إنسانية أو دينية، بل تجعل الشعب اليهودي مرجعية ذاته، ومن ثم تؤيد اغتصاب الأرض وقتل الأبرياء مستخدمة ديباجات دينية لتبرير الأفعال الداروينية العلمانية.

وبالإضافة إلى علمنة العقيدة اليهودية فإن هناك أشكالاً أخرى من العلمنة تفت في عضد المشروع الصهيوني. ففي كتابه إلفيس بريسلي في القدس)نيويورك، ٢٠٠٢)، يذكر توم سجيف أنه لدى توقيع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ تظاهر حوالي ٦٠ ألفاً من الإسرائيليين أمام مكتب رئيس الوزراء في القدس، وفي نفس الليلة أُقيمت حفلة غنائية لمايكل جاكسون في تل أبيب حضرها ٦٠ ألفاً. وتبين ظاهرة دانا انترناشيونال تغلغل النسبية الأخلاقية في

التجمع الصهيوني. ودانا انترناشيونال هذه مغنية مشهورة للغاية مثلت إسرائيل في مهرجان غنائي في أوروبا وحازت الجائزة الأولى. وعند عودتها أرسل لها بنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء آنذاك، خطاب تهنئة كما عُينت سفيرة شرفية لإسرائيل. وكانت دانا في الأصل رجلاً شاذاً من أصل يمني يسمى بارون كوهين ثم أجري عملية جراحية تحول بعدها إلى امرأة. وقد تحدث عمليات تغيير الجنس هذه في كل المجتمعات بنسبٍ مختلفة، ولكن عندما يتحول الفعل الفردي إلى رمز قومي، فلابد من دراسة المسألة باعتبارها قضية اجتماعية وليست سلوكاً فردياً.

ويصدق هذا أيضاً على الشذوذ الجنسي. فالعهد القديم يحرم بوضوح العلاقات الجنسية بين أفرادٍ من نفس الجنس، ولكن مع تزايد عملية علمنة اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث تزايد قبول الشذوذ الجنسي باعتباره شيئاً طبيعياً. وهذه نتيجة حتمية لغياب اليقين المعرفي والمرجعية الأخلاقية والإنسانية وإنكار أي معيارية. واليهودية الإصلاحية والمحافظة)وهما أكبر الفرق الدينية اليهودية في الغرب) لا تحرمان الشذوذ الجنسي، بل وأسست معابد يهودية ومدارس تلمودية للشواذ، ورسم بعض الشواذ كحاخامات.

وإذا كان الاهتمام في المرحلة الأولى لبناء الدولة الصهيونية قد

انصب على بناء الشخصية الإسرائيلية، القتالية والمنتجة، وسادت معايير مثل التقشف والتضحية بالذات والإحساس بالجماعة، فقد تغير الوضع بعد عام ١٩٦٧، حيث دخل المجتمع الصهيوني المرحلة الاستهلاكية وتزايد التوجه نحو اللذة والفردية، وتبدلت المعايير السائدة. فبدلاً من إرجاء الإشباع ظهرت ضرورة الإشباع الفوري، وبدلاً من الإحساس بالانتماء للجماعة ظهرت عقلية الأنا، وبدلاً من اليقين الصهيوني سادت القيم النسبية. وعادةً ما يصاحب مثل هذا التغير تقبل تدريجي لكل شيء بما في ذلك الشذوذ الجنسي.

وقد تأسست جماعة للشواذ جنسياً تُسمى "جماعة الدفاع عن الحقوق الشخصية" عام ١٩٧٥ على يد بعض المهاجرين من الولايات المتحدة وإنجلترا. ورغم أن القانون الإسرائيلي كان يجرم العلاقات الجنسية الشاذة، فقد ظلت السلطات التنفيذية الإسرائيلية تتسامح مع مثل هذه العلاقات. وفي عام ١٩٨٨، ألغى الكنيست القانون الذي يجرم الشذوذ الجنسي، ومنذ ذلك الحين، ظهرت عدة مجلات بالعبرية والإنجليزية للشواذ في إسرائيل. وفي يونيو/حزيران ١٩٩١، عُقد في تل أبيب المؤتمر الدولي الثالث للشواذ جنسياً من الذكور والإناث والمتحولين إلى الجنس الآخر. وفي عام ١٩٩٢، أصدر الكنيست قانوناً يحرم التمييز على أساس

الميول الجنسية وإن كان لا يعفي الشواذ من الخدمة العسكرية بل يكتفي بنقلهم إلى مواقع غير مهمة أمنياً. وفي العام التالي، ألغى الجيش الإسرائيلي كل القوانين التي تميز ضد الشواذ. وفي عام ١٩٩٤، أصدرت المحكمة العليا قراراً يلزم شركة العال بمعاملة رفيق الشاذ جنسياً معاملة الزوج أو الزوجة العاديين. وفي نهاية الأمر اعترفت المحاكم الإسرائيلية بحق الشاذ في العيش مع شريك من نفس الجنس، والاعتراف به زوجاً أمام القانون.

ومن المفارقات أن المعارضة الدينية كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى تزايد تقبل المجتمع الإسرائيلي للشذوذ الجنسي، فتصاعد الاعتراض الديني يقابله تصاعد تأييد العلمانيين كرد فعل، وبهذا المعنى فإن تزايد تقبل الشذوذ هو تعبير عن احتدام الاستقطاب الديني العلماني.

المدينة المقدسة ومسيرة الشواذ

بمرور الوقت تتزايد علمنة المجتمع الإسرائيلي ويتزايد تقبل الشذوذ. وقد شهد عام ١٩٩٨ تعيين دانا انترناشيونال، المغنية الإسرائيلية السحاقية، سفيرة شرفية لإسرائيل، وشهد أيضاً نجاح ميشال إيدن في انتخابات مجلس مدينة تل أبيب، لتصبح أول سحاقية بشكل علني تشغل منصباً هاماً من خلال الانتخاب. ويبدو أن هناك عدداً من أعضاء الكنيست من الشواذ الذين يخفون

هويتهم الجنسية، ولذلك تحثهم جمعيات الشواذ على الإعلان عن هويتهم، وإن كان أحدهم قد أعلن عن هويته مؤخراً.

ومن أبرز الأدلة على تقبل الشذوذ أن رئيس الوزراء، أرييل شارون، قابل وفداً يمثل عدة جمعيات للشواذ والسحاقيات والمخنثين. وكان الإرهابي العتيد في غاية اللطف معهم، حتى أنه ألقى بعض النكات، ثم ناقش معهم مشاكلهم المختلفة مثل اعتراف القانون بالزواج بين الأشخاص من نفس الجنس، وقضايا تغيير الجنس وتغيير الأسماء، تبعاً لذلك، في الوثائق الرسمية. وأخبرهم شارون أنه لم يكن يعرف الكثير عن مثل هذه القضايا وأنه يجب أن يدرسها بعناية، ثم اختتم الاجتماع قائلاً: "يجب أن تستمروا في كفاحكم. فالتغيير يجب أن يأتي من الجماهير نفسها، ولهذا عليكم أن تواصلوا السعي لإقناعهم، لكي تكسبوا الجماهير لصفكم".

ويوجد الآن في القدس وحدها حوالي ٥٠ ألفاً من الشواذ بين سكان المدينة اليهود البالغ عددهم نحو ٦٠٠ ألف (صحيفة هيرالد تربيون، ٧ يونيو/حزيران ٢٠٠٢). ولم تذكر أي من المصادر التي اعتمدنا عليها عدد الشواذ في الدولة الصهيونية ككل ولكنه لابد وأن يكون ضعفي ذلك العدد، فتل أبيب هي عاصمة إسرائيل العلمانية وهي مركز الشذوذ والمخدرات وفيها مقاه ونواد وحانات

للشواذ (أما القدس فالمفروض فيها أنها مدينة مقدسة تسكنها أغلبية من المتدينين). ولذلك كانت تنظم في تل أبيب مسيرات الشواذ السنوية والتي يعلنون فيها اعتزازهم بهويتهم الجنسية.

ولكن مع تزايد تقبل التجمع الصهيوني للشذوذ وتزايد نفوذ الشواذ، قرروا تنظيم مسيرتهم السنوية في المدينة المقدسة! واشترك في المسيرة حوالي أربعة آلاف، مع أنه كان من المتوقع ألا يزيد العدد عن ثلاثة آلاف (صحيفة هآرتس، ٩ يونيو/حزيران ٢٠٠٢). وجاء هؤلاء الشواذ من تل أبيب ومدن أخرى في الدولة الصهيونية، أي أنها كانت مسيرة "قومية" بمعنى الكلمة، خاصة وأن بعض المشاركين ليسوا شواذاً بل علمانيين يعربون عن تضامنهم، وتولت الشرطة الإسرائيلية حراسة المسيرة.

وعشية المسيرة زُينت الشوارع بالأعلام والشعارات الداعية للاعتراف القانوني بزيجات الشواذ. ويُذكر أن الحاخامات الإصلاحيين والمحافظين يعقدون زيجات لأشخاص من نفس الجنس أمام حائط المبكى، ولكن المؤسسة الحاخامية (الأرثوذكسية) لا تعترف بها، وإن كانت بعض المحاكم الإسرائيلية تقرها.

وبدأت المسيرة بتلاوة دعاء *السفر اليهودي* (تفيلات هاديريخ)، ثم أُطلقت بعض البالونات السوداء إحياءً لذكرى من سقطوا

صرعى بسبب "الهجمات الإرهابية" (أي العمليات الاستشهادية)، ثم تُليت أدعية بالعبرية والعربية والإنجليزية.

وعقب المسيرة، عُقد اجتماع في حديقة الاستقلال، التي كان الشواذ يلتقون فيها سراً في الماضي. وألقى أحد منظمي المسيرة خطاباً جاء فيه: "كنت أتجول في هذه الحديقة لعدة سنوات، وأعرفها بقعة بقعة. كنت آتي في السر، في الظلام، لأتواصل مع جزء أساسي من كياني: هويتي الجنسية. ورغم الخوف، واصلت الحياة حتى بعد أن تعرضت للاضطهاد على أيدي رجال الشرطة، وللضرب على يد بعض الفتوات. أما اليوم فأنا أعود لحديقة الاستقلال لأعبر عن قيمٍ عزيزة على قلبي وعلى القدس: قيم التسامح والمساواة والتعدد الحضاري وقبول الآخر، وقد جاء رجال الشرطة اليوم لحمايتنا لا لاضطهادنا".

وقد تعالت أصوات مكبرات الصوت بأغانٍ عن الحرية، وعُلقت لافتات عليها شعارات مثل "حب بلا حدود" (كلمة "حب" "لف "Loveبالإنجليزية تعني "حب"، ولكنها تعني أيضاً "جنس" كما هو الحال في عبارة make loveالتي يترجمها البعض بأنها "يتعاطى الحب" مع أنها في الواقع تعني "يمارس الجنس"). وقدم ممثلون ذكور، يرتدون ملابس النساء، بعض العروض، ثم تتالى المتحدثون. فقال هاجاي إيلاد، القائد الحقيقي للمسيرة، إنها تنبع

من حب المدينة والرغبة في جعلها أكثر انفتاحا". وأضاف متحدث يرتدي القبعة اليهودية التي يرتديها اليهود الأرثوذكس، ولكنها ليست سوداء وإنما في ألوان قوس قزح (شعار الشواذ، وهو شعار ذو محتوى علماني تماماً) إن "المسيرة لحظة مقدسة من الأخوة والسلام"، وقال جيل نافيه "نحن نخلع القداسة على الحياة، فنخبر الناس أن بوسعهم العيش كما يشاءون. وإذا سار رجلان يمسكان الواحد بيدي الآخر في القدس فإن هذا لن ينقص من قداسة المدينة بل سيساهم فيها. فكل البشر خُلقوا على صورة الإله".

والمنطق الذي يستخدمه هؤلاء الشواذ منطق أعوج، فالإله خلقنا على صورته لكي نتجاوز ذواتنا المادية ورغباتنا التي تجذبنا نحو الطين، وحتى نعبر عن الجانب الرباني. أما الشواذ فيرون أن الإنسان يجب أن يعيش حسب أهوائه الجسدية فحسب.

وتوجه أحد المتحدثين إلى اليهود المتدينين قائلاً: "إن أبانا واحد. فلتعبدوا الإله بطريقتكم، ولتتركونا نعبده بطريقتنا". ولكن الجماهير الدينية أبدت اعتراضها الشديد على هذه المسيرة، فرفعوا لافتات تطالبهم بالعودة إلى أوطانهم (ولكن معظم هؤلاء يعتبرون إسرائيل وطنهم بمقتضى قانون العودة، الذي لم يعرِّف من هو اليهودي). وأبدى نائب حزب "شاس" الديني استنكاره

الشديد لهذه المسيرة، معتبراً أنها إهانة لمكانة القدس وللمثل الأخلاقية المقدسة "للشعب الإسرائيلي" التي ترتكز على الأسرة. وعلق أحد المتدينين بقوله: "إن هذا البلد آخذ في التدهور. فكل مجتمع له معاييره، والبلد الذي لا توجد فيه معايير إنما هو بلد في طريقه إلى الانتحار. وما هو مقبول في أمستردام)عاصمة الشذوذ والمخدرات) لا يمكن قبوله هنا بالضرورة.". وعلق آخر بقوله: "إن الهجمات الإرهابية [الاستشهادية] هي عقاب من الإله على مثل هذه المسيرات وهذا الانحلال".

ويمكننا أن نحاول الآن تفسير ظاهرة انتشار الشذوذ في الدولة الصهيونية:

أشرنا من قبل إلى تزايد التوجه نحو اللذة والاستهلاك والعلمنة.

يمكن القول بأن أزمة الهوية في التجمع الصهيوني (من هو اليهودي؟ من هو الصهيوني؟ من هو الإسرائيلي؟) قد تسببت في اهتزاز الهوية الجنسية للمستوطن الإسرائيلي هي الأخرى.

التجمع الصهيوني، شأنه شأن معظم المجتمعات المتقدمة، يعاني من غياب اليقين المعرفي بسبب تعدد المراكز والاتجاهات والفلسفات والأيديولوجيات. ومما يعمق هذا الاتجاه أن التجمع الصهيوني مجتمع مهاجرين، جاء كل منهم بهوية ثقافية مختلفة، مما يساهم في تقويض أي يقين.

لاشك أن تآكل الأيديولوجية الصهيونية، التي كانت تفسر الواقع للمستوطنين وتهديهم سواء السبيل، ساهم هو الآخر في تقويض أي يقين وأية هوية.

إذا كان الإسلام يطالب بتجاوز الرغبات الجسدية في الإنسان فإنه لا ينكرها وإنما يتيح التعبير عنها من خلال قنوات شرعية. أما اليهودية الأرثوذكسية فكانت، مع نهاية القرن الثامن عشر، تحرم كل شيء تقريباً، بما في ذلك التعبير عن الرغبات من خلال القنوات الشرعية، حتى أن أحد المفكرين اليهود قال: "لقد أصبح من المستحيل أن يكون الفرد إنساناً ويهودياً في ذات الوقت". وأدى ذلك إلى رد فعل معاكس ومتطرف كانت أحد أشكاله الشذوذ الجنسي. ولعله ليس من قبيل الصدفة أن أول جماعة عالمية للشواذ جنسياً كان يترأسها ماجنوس هيرشفيلد (١٨٦٨-١٩٣٥) ومساعده كورت هيلر (١٨٨٥-١٩٧٢) وكلاهما كان ألمانياً يهودياً، وكان هيلر هذا أول من طالب باعتبار الشواذ أقلية يجب حماية حقوقها.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى تصاعد معدلات الحلولية بين الجماعات اليهودية حتى تصل إلى مرحلة وحدة الوجود، حيث يحل الإله في "الشعب اليهودي" ويتوحد معه ويذوب فيه بحيث يصبح من المستحيل التمييز بين الخالق والمخلوق، فيتأله المخلوق، وهو في

هذه الحالة "الشعب اليهودي المختار"، الذي تصبح كل أفعاله مقدسة: سواء كان ذلك اغتصاب الأرض الفلسطينية أو طرد أهلها أو قتلهم. وهذا الموقف يصلح أساساً فلسفياً قوياً لتبرير أي فعل يقوم به الفرد اليهودي بما في ذلك اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه، سواء عن طريق التحول إلى جنسٍ آخر أو اختيار رفيقٍ من نفس الجنس: أليست كل أفعال الفرد اليهودي مقدسة؟

وأعتقد أن العربي في الغرب يمكنه توظيف ظاهرة انتشار الشذوذ الجنسي في التجمع الصهيوني وتقبله في تأكيد أن إسرائيل ليست دولة يهودية، كما يمكن توظيف هذه الظاهرة في الحوار مع الجماعات الأصولية المسيحية التي تنظر إلى الدولة الصهيونية باعتبارها تحقيقاً للرؤى الإنجيلية.

(مصادر هذه الدراسة عديدة، من بينها نيويورك تايمز، ٨ يونيو/حزيران ٢٠٠٢، محطات التليفزيون الأمريكية المختلفة خاصة CNS 7 يونيو/حزيران ٢٠٠٢، جويش بولتين، ٣١ أغسطس ٢٠٠١)، هآرتس، ٩ يونيو/حزيران ٢٠٠٢، وغيرها).

الفصل الرابع
خرافات الهيكل

ما هو الهيكل؟

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن الهيكل، هيكل داود- هيكل سليمان- هيكل هيرود- الهيكل الثالث- بناء الهيكل- نهب الهيكل، وعن مساعي بعض المنظمات الصهيونية للبحث عن موقع الهيكل القديم وإعادة بنائه، وهو الأمر الذي يستدعي إلقاء الضوء على جذور المسألة.

»الهيكل« كلمة كنعانية يقابلها في العبرية »بيت همقداش«، أي »بيت المقدس«، أو »هيخال«، وهي كلمة تعني »البيت الكبير« في كثير من اللغات السامية (الأكادية والكنعانية وغيرهما). والبيت الكبير أو العظيم هو الطريقة التي كان يُشار بها إلى مسكن الإله، فكلمة »فرعون« تعني »البيت الكبير« وهي تشبه إلى حدٍّ ما عبارة »الباب العالي«.

ومن أهم أسماء الهيكل »بيت يهوه«، لأنه أساساً مسكن للإله وليس مكاناً للعبادة (على عكس الكعبة مثلاً). ومن هنا، ورغم أنه كان مصرَّحاً للكهنة بل ولعبيد الهيكل بالدخول فيه، فلم يكن يُسمَح لهم بالتحرك فيه بحرية كاملة. ولم يكن يُسمَح لأحد على الإطلاق بدخول قدس الأقداس إلا الكاهن الأعظم في يوم الغفران.

ومن المعروف أن العقيدة اليهودية لم تتبلور إلا في مرحلة متأخرة (ربما في القرن الخامس الميلادي). ولهذا لا يمثل الهيكل

جزءاً من العقيدة اليهودية، وإنما هو جزء مما أسميه «العبادة القربانية المركزية»، وهي النمط الديني الذي ساد في فلسطين ابتداءً من حكم سليمان التوراتي (وهو حسب العقيدة اليهودية ليس نبياً وإنما مَلِك) واستمر هذا النمط بعض الوقت إلى أن هدم الرومان الهيكل في عام ٧٠ ميلادية، ولم يحل محله مبنى مركزي مماثل.

ويشغل الهيكل مكانة خاصة في الوجدان اليهودي، فكان التصور أنه يقع في مركز العالم، فقد بُنِيَ في وسط القدس التي تقع في وسط الدنيا (فقدس الأقداس الذي يقع في وسط الهيكل هو بمثابة سُرَّة العالم، ويُوجَد أمامه حجر الأساس: النقطة التي عندها خلق الإله العالم). والهيكل كنز الإله مثل جماعة يسرائيل، وهو عنده أثمن من السماوات بل ومن الأرض التي خلقها بيد واحدة بينما خلق الهيكل بيديه كلتيهما. بل إن الإله قرَّر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه، فكأن الهيكل مثل اللوجوس (أو الكلمة المقدَّسة)، أو ابن الإله في اللاهوت المسيحي.

ويبدو أن الحاخامات اليهود أخضعوا الهيكل، منذ البداية، لكثير من التأملات الكونية. ويذهب أحد العلماء إلى أن هذه التأملات هي وحدها التي تفسر معمار الهيكل وتصميمه. وقد أورد يوسيفوس بعض هذه التأملات، فذكر أن الفناء الذي يحيط

بالهيكل بمنزلة البحر، وأن المقدّس هو الأرض، وأن قدس الأقداس هو السماء، بل إن رداء الكاهن الأعظم كان له أيضاً المغزى الكوني نفسه.

ويشير التراث اليهودي إلى ثلاث هياكل: أما الهيكل الأول فهو هيكل سليمان. وحسب التصور اليهودي، قام سليمان ببناء الهيكل فوق جبل موريا، وهو جبل بيت المقدس أو هضبة الحرم التي يُوجَد فوقها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ويُشار إلى هذا الجبل في الكتابات الإنجليزية باسم «جبل الهيكل» أو «تمبل ماونت Tem-ple Mount»، وهو بالعبرية «هر هبايت»، أي «جبل البيت» (بيت الإله).

ومن الصعب الوصول إلى وصف دقيق لهيكل سليمان، فالمصدران الأساسيان لمثل هذا الوصف هما كتاب الملوك الأول (6/8)، والأخبار الثاني (٢/4) في العهد القديم، وهما مختلفان في عديد من التفاصيل المهمة. كما أن المصادر الأخرى تعطي تفاصيل تناقض أحياناً تلك التي وردت في هذين المصدرين الأساسيين.

وهيكل سليمان جزء من مُركَّب معماري ملكي يضم قصر الملك ومباني أخرى، مثل: بناء للصناع، وقاعة للاجتماعات، وبهو للعرش، وبهو للمحكمة العليا، وبناء كبير للحريم، وبيت لابنة

فرعون زوجة سليمان. وكان هذا المركب المعماري ملحقاً به المذبح الصغير الذي يضم تابوت العهد. وكان يحيط بكل هذه المباني فناء واسع. وكان مثل هذه المركبات المعمارية أمراً شائعاً في الشرق الأدنى القديم. وقد أُقيم هيكل سليمان مكان المذبح الصغير، يحيط به فناء مقصور عليه أعلى من الفناء الخارجي، ومن ثم فهو يفصله عن المركب المعماري الأكبر.

ولا يختلف هيكل سليمان في معماره عن الهياكل الكنعانية التي يبدو أنها تأثرت بالطراز الفرعوني الذي أخذه الفينيقيون من مصر وأضافوا إليه ما أخذوه من الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين. ولذلك، فإن الطراز الذي بُني عليه الهيكل يُسمَّى «الطراز الفرعوني الآشوري». وقد هدم نبوختنصر البابلي هيكل سليمان عام ٥٨٦ ق.م، وحمل كل أوانيه المقدَّسة إلى بابل. وبعد هدم هيكل سليمان، قام زرو بابل (أحد كبار الكهنة الذين سمح لهم الإمبراطور الفارسي قورش بالعودة إلى فلسطين) بإعادة بناء الهيكل في الفترة ٥٢٠ - ٥١٥ ق.م، ويُسمَّى هذا الهيكل «هيكل زروبابل». ويذكر العهد القديم أن هيكل زرو بابل بُني بأمر من إله يسرائيل وبأمر أباطرة الفرس: قورش ودارا الأول وأرتحشتا (عزرا 14٦/)، ولذا فقد كانت تُقدَّم فيه قرابين يومية لصالح حامي صهيون الوثني، وعلى مدخله خريطة لمدينة سوسة عاصمة

الإمبراطورية الفارسية. ولم يكن هيكل زروبابل في عظمة هيكل سليمان. ولا تُوجَد إشارات كثيرة إلى شكله المعماري ولا إلى تقسيمه، ولكن معظم الباحثين يميلون إلى القول بأنه لم يكن يختلف كثيراً عن الهيكل الأول في بنيته، ويعود هذا إلى أنه حينما هاجم نبوختنصر هذا الهيكل، فإنه لم يهدمه وإنما نهبه وحرقه، فلم يحترق سوى الأجزاء الخشبية كالسقف والبوابات الخشبية وكسوة الحوائط الخشبية. وبقي الهيكل المعماري كما هو فاستخدمه العائدون من بابل دون تغيير. أما فيما يتصل بمحتويات الهيكل، فنحن نعرف أن قدس الأقداس كان فارغاً تماماً وأن سفينة العهد كانت قد اختفت، فلم تكن توجد سوى صخرة عالية يضع الكاهن الأعظم عليها المبخرة. وكان هيكل زرو بابل يضم أيضاً أواني هيكل سليمان الأخرى كالشمعدانات الذهبية ومائدة قربان الوجه ومذبح البخور.

والهيكل الآخر هو »هيكل هيرود« الذي بناه الملك هيرود (٢٧ ق.م – ٤م) الذي عيَّنه الرومان ملكاً، أي حاكماً رومانياً يحمل لقب »ملك« . ويشار إلى هذا الهيكل بأنه »الهيكل الثاني« . ويقال إنه حينما اعتلى هيرود العرش، وجد هيكل زروبابل متواضعاً للغاية، فقرر بناء هيكل آخر لإرضاء اليهود، ولكنه قرر أن يبني في الوقت نفسه معبداً لآلهة مدينة روما حتى ينال رضا الإمبراطور

أوغسطس ويثبت ولاءه له. ويبدو أن هذا المعبد الروماني الوثني كان لا يختلف كثيراً في بنيته المعمارية عن الهيكل اليهودي.

ويحتوي البهو المقدَّس في هيكل هيرود على شمعدانات المينوراه، ومائدة خبز الوجه ومذبح البخور. وكان سقفه من خشب الأرز المطعم بالذهب. وكان مزوَّداً بنوافذ، على عكس قدس الأقداس الذي كان مظلماً وخاوياً. ولم يكن الحائط الغربي أو حائط المبكى جزءاً من الهيكل نفسه وإنما كان جزءاً من سوره الخارجي الذي أشرنا إليه. والوصف السابق لهيكل هيرود هو الذي ورد عند يوسيفوس. وهو مختلف عن الأوصاف التي وردت في كتب المدراش. وقد هدم تيتوس الهيكل الثاني عام ٧٠ ميلادية.

وكان الهيكل مقسَّماً إلى ثلاثة أقسام: المدخل والهيكل أو البهو المقدس، ثم قدس الأقداس وهو أهم الأماكن. ومصطلح «قدس الأقداس» تقابله في العبرية كلمة «دبير»، ويبدو أنها من أصل عبري بمعنى «تكلم»، أي أن الإله تكلم وأعطى المشورة والوحي. وهو أقدس الأماكن في هيكل القدس. وقدس الأقداس عبارة عن مكعب حجري مصمت (بدون نوافذ) أقيم على مستوى أعلى من الجزء المسمَّى «الهيكل» في هيكل سليمان، وهو يميل نحو التجريد كما هو الحال في الحضارات السامية.

وكان يفصل قدس الأقداس عن بقية الهيكل ستارة وسلسلة من

الذهب أو باب. ولم يكن يدخله سوى كبير الكهنة في يوم الغفران ليتفوَّه باسم الإله (يهوه) الذي لا يستطيع أحد أن يتفوه به في أي مكان أو زمان (ولعل التأثير المصري واضح في هذه العادة).

ويُعتبَر قدس الأقداس، في التأملات الكونية التي تخص الهيكل، السماء السابعة. وكان يوجد في قدس الأقداس ما يسمَّى حجر الأساس (بالعبرية: إيفن هيسود)، وهي نفس العبارة التي يستخدمها المهووسون من الصهاينة الذين كانوا يحاولون وضع حجر أساس الهيكل. وهذه العبارة، شأنها شأن عبارات أخرى كثيرة في التراث الديني اليهودي، حمالة أوجه، فكلمة «تسور» العبرية تعني صخرة، ولكنها تعني أيضاً «الإله». وعند إعلان استقلال إسرائيل أصر المتدينون أن ترد عبارة "تحت رعاية الإله" فرفضها العلمانيون واستخدمت كلمة «تسور» ليفهمها كلٌّ من يشاء بطريقته.

وقد استخدم هرتزل هذه الطريقة المراوغة في المؤتمر الصهيوني الأول. فقد قامت معركة بين بعض الصهاينة الذين كانوا يطالبون بأن الهدف الصهيوني هو تأسيس دولة يهودية في فلسطين وبين المعتدلين الذين رأوا أن هذا سيكشف الهدف الحقيقي للصهيونية مما قد يؤلب سكان فلسطين والعرب والدولة العثمانية ضد المشروع الصهيوني، ولذا فقد طالبوا بالاكتفاء

بعبارة «وطن قومي». وحينما احتدم الخلاف قال هرتزل اكتبوا «وطن قومي» وسيفهم الجميع أنه «دولة يهودية». وقد تم ذلك بالفعل.

وعبارة «حجر الأساس» عبارة مراوغة قد يفهم منها المرء أنه «حجر أساس» عادي مثل أي حجر أساس آخر. ولكن إن تعمقنا قليلاً في التراث اليهودي لوجدنا أن الأجاداه (الجزء القصصي في التلمود) تذهب إلى أن فلسطين توجد في مركز الدنيا وأن القدس في وسط فلسطين وأن الهيكل في وسط القدس، وأن قدس الأقداس يقع في وسط الهيكل، أي أن قدس الأقداس يقع في وسط الدنيا تماماً وأمامه حجر الأساس "إيفن هيسود" (ويزعم بعض الحاخامات أن حجر الأساس هو الصخرة الشريفة).

ولكن كلمة «هيسود»، أي «الأساس»، لها إيحاءات دينية كثيرة. ففي التراث الصوفي الحلولي اليهودي يأخذ الإله شكل عشر تجليات نورانية هي بمثابة مراحل الفيض المختلفة والتجلي التاسع هو يسود عولام أي أساس العالم، ويشار إليه أحياناً بلفظ «يسود» وحسب، أي «الأساس»، وهو الركيزة الأساسية لكل التجليات النورانية الأخرى، وهو أساس كل القوى النشيطة في الإله. وأحد معاني كلمة «يسود» هي «شعب إسرائيل». فحجر الأساس هنا ليس مجرد حجر أساس وإنما هو رمز عميق تستخدمه الصهيونية

الدينية. فاليهود هم حجر الأساس، وهم جزء عضوي من التجلي الإلهي، فهم آلهة أو شبه آلهة لهم حقوق مطلقة، فهم إذن مركز العالم وأساسها. وهذه صياغة لا يعارضها العلمانيون.

ومصطلح «حجر الأساس» لا يختلف كثيراً عن مصطلح شائع مثل «الكنيست»، فالكنيست هو البرلمان الإسرائيلي، ولكنه في التراث الديني هو التجلي العاشر والأخير للإله، وهو أيضاً جماعة إسرائيل، وهو الشخيناه أي التجلي الأنثوي للإله، أي أن اليهود جزء لا يتجزأ من الإله، حقوقهم مطلقة وأفعالهم مقدسة تعلو على العالمين.

ومن الطريف أن الفيض الإلهي يصل إلى كنيست يسرائيل عبر يسود عولام. ويستخدم التراث الحلولي الصوفي صورة مجازية جنسية، فيأخذ اليسود عولام شكل عضو التذكير أما كنيست يسرائيل فتأخذ شكل عضو التأنيث.

أما مراسم العبادة في الهيكل، فقد اختلفت من فترة إلى أخرى، ولكن ملامحها الأساسية ظلت ثابتة. ففي كل صباح، كان أحد الكهنة ينظف ضريح القرابين من الرماد ثم يُذكي النيران. وبعد ذلك، كانت تُقدَّم قرابين اليوم (الجديدة). وكان الكاهن الأعظم (أو من ينوب عنه) يدخل البهو المقدَّس، وينظف الشمعدانات، ويحرق البخور على مذبح البخور، ويُقدِّم قربان خبز الوجه. وعند

الغروب، كانت معظم الشعائر تُعاد من جديد. كان هذا هو النمط السائد للعبادة والقرابين في الأعياد وفي يوم السبت. وكان الكاهن الأعظم يدخل قدس الأقداس في يوم الغفران. وكان التفوه باسم يهوه يمثل ذروة هذه العبادة حيث كانت هذه اللحظة تشكل نقطة التماس بين الإله والشعب والأرض، فهي النقطة التي يتجسد فيها الحلول الكامل.

وكان تركيز العبادة القربانية تركيزاً لموارد الدولة أيضاً، وكانت القرابين من أهم هذه الموارد، إلى جانب الضرائب وجزية الرؤوس التي فرضها سليمان على جميع رعاياه، فقد كان على كل ذكر يهودي أن يدفع نصف شيقل كل عام (وهو الشيقل المقدَّس). لهذا، لم يسمح بتقديم أية قرابين خارج الهيكل بعد تأسيسه. وكان الهيكل، شأنه شأن كثير من الهياكل في الشرق الأدنى القديم، مصرفاً يضع فيه الأثرياء نقودهم ويرسلون إليه النذور والقرابين، كما كانت تُحفَظ فيه رموز الدولة وطنافسها.

وقد استمر هذا الوضع مع هيكل هيرود الذي أشار إليه ول ديورانت بأنه "المصرف القومي"، وأشار إليه يهودا مينوهين بأنه "الهيكل/السوق"، حيث كان يُوجَد الباعة وتجار الماشية والصيارفة، الأمر الذي أثار غضب السيد المسيح عند زيارته للهيكل.

ولما كان الهيكل هو الخزانة القومية أو المصرف القومي للدولة العبرانية المتحدة (ثم المملكة الجنوبية)، فإننا نجد أن القوات الغازية كانت تحاول نهبه أثناء الحروب كجزء من الحرب الاقتصادية وكجزء من محاولة ضرب الشرعية السياسية.

وكان الكهنة اللاويون يقومون على خدمة الهيكل، يترأسهم الكاهن الأعظم، وهو ما جعل فئة الكهنة من أكثر الفئات نفوذاً. وكانت فرقة الصدوقيين تعبِّر عن مصالح هذه الفئة وتدافع عن عبادة الهيكل القربانية. أما فرقة الفريسيين، فكانت تمثل المعارضة. ولذا، فقد كانت هذه الفرقة تؤيد إنشاء المعابد اليهودية المستقلة لأنها تحقق انفصال اليهودية عن الهيكل والكهنة.

هدم الهيكل وإعادة بنائه

من المصطلحات المتواترة في المعجم اليهودي الصهيوني مصطلح «هدم الهيكل» الذي يشير عادةً إلى عملية هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠ ميلادية. وقد هُدم الهيكل، حسب الكتابات الفقهية اليهودية، في التاسع من آب. ويشكل هدم الهيكل صورة أساسية في الوجدان الديني اليهودي، فهو يُذكَر عند الميلاد والموت. وعند الزواج، يُحطَّم أمام العروسين كوب فارغ لتذكيرهم بهدم الهيكل (وقد يُنثَر بعض الرماد على جبهة العريس). وفي الماضي، حينما كان اليهودي يطلي منزله، كان الحاخامات

يوصونه بأن يترك مربعاً صغيراً دون طلاء حتى يتذكر واقعة هدم الهيكل. وفي كل عام، يُحتفَل بذكرى هدم الهيكل بالصيام في التاسع من آب. وعند كل وجبة، ومع كل صلاة في الصباح، يتذكر اليهود الهيكل، ويصلون من أجل أن تتاح لهم فرصة العودة إلى الأرض المقدَّسة والاشتراك في بناء الهيكل. كما تُتلَى صلاة خاصة في منتصف الليل حتى يُعجِّل الإله بإعادة بناء الهيكل. ويذهب الشرع اليهودي إلى أن اليهودي يتعيَّن عليه أن يمزِّق ثيابه حينما يرى الهيكل لأول مرة بعد مرور ثلاثين يوماً من آخر مرة رآه فيها.

ويرى بعض حاخامات اليهود أن هدم الهيكل كان عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب. ويأخذ المسيحيون بهذا الرأي، حيث يرون أن ذنب اليهود الأكبر هو إنكارهم أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح. وفي الكتابات العبرية، يُشار إلى تخريب الهيكل بكلمة «حوربان» التي تُستخدَم للإشارة إلى أي دمار يلحق باليهود، ومن ذلك الإبادة النازية ليهود أوربا. وتذهب الكتابات الصهيونية، والمتأثرة بها، إلى أن هدم الهيكل على يد الرومان هو الذي تَسبَّب في تشتت اليهود في المنفى على هيئة أقليات، مع أن انتشار اليهود في بقاع الأرض كافة كان قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل وبدون قسر. والواقع أن مجموع اليهود خارج فلسطين كان يفوق بكثير عددهم داخلها قبل هدم الهيكل.

وبذلك يعود ظهور الصهيونية إلى اللحظة التي هدم فيها تيتوس الهيكل وأنهى الوجود "القومي" اليهودي في فلسطين. وبهذا التصور يعلمن الصهاينة الصورة الأساسية في الوجدان اليهودي، ويتبنونها كصورة أساسية في فكرهم السياسي، فيعمقون تَزاوُج الديني والدنيوي، وتصبح العودة (أي الاستيطان بالقوة في فلسطين) فعلاً دينياً. ويقوم الصهاينة بالتأريخ لوقائع تاريخ العبرانيين، وتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين، بمصطلحات مثل »الهيكل الأول« و»الهيكل الثاني«. ويشير بن جوريون وكثير من العلماء الإسرائيليين إلى دولة إسرائيل باعتبارها »الهيكل الثالث«.

ويذهب الفقه اليهودي إلى أن الهيكل لابد أن يُعاد بناؤه وتُقام شعائر العبادة القربانية فيه مرة أخرى حينما يعود اليهود إلى صهيون (أي فلسطين) بقيادة الماشيّح في آخر الأيام، أي أن إعادة بناء الهيكل مرتبط بالرؤى الأخروية لا بالتاريخ الإنساني. ولهذا، فقد تم تدوين هذه الشعائر في التلمود مع وصف دقيق للهيكل. ويتلو اليهود في صلواتهم أدعية من أجل إعادة بناء الهيكل. ولكن الآراء تتضارب، مع هذا، حول مسألة موعد وكيفية بناء الهيكل في المستقبل. والرأي الفقهي الغالب هو أن اليهود يتعيَّن عليهم أن ينتظروا إلى أن يحل العصر المشيحاني بمشيئة

الإله، وحينئذ يمكنهم أن يشرعوا في بنائه، ومن ثم يجب ألا يتعجل اليهود الأمور ويقوموا بإعادة بنائه، فمثل هذا الفعل من قبيل الهرطقة والتعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس). ويذهب موسى بن ميمون إلى أن الهيكل لن يُبنَى بأيد بشرية، كما يذهب راشي إلى أن الهيكل الثالث سينزل كاملاً من السماء. ويرى فقهاء اليهود أن جميع اليهود مدنسون الآن بسبب ملامستهم الموتى أو المقابر، ولابد أن يتم تطهيرهم برماد البقرة الصغيرة الحمراء. ولما كان اليهود (جميعاً) غير طاهرين، بل ويستحيل تطهيرهم (بسبب عدم وجود الرماد المطلوب لهذه العملية)، نتيجة لأن أرض الهيكل (جبل موريا أو هضبة الحرم) لا تزال طاهرة، فإن دخول أي يهودي إليها يُعدُّ خطيئة. ويضاف إلى هذا أن جميع اليهود، حتى الطاهر منهم، يَحرُم عليه دخول قدس الأقداس. ولما كان مكانه غير معروف لأحد على وجه الدقة، فإن من المحتمل أن تطأ قدما أحدهم هذه البقعة. ولهذا، فإن دخول اليهود إلى هذه المنطقة محرَّم تماماً. وفي الفقه اليهودي كذلك أن تقديم القرابين أمر محرم لأن استعادة العبادة القربانية لابد أن يتم بعد عودة الماشيَّح التي ستتم بمشيئة الإله.

ولكن هناك رأياً فقهياً يذهب إلى نقيض ذلك، حيث يرى أن اليهود يتعيَّن عليهم إقامة بناء مؤقت قبل العصر المشيحاني، وأنه

يحل لليهود دخول منطقة جبل موريا، لكن هذا هو رأي الأقلية ولم يصبح جزءاً من أحكام الشرع اليهودي. ولكن هذا الرأي ظل مدوَّناً مطروحاً بسبب طبيعة اليهودية كتركيب جيولوجي. وقد استفاد الصهاينة من هذا التناقض داخل التركيبة الجيولوجية، فوصفوا الرؤية الحاخامية الأرثوذكسية بالسلبية، وقرروا أخذ زمام الأمور في أيديهم. وقد أعلن الحاخام شلومو جورين أنه حدد مكان قدس الأقداس وبالتالي يستطيع اليهود بالتالي زيارة جبل موريا.

ويمكننا الآن أن نعرض لرأي الفرق اليهودية المختلفة في العصر الحديث في مسألة إعادة بناء الهيكل. يمكننا منذ البداية أن نقسمهم إلى صهاينة وغير صهاينة. أما غير الصهاينة، فيعارضون العودة الفعلية ومن ثم إعادة بناء الهيكل. وقد حذف الإصلاحيون الأدعية الخاصة بإعادة بناء الهيكل، ويستعملون منذ عام ١٨١٨ كلمة «تمبل Temple» الإنجليزية، أي «المعبد»، للإشارة إلى الهياكل اليهودية. وهم، في الواقع، يقصدون أن المعبد، أينما وُجد، حلّ محل الهيكل، وأن الهيكل لن يتم استرجاعه أبداً. أما الأرثوذكس، فيفضلون استخدام الكلمة اليونانية «سيناجوج» للإشارة إلى المعبد اليهودي، على أن تظل كلمة «هيكل» محدَّدة الدلالة لا تشير إلا إلى هيكل القدس. وقد احتفظ الأرثوذكس بالأدعية الخاصة بالعودة، وتبعهم المحافظون. وتظل

العودة، بالنسبة إلى الأرثوذكس، مسألة مرتبطة بعودة الماشيَّح. أما بالنسبة إلى المحافظين، فهي تشبه المجاز والتطلع الطوباوي المثالي.

أما الصهاينة، فينقسمون في موقفهم من قضية إعادة بناء الهيكل إلى قسمين: صهاينة لادينيون وصهاينة دينيون. وفي الواقع، فإن الفريق الأول لا يكترث كثيراً بالعبادة القربانية، ولا بإعادة بناء الهيكل. ولذا، فهم ينظرون إلى القضية من منظور عملي، ويرون أن محاولة الصهاينة المتدينين إعادة بناء الهيكل نوع من الهَوَس الديني يهدد المُستوطَن الصهيوني بالخطر دون عائد مادي ملموس. ومن ثم، نجد أن مسألة إعادة بناء الهيكل لا تتمتع بشعبية كبيرة داخل إسرائيل التي تتمتع بـ - أو تعاني من - واحد من أعلى مستويات العلمنة في العالم. وقد أشار تيدي كوليك)عمدة القدس) إلى المهووسين الذين قاموا بوضع حجر أساس بناء الهيكل، وبيَّن أنهم يسيرون في خط شبتاي تسفي؛ ذلك الماشيَّح الدجال الذي ألهب حماس معظم اليهود في القرن السابع عشر، ووعدهم بالعودة إلى فلسطين، وعيَّن بعض أتباعه حكاماً للأرض، ثم انتهت الحركة بالفشل، الأمر الذي رجَّ اليهودية رجاً من أساسها وألقى بها في أزمة لم تُفق منها قط.

وَيرى الصهاينة المتدينون (المتطرفون) المسألة من منظور

مختلف، فمسألة إعادة بناء الهيكل مسألة ذات أهمية مركزية بالنسبة إليهم، ولذا فإنهم يركزون جُلَّ اهتمامهم على هذه العملية، والقضية بالنسبة إليهم مسألة عقائدية وليست علمية. والواقع أن كثيراً من المنظمات الإرهابية الصهيونية الجديدة قد جعلت إعادة بناء الهيكل، وهدم الآثار الإسلامية الموجودة في هذا الموقع، من أهم أهدافها.

وهناك منظمة يهودية تُسمَّى "أمناء جبل الهيكل"، يرأسها ضابط سابق هو جيرشون سالومون ويموِّلها المليونير الأمريكي)المسيحي الأصولي) تري رايزنهوفر، جعلت بناء الهيكل الثالث هدفها الأساسي. ويقود المتطرفون الصهاينة حملة لتأكيد أن المنطقة التي يُوجَد عليها الآن كلٌّ من المسجد الأقصى ومسجد الصخرة هي المنطقة التي كان يُوجَد عليها الهيكل، ومن ثم فلليهود حقوق مطلقة فيها. وقد أُسِّست مدرستان تلموديتان عاليتان بالقرب من حائط المبكى لتدريب مائتي طالب على شعائر العبادة القربانية، ليقوموا بها عند بناء الهيكل الثالث. وإحدى هذه المدارس، معهد الهيكل (بالعبرية: يشيفات هَبايت)، وظيفتها الأساسية محاولة التعجيل بإعادة بناء الهيكل. وقد بدأت هذه المدرسة في إعداد أدوات العبادة القربانية، وانتهت من ثمان وثلاثين منها تم وضعها في متحف، وهي في سبيلها إلى إعداد

الخمس والستين الباقية. وتُوجَد جماعات أخرى تدرس شجرات العائلات الخاصة بالكهنة حتى تمكن الإجابة عن سؤال نصه: مَن منهم المُؤهَل لتقديم القرابين؟ وقد عُقد عام ١٩٩٠ مؤتمر يضم اليهود الذين يعتقدون أنهم من نسل الكهنة. وهناك، في فندق الهيكل في القدس، مجسَّم مصغَّر للهيكل، وهم ينوون أن يبنوا مجسماً آخر أكبر حجماً يتكلف مليون دولار يتم جمعها من يهود العالم دون سواهم.

وقد قامت جماعة "أمناء جبل الهيكل" بوضع حجر الأساس للهيكل الثالث في احتفال تحت إشراف رئيس الجماعة المدعو جرشوم سالمون. وحضر الاحتفال، الذي جرى في منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٨٩، كاهن يرتدي ملابس كهنوتية خاصة مصنوعة من الكتان المغزول باليد من ستة خيوط مجدولة تم إعدادها في معهد الهيكل. وقد استخدمت الجماعة في الاحتفال بعض الأواني الشعائرية، وبوق الشوفار، وأدوات موسيقية مثل الأكورديون. أما حجر الأساس نفسه، فحجمه متر مكعب وقام بإعداده حفاران يهوديان من القدس بدون استخدام أي أدوات حديدية (كما تتطلب الشعائر). وحاولت الجماعة الوصول بالحجر إلى ساحة حائط البراق عند حائط المبكى، ولكن الشرطة الإسرائيلية تصدت لهم فحُمل الحجر إلى مخزن الحفارين وأُودع فيه، وتتجه النية إلى

زراعة حديقة حوله. ويساند أمناء جبل الهيكل بعض أعضاء المؤسسة الدينية في إسرائيل.

ورغم هذا الانقسام، بشأن إعادة بناء الهيكل، فالملاحظ أن بعض الأطروحات التي صُنِّفت في الماضي باعتبارها دينية مهووسة ومتطرفة، صارت مقبولة بل وأصبحت جزءاً من الخطاب السياسي الصهيوني، أو من برامج الأحزاب المعتدلة! ففي أغسطس عام ١٩٩٥، سمحت المحكمة العليا الإسرائيلية لأعضاء "جماعة أمناء جبل الهيكل" بزيارة المسجد الأقصى والقيام بطقوسهم الدينية في حرمه. وفي أواخر يوليو ٢٠٠١، أصدر بعض الحاخامات فتوى سمحت بالصلاة داخل باحة الحرم لمجموعة أمناء الهيكل، فطلبوا السماح لهم بوضع حجر الأساس للهيكل (كخطوة أولى لإعادة بنائه). وحينما رفضت الشرطة الطلب، اتجهوا إلى المحكمة العليا التي حكمت لهم بوضع حجر الأساس في مكان قريب على بُعد ٣٠ متراً من باب المغاربة. وسيأتي الوقت قريباً حينما تصبح قضية إعادة بناء الهيكل قضية غير خاضعة للتفاوض من منظور ديني علماني مثل القدس والمستوطنات.

تعدد الهياكل

يتحدث اليهود عن "إعادة بناء الهيكل"، و"الهيكل الثالث" و"هدم الهيكل". وكلها في صيغة المفرد، وكأن مركز الوجدان اليهودي كان

ولا يزال هو "الهيكل"، ولكن الواقع مخالف لذلك. وقد أشرنا في مقال آخر إلى أن اليهودية الإصلاحية واليهود العلمانيين (وهم يشكلون الغالبية الساحقة ليهود العالم وإسرائيل) لا يكترثون لا بالهيكل ولا بالعبادات القربانية وغير القربانية اليهودية ويجدونها بقايا تاريخ ميت لا يعنيهم البتة، بل إن بعضهم يجد أن متحف الهولوكوست في واشنطن هو الهيكل الحقيقي.

وإلى جانب، هناك توجد حقيقة تاريخية يحرص الصهاينة على إخفائها وهي أنه توجد هياكل كثيرة. فالعبرانيون القدامى كانوا يحجون إلى مكان يسمَّى «شيلو» إلى أن تأسست المملكة العبرانية المتحدة وأصبحت القدس العاصمة، والهيكل هو مركز العبادة القربانية. ولكن المملكة المتحدة لم تدم أكثر من ثمانين عاماً، وعند انقسامها إلى مملكتين صغيرتين (٩٢٨ ق.م) فَقَدَ الهيكل كثيراً من أهميته، إذ شيَّد ملوك المملكة الشمالية (يسرائيل إفرايم) مراكز مستقلة للعبادة. فبنى يربعام (أول ملوك المملكة الشمالية) معبدين أو هيكلين أحدهما في دان بالشمال والآخر في بيت إيل، وجعل فيهما عجولاً ذهبية، واتخذهما مزاراً ملكياً مقدَّساً له. وقد أحاط المعبدين بهالة من القدسية، وغيَّر موعد الأعياد، وطرد اللاويين الذين كانوا يشكلون البيروقراطية الدينية للمملكة العبرانية المتحدة. وقد فعل كل هذا حتى يقوِّض العبادة المركزية ويحول دون

ذهاب مـواطني مملكتـه إلى هيكل القـدس في المملكة الجنوبيـة (يهودا). ورغم التحالفات التي كانت تُعقَد أحياناً بين ملوك الشمال والجنوب، فإن الهيكل لم يستعد قَطّ مركزيته القديمة. وكثيراً ما كان ملوك اليـهود يضطرون إلى إدخال العبادات غير اليهودية تعبيراً عن تحالفاتهم السياسية. فأنشأ سليمان مذابح لآلهة زوجاته الأجنبيات، الأمر الذي يتنافى مع مبدأ التوحيد. كما أن العبادات المختلفة كانت تعبيراً عن التبعية السياسية، فقد أدخل منَسَّى العبادة الآشورية تعبيراً عن خضوعه للآشوريين.

ومن أطرف الأمثلة على تعدُّد الهياكل ما يسمَّى بهيكل أونياس، وهو الهكيل الذي شيَّده الكاهن الأعظم اليـهودي أونيـاس الرابع الذي خُلِع من منصبه في فلسطين فـفرّ إلى مصر ومعه بعض الجنود اليهود، ولعلهم تحوَّلوا إلى مرتزقة بعد وصولهم إلى مصر (وثمـة رأي يذهب إلى أن الذي شـيده هو، في واقع الأمـر، أبوه أونيـاس الثـالث). ويبدو أن الهـيكل قد شُيِّد بإيعاز من البطالمة (حكام مصر) في عصر بطليموس السادس (١٨١ - ١٤٥ ق.م)، لخلق موقع ليهود مصر يصبح مركزاً لولائهم ويبعدهم عن هيكل فلسطين التـابع للسلوقـيين. وقـد مُنِح أونيـاس، وجنـوده، أرضـاً ليســتوطنوها ويعيشوا من ريعها عام ١٤٥ ق.م. وقد شُيِّد المعبد في ليونتـوبوليس (بالقرب من هليـوبوليس) مكان مـعبد مـصري

للإلهة باشت. وقد استند أونياس إلى نبوءة أشعياء (١٩/18 – ١٩ (التي جاء فيها أنه سيُشيَّد مذبح للإله في وسط أرض مصر) ليعطي هيكله شرعية دينية، وقد أصبح أونياس كاهنه الأعظم.

وكان كثير من اليهود يعملون جنوداً مرتزقة ضمن حامية عسكرية تُرابط حول المعبد. وقد بُنيَ الهيكل على هيئة قلعة يحيطها سور، ربما بسبب طابعه الاستيطاني القتالي. ورغم اختلافه من الناحية المعمارية عن هيكل القدس، فإنه كان يحوي الأواني الشعائرية نفسها، وكان يتدلى من السقف فانوس حل محل شمعدان المينوراه. وقد منح البطالمة لكهنة هذا الهيكل قطعة من الأرض ليعيشوا من ريعها.

ولم يكن هيكل أونياس معبداً (سيناجوج) وإنما كان هيكلاً مركزياً لإقامة شعائر العبادة القربانية، وكان الهدف هو إحلاله محل هيكل فلسطين، كما كان اليهود في مصر يقدمون فيه القرابين ويحجون إليه. ورغم أن أقلية من يهود مصر اتخذت موقف المعارضة، فإن بعض فقهاء اليهود أبدوا اهتماماً خاصاً به ودرسوا شعائره وهو ما يعني اعترافاً ضمنياً به، ولكن الرأي الحاخامي الشائع هو رفضه لأنه كان يشكل منافسة للعبادة القربانية. وقد قام الرومان بإغلاق هذا المعبد عام ٧٣م إثر تَمرُّد قام به يهود مصر، أي أنه أُغلق بعد مرور عامين على إغلاق هيكل

فلسطين.

ولا يختلف هيكل أونياس في تصميمه المعماري كثيراً عن المعبد/القلعة في أوكرانيا (حين كانت تابعة لبولندا في القرن السابع عشر) في المناطق الحدودية التي تفصل بين بولندا وروسيا. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون بالعبادة والدراسة في مثل هذه المعابد التي كانت مصممة بحيث يمكن استخدامها كحصون وقلاع عسكرية أيضاً.

وقد نشأت الحاجة لمثل هذا الطراز من المعابد في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا. فقد وظّف النبلاء البولنديون (شلاختا) بعض أعضاء الجماعة اليهودية في عملية اعتصار أكبر قدر ممكن من الأرباح من الفلاحين الأوكرانيين، فأصبحت الجماعة اليهودية جماعة وظيفية من الوكلاء الماليين)أرنداتور) يعيشون في مدن خاصة بهم (شتتلات) منعزلين لغوياً ودينياً واجتماعياً وثقافياً عن جماهير الفلاحين. وكانت الجماعة اليهودية محل سخط الجماهير وغضبها (كما هو الحال مع أعضاء الجماعات الوظيفية، خصوصاً العميلة)، ولذا كانت القوات العسكرية البولندية تقوم بحمايتها من الجماهير ومن الانتفاضات الشعبية المحتملة. ومع هذا، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتدربون على السلاح، وكان عليهم الاحتفاظ بأسلحة بعدد الذكور القادرين

على حملها، وبكمية معيَّنة من البارود (حسبما كانت تنص العقود المبرمة بين النبلاء البولنديين ووكلائهم اليهود).

وكانت هذه المعابد/القلاع مصممة بطريقة تجعل بالإمكان استخدامها كمكان للعبادة والدراسة وكحصون وقلاع عسكرية. فكانت تُزوَّد بحوائط سميكة للغاية، كما أن المتاريس (حاجز السقف أو الشرفة) كانت مزودة بكوات لتخرج منها المدافع والبنادق أثناء الاشتباك مع الجماهير. ومن أشهر المعابد/القلاع معبد لتسك Lutsk الذي بُني عام ١٦٢٦ لخدمة الأغراض العسكرية بالدرجة الأولى. وقد نص القرار الملكي الذي صدر ببنائه على ضرورة أن يلتزم اليهود بتزويد معبدهم هذا بكوات من الجهات الأربع وبالسلاح الكافي على نفقتهم، وعلى أن يتم تزويد المعبد/القلعة بعدد من الرجال يكفي لصد الهجمات عليه. وصدر أمر لمعبد ريسيسوف بأن يزود نفسه بالبنادق والرصاص والبارود. وكانت المعابد/القلاع تزود عادةً ببرج مراقبة ضخم كان يُستخدَم في زمن السلم كسجن يُودَع فيه المجرمون من أعضاء الجماعة اليهودية.

الهيكل: بركان متفجر

شهدت الفترة الأخيرة توسعاً كبيراً في نشاط المنظمات اليهودية/الصهيونية المعنية بقضية الهيكل، كما شهدت تنسيقاً

عميقاً فيما بينها، بالإضافة إلى انتقال هذه المنظمات من الهامش الإسرائيلي/الصهيوني إلى المركز.

وهناك سببان رئيسيان لهذا التطور، أحدهما خارجي والآخر داخلي. ويتمثل السبب الخارجي في التخوف من أية ترتيبات ترسِّخ الوضع الراهن الذي يخضع فيه جبل الهيكل لسيطرة الفلسطينيين. وقد أدى هذا التخوف إلى ممارسة ضغوط على الحاخامات وعلى دار الحاخامية الرئيسية في إسرائيل من أجل إلغاء التشريع الديني اليهودي الذي يحظر على اليهود دخول منطقة جبل الهيكل ولما كان موقع هيكل سليمان غير معروف على وجه الدقة، فإن هذا التشريع يُحرِّم على اليهود المتدينين دخول المنطقة خشية أن تطأ أقدامهم «قدس الأقداس»، وهو ما يُعتبر خطيئة.

وفي سياق التمهيد للاحتفال "بالعيد السابع للهيكل" في فبراير ١٩٩٧، أعلن حاخامات منظمة " ييشا) "Yesha"التي تمثل المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وقطاع غزة) فتوى ثورية تجيز لليهود دخول منطقة جبل الهيكل، وهو ما كان حتى ذلك الحين أمراً محظوراً لدى جميع التيارات الرئيسية اليهودية، وجاءت الفتوى في رسالة وقَّع عليها الحاخامات (ومن بينهم دانيال شايلو، أحد رؤساء مجلس حاخامات "ييشا"). وأهابت الرسالة

بكل حاخام يعتقد أنه من الجائز دخول جبل الهيكل "أن يذهب بنفسه ويرشد أفراد طائفته إلى كيفية دخول المنطقة وفقاً للقيود الشرعية اليهودية".

أما السبب الداخلي فيتعلق بتصاعد أهمية مفهوم الهيكل في الأوساط اليهودية. ففي غضون السنوات الأخيرة، أصبحت هذه القضية متغلغلة في جميع القطاعات الدينية، ومن ثم تقلَّصت أهمية الحائط الغربي، بينما تركَّزت الأنشطة على الهيكل. وبعد أن كان يُنظر إلى إعادة بناء الهيكل باعتباره أمراً تقرره الإرادة الإلهية وحدها، برز مؤخراً موقف يدعو إلى ضرورة القيام بعمل ما للتمهيد لبناء الهيكل. وهذا مثَّل جيد على ما نسميه »صهينة اليهودية«، أي إعادة صياغة المفاهيم الدينية اليهودية لتتفق مع الرؤية الصهيونية. وعلى سبيل المثال، تُحرِّم الأرثوذكسية (أي اليهودية التقليدية) عودة اليهود إلى فلسطين، نعم تُحرِّمها، وتعتبرها عملاً من أعمال الكُفر والهرطقة وارتكاباً لخطيئة "الداحيكات هاكتس" أي التعجيل بالنهاية. فاليهودية الحاخامية كانت تطلب من اليهود أن ينتظروا في صبر وأناة حتى يأذن الإله بالعودة ويرسل بالمسيح المخلِّص اليهودي ليقود شعبه إلى أرض الميعاد. وكانت متتالية الخلاص تأخذ الشكل التالي: منفى- انتظار- مجيء المسيح المخلِّص- عودة اليهود.

وجاء الصهاينة وغيَّروا هذه المتتالية، فأصبحت على النحو التالي: منفى- انتظار- عودة للإعداد لمجيء المسيح المخلِّص- مجيء المسيح المخلِّص- عودة اليهودي.

وقد تبدى تزايد الوعي بقضية الهيكل في عدد المؤتمرات التي عقدتها جماعات «أحباء الهيكل» (شوشاراي هامكداش Sho-charey HaMikdash). وقد عُقد أحدث هذه المؤتمرات في عام ١٩٩٩ وموَّلته وزارة الشئون الدينية. وكانت الوزارة السابقة تضم ستة وزراء على الأقل ممن يطالبون بضرورة السماح لليهود بتأدية الصلوات في منطقة جبل الهيكل. كما طالب قاضي المحكمة العليا، مناحم إيلون، بأن تعيد الحكومة الإسرائيلية النظر في سياستها بخصوص جبل الهيكل. أما عمدة القدس، إيهود أولمرت، فقد زج بنفسه مؤخراً في غمار المعركة بشأن هذه المنطقة.

وحتى عهدٍ قريب، لم يكن عدد «أحباء الهيكل»، الذين يرون في تدمير المساجد الكائنة في تلك المنطقة غاية ضرورية ينبغي أن ينذر البشر أنفسهم لتحقيقها، يتجاوز العشرات من النشطاء في عدد من الحركات التي ليس لها نفوذ يُذكر. إلا أن السنوات الخمس الأخيرة شهدت تزايداً كبيراً في عدد نشطاء هذه الجماعات ومؤيديها، وكذلك تنامياً للتعاطف الجماهيري مع فكرة تدمير المساجد.

ففي مقابلة مع صحيفة جيروساليم بوست 1)نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٦)، صرَّح نوام ليفنات، من زعماء حركة "حاي في قايام) "Hai v'Kayamأي حي وقائم)، بأنه يتطلع إلى وضع يمكن فيه نسف القبة الذهبية على جبل الهيكل والإطاحة بها إلى عنان السماء، واستطرد موضحاً فكرته بقوله "إذا توجَّه ثلاثة أشخاص لنسف القبة الذهبية فسوف يكونون مجرد مجانين، وإذا فعلها ثلاثون شخصاً فسوف يكون هذا تنظيماً سرياً، وإذا كانوا ثلاثمائة فهم يشكلون حركة، أما إذا كانوا ثلاثة آلاف فإن هذا يُعدُّ ثورة. إن الأمر كله يعتمد على عدد من يشاركون في هذا العمل، والهدف الذي أصبو إليه هو حشد قوة جماهيرية لتنفيذه".

وفي ١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٩٨، أثناء فترة حكم بنيامين نتنياهو، عُقد "المؤتمر السنوي لأحباء الهيكل" في مركز "بنياناي ها أوما الدولي للمؤتمرات" بالقدس. وشارك في المؤتمر آلاف الأشخاص من الدينيين القوميين وغلاة اليهود الأرثوذكس واليهود العلمانيين، ودعا خلاله الحاخامات إلى ضرورة اتخاذ ترتيبات جوهرية لبناء الهيكل في نفس موقع المساجد. وكانت الدعوات للمؤتمر موجهة من رئيس "لجنة الدستور والقانون والعدل" في الكنيست وعضوة الكنيست حنان بورات (الحزب الديني القومي)، وقد طُبعت على أوراق الكنيست الرسمية. وأعرب رئيس لجنة

الكنيست هذه عن ترحيبه بالمشاركين، كما حيًا المؤتمر عضو الكنيست موشي بيليد (حزب تسوميت)، وكان يشغل آنذاك منصب نائب وزير التعليم. وهكذا، بارك الكنيست وباركت الحكومة الإسرائيلية، بشكل رمزي واضح، خطط »أحباء الهيكل« .

ويبدو أن هناك عدة منظمات ضالعة بشكل نشط في تعزيز فكرة بناء الهيكل الثالث على مستوى الممارسات العملية. وتنشط كل منظمة في العمل في مجالها الخاص، ولكنها تتفق مع المبادئ العامة لـ »أحباء الهيكل«، التي تقوم على نظرية المراحل، بدءاً بدراسة واستعادة الممارسات والشعائر المتعلقة بالهيكل وانتهاءً ببناء الهيكل في نفس موقع المساجد في منطقة جبل الهيكل. وهناك طائفة واسعة من جماعات التأييد من بينها هيئات دينية يهودية مثل المحكمة الحاخامية لجبل الهيكل، ومنظمات لا تهدف للربح مقرها في القدس مثل "عتيريت كوهانيم Aterett Co-hanim" التي تركِّز على شراء ممتلكات بالقرب من حوائط جبل الهيكل، ومنظمات متطرفة مثل "شوفو بانيم "Shuvu Banim، وجماعات " ييشا) "Yesha وهي اختصار كلمات "يهودا" و"السامرة" و"غزة")، و"زو أوتزينو "Zo Artzenu، بالإضافة إلى بعض الحاخامات والشخصيات العامة.

الفصل الخامس
خرافات صهيونية أخرى

بين النبوءة الصهيونية...
والحقيقة الإسرائيلية

تدعي الصهيونية أنها رؤية مبنية على تحليل موضوعي للواقع وأن تنبوءاتها هي تنبوءات علماء دارسين للواقع عارفين به. بل إن بعض العرب يعتقدون أن كل التنبوءات الصهيونية بخصوص الشرق الأوسط تحققت، أو على الأقل آخذة في التحقق. ومما لا مراء فيه أن جزءاً لا بأس به من البرنامج الصهيوني قد نُفذ رغم مقاومة العرب وكفاحهم. وعلى سبيل المثال، شيدت في جزء غال من وطننا العربي دولة إسرائيل بعد أن أُخرج الفلسطينيون عنوة من ديارهم، وتحتل قوات هذه الدولة الآن جزءاً من سوريا ومن جنوب لبنان، فضلاً عن قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن. وكانت "الدولة اليهودية" هي الهدف الأساسي للبرنامج الصهيوني، أما سياسة إسرائيل التوسعية فهي ولا شك تطبيق عملي له.

نعم قامت الدولة اليهودية! ولكن هل تحققت كل أو حتى معظم التنبؤات الصهيونية؟ إن دراسة البرنامج الصهيوني، أو الواقع الإسرائيلي، تقود المرء لأن يجيب على هذا السؤال بالنفي، فمن الأهداف النظرية الأساسية لحركة الصهيونية جمع شمل اليهود المشتتين، وهذا الهدف لم يتحقق من قريب أو بعيد. فإسرائيل لا تزال دولة أقلية نظراً لأن يهود العالم، وخاصةً يهود أمريكا

المندمجين، يرفضون تنفيذ النبوءة الصهيونية بالهجرة إلى أرض الميعاد، مكتفين بالتشوق الدائم لها، ولا تزال الدول التي يعيشون فيها، وليس الدولة اليهودية، تمثل مركز الدينامية بالنسبة لهم. وتسيطر على الشعب الإسرائيلي ذاته عقلية الأقلية الفزعة: من تطرف وخوف دائم وتمجيد زائد لكل ما يتصل بهم وبتراثهم.

ويتجه الشباب اليهودي في الدياسبورا، في البلاد الغربية الرأسمالية (وفي البلاد الاشتراكية)، نحو الحضارة السائدة، وهي حضارة لا تساعدهم البتة على تطوير جوهرهم اليهودي لأنها حضارة عملية علمانية. كما أن أعداداً كبيرة من الشباب اليهودي المتمرد ينخرط في سلك الحركات اليسارية، وهي حركات دولية معادية للمفاهيم الصهيونية الشوفينية الضيقة، خاصةً وأن الصهيونية الآن غير قادرة على أن تبرز واجهة يسارية (كما كانت تفعل في الماضي)، وإنما تقدم نفسها أساساً على أنها أيديولوجية البورجوازية اليهودية، وتقدم إسرائيل على أنها بلد المشاريع الرأسمالية الخاصة. وبهذا يكون الصهاينة قد فشلوا أيضاً في تحرير اليهود من (منفى الروح). ولم تنجح الصهيونية في منع الشباب اليهودي من الانضمام للحركات الاشتراكية اليسارية (كما كانت تزعم).

وكانت الصهيونية تدعي أنها ستخلق حياة سوية للشعب

اليهودي خالية من الهامشية والطفيلية، ولكنها في الواقع لم تنجح إلا في خلق جيتو سياسي كبير يسمى إسرائيل تعيش فيه قلة من (الشعب اليهودي) مكونين بذلك أقلية يهودية جديدة تحيا حياة هامشية لا جذور لها، متمركزة أساساً في المدن، وتعيش على المعونات التي تأتيها من يهود العالم ومن الدول صاحبة المصلحة في المنطقة.

ولا يزال اليهود المنفيون يعانون مما يسميه الصهاينة ومعادو اليهود واليهودية ازدواج الولاء الحضاري والسياسي. وقد عمق إنشاء دولة إسرائيل هذا الازدواج، لأن ولاءات اليهود الآن موزعة بين دولتين قد ينشأ بينهما تناقض في المصالح والقيم (كما هو الحال بالنسبة لليهود السوفيت ويهود الكتلة الشرقية عامة).

والدولة اليهودية التي شيدها الصهاينة ليست هي المدينة الفاضلة التي تحدث عنها المفكرون الصهاينة بل هي أبعد ما تكون عن كونها دولة "أمة الروح" التي تقدم لأمم الأرض مثلاً يُحتذى، كما كان الصهاينة الأوائل يصفونها. إنها في واقع الأمر ثكنات عسكرية ضخمة منظمة تنظيماً عسكرياً رهيباً لم يعرف مثله التاريخ الحديث حتى ولا في ألمانيا النازية. ويواجه المجتمع الإسرائيلي معظم المشاكل التي يواجهها أي مجتمع صناعي حديث _ وبذلك تبخرت فكرة الشعب المختار بعد مواجهة قصيرة

مع الواقع العملي. لقد أثبت الواقع أن مزاعم الصهاينة هي نتاج رؤيتهم الطوباوية الأسطورية، وأنها لا علاقة لها بأبعاد الشخصية اليهودية.

ويلاحظ كثير من المفكرين أن الدولة اليهودية لم تنجح حتى الآن في إنتاج مفكر يهودي واحد له ثقل كبير (مع العلم بأن مارتن بوبر لا يمكن أن يُعد إسرائيلياً). ولهذا لا يزال يهود المنفى، رغم أنهم يدفعون الكثير من المعونات المالية لإسرائيل، منفصلين روحياً عنها تمام الانفصال. بل ويفضل كثير من الباحثين الآن أن يميزوا بين اليهود (في الدياسبورا) والإسرائيليين (وخاصةً الصابرا)، باعتبار أن ما يُسمى "الحضارة الإسرائيلية الحديثة" نتاج ظروف مختلفة عن الظروف التي شكلت الشخصية اليهودية. والواقع أن نموذج الصابرا الجديد يكن الاحتقار الشديد لنموذج يهودي الدياسبورا الذي تتسم حياته بالسلبية وبالتقبل لحكم الأغيار.

وقد ظهر هذا الاختبار بصورة خاصة أثناء محاكمات أيخمان في تل أبيب، حيث تبين الجيل الجديد (الإسرائيلي) كيف أن اليهود ذبحوا ذبح الشياة دون مقاومة أو كفاح. وبينما يتهم الصهاينة يهود المنفى بأنهم لا يشتغلون إلا بأمور الكتابة والفكر نجد أن جيل الصابرا، الذي وُلد على أرض فلسطين المحتلة، معادٍ للعقل (أي أنه صهيوني حتى النخاع)، كما أنه معادٍ للفكر الإنساني

عامة (دون معاداة للحلول العملية والتفكير العملي). وهو في هذا نتاج حقيقي للفكر الصهيوني أيضاً، خاصةً الصهيونية السياسية العملية، التي تعادي الأخلاق والفكر والتنظير، مفضلة اللجوء إلى الفعل، والفعل السريع الذي يخلق (حقائق جديدة) على حد تعبير موشى ديان. وجيل الصابرا هو جيل حضارة التكنولوجيا الذي لا يكترث بالتراث، كما أنه جيل تسيطر عليه الثقافة الشعبية ذات الصبغة الأمريكية. ولهذا تنتشر أفلام رعاة البقر وأفلام الجريمة والإثارة الجنسية في إسرائيل. وعلى عكس ذلك، نجد أن يهود المنفى في أمريكا هم أقل قطاعات المجتمع الأمريكي ارتباطاً بقيم مجتمعهم.

آين بريرا _ لا خيار

لحظات نادرة هي التي يعبر فيها الوجدان الصهيوني عن مخاوفه وقلقه، وعما أسميه "الهاجس الأمني"، الذي يرى الصهاينة أنه يعود إلى تجربة اليهود مع الاضطهاد على يد شعوب الأرض والطرد من أوطانهم، وهي التجربة التي وصلت إلى ذروتها مع الإبادة النازية لليهود. أما أعداء اليهود فهم يقولون إن الهاجس الأمني سببه جبن الشخصية اليهودية وحرصها الشديد على الحياة الدنيا! ومثل هذه الأطروحات تفترض وحدة اليهود وأنهم كيان مستقل عما حولهم.

ولكن أية نظرة متمعنة ستبين أن الهاجس الأمني عند المستوطنين الصهاينة لا يختلف عن الهاجس الأمني الذي يشعر به كل المستوطنين في كل الجيوب الاستيطانية، ومصدره هو الخوف من السكان الأصليين الذين اغتُصبت أرضهم، والذين قد يهبون في أية لحظة للمطالبة بها ولطرد المغتصبين. هذا ما حدث للمستوطنين الأمريكيين البيض في أمريكا الشمالية، وهذا ما حدث لهم في أستراليا ونيوزيلندا والجزائر وجنوب أفريقيا. انظر على سبيل المثال لهذه المقطوعة الوصفية: "كان الرجال يمسكون بالمحراث بإحدى أيديهم والبندقية بالأخرى، وكانوا يعدون من المحظوظين إن لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق إما في الحقول أو في مخزن الغلال".

تقدم هذه المقطوعة صورة مزارع مسلح يعمل فيما أسميه "الزراعة العسكرية"؛ أي الزراعة الاستيطانية، وهي الزراعة التي تختلط فيها مهنة الزراعة بمهنة القتال، فهي زراعة تتم على أرض مغتصبة، يقف أصحابها الأصليون على حدودها يقرعون الأبواب بلا هوادة.

والمقطوعة السابقة مقتبسة من قصة قصيرة أمريكية "دفن روجر ملفن" لناثانيال هوثورن، كتبها في منتصف القرن التاسع عشر، ويصف فيها المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية، ولكنها

أيضا تصلح لوصف المستوطنين الصهاينة والمؤسسات الإسرائيلية الزراعية العسكرية مثل الكيبوتس.

الهاجس الأمني إذن ليس له جذور يهودية وإنما جذوره استيطانية. وهذا ما أدركه بعض أعضاء النخبة السياسية الحاكمة، وكثير من الأدباء الصهاينة (والخطاب الأدبي [على عكس السياسي] يفصح عن مكنونات النفس البشرية وهواجسها لأنه يعبر عن كيان الإنسان ولا وعيه. أما في حالة الخطاب السياسي، فالمتحدث عادةً ما يأخذ حذره، ويراقب كلامه فلا يُظهر ما يبطن).

وقد فعل موشيه ديان عكس هذا تماماً، في الخطاب الذي ألقاه في إبريل/نيسان ١٩٥٦ أمام قبر صديقه الشاب روي روتنبرج، ضابط الأمن في إحدى الكيبوتسات (ناحال أوز)، والذي لقي مصرعه على يد الفدائيين الفلسطينيين. وكلمة ديان تستحق أن نقتبسها بكاملها، فهي لحظة صدق نادرة:

"فجر أمس قُتل روي، أعماه هدوء الصباح الربيعي ولم ير هؤلاء الذين طلبوا حياته المختبئة خلف الأحراش.

"دعونا اليوم لا نلقي اللوم على القتلة، ما الذي يمكن أن نقوله ضد كراهيتهم البشعة لنا؟ ثماني سنوات الآن وهم يقيمون في معسكرات اللاجئين في غزة، ويرون بأم أعينهم كيف ننقل لوطننا الأراضي والقرى التي امتلكوها وامتلكها أجدادهم من قبل.

"علينا أن نطلب دم روي من بيننا وليس من بين عرب غزة، كيف غمضنا أعيننا ورفضنا أن ننظر بواقعية إلى مصيرنا، ونرى قدر جيلنا بكل وحشيته؟ هل يمكن أن ننسى أن هذه المجموعة من الصغار، التي تقيم في ناحال أوز، تحمل علي أكتافها غزة الثقيلة؟

"ما وراء أحراش الحدود يبرز بحر من الكراهية والثأر: ثأر يتطلع لليوم الذي سيقوم فيه الهدوء بكسر حدة حذرنا، اليوم الذي نذهب فيه للسفراء المنافقين الذين يطالبوننا بإلقاء سلاحنا، علينا، وعلينا وحدنا، يصرخ دم روي من جسده المغدور، لأننا أقسمنا آلاف المرات أن دماءنا لم تُسفك هدراً. إلا أنه بالأمس فقط قاموا بإغوائنا، وسمعنا وصدقنا.

"دعونا اليوم نراجع أنفسنا، نحن جيل الاستيطان وبدون عمود الصلب وفوهة البندقية لن يمكننا زراعة شجرة أو بناء بيت، دعونا لا نخشى الاطلاع على الكراهية التي تستهلك وتملأ حياة المئات (الآلاف) من العرب الذين يعيشون حولنا، دعونا لا نغفي طرفنا حتى لا تضعف أسلحتنا. هذا هو نصيب جيلنا، هذا خيارنا -لن نكون مستعدين ومسلحين، قساة خشنين- فإذا سقط السيف من يدنا قصرت أعمارنا.

"إن روي الشاب الذي رحل من تل أبيب ليبني بيته عند بوابات غزة ليكون طليعة لشعبه _أعمى النور في قلبه بصره، فلم ير

وميض السيف، أصم الحنين للسلام أذنيه ولم يسمع صوت القاتل يترصده، وأثبتت بوابات غزة أنها ثقيلة على كتفيه، وتغلبت عليه".

والكلمة حزينة ولكنها ليست مأساوية، وإنما قدرية، وهي ترى أن الإسرائيلي هو الضحية، وأن العرب هم المعتدون، ولكن مهما كان الأمر ساد بين الإسرائيليين اصطلاح "آين بريرا"، أي لا خيار، أي أن على المستوطنين الصهاينة أن يحاربوا -يحاربوا دائمًا- يحاربوا أبدًا ضد عدو لم يهدأ له بال، لا في عام ١٩٤٩ ولا في عام ١٩٥٩ ولا في عام ١٩٩٩.

وفي هذا الإطار لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب الذين يخدمون في الجيش يشعرون أن أهلهم يقدموهم قربانًا على مذبح الدولة، هذا الوثن الأعظم، الذي شبهه أحد الحاخامات المعادين للصهيونية، بأنه مثل العجل الذهبي، فهي -كما قال الشاعر- تضحية علمانية لإسحق (المقابل التوراتي لسيدنا إسماعيل). ولنتخيل سيدنا إبراهيم يقوم بذبح ابنه، ولكنه لا يؤمن بإله.

وقد تحدث الشاعر حاييم جوري بمرارة عن أن كل إسرائيلي يولد "وفي داخله السكين الذي سيذبحه" ثم أضاف إن تراب إسرائيل لا يرتوي، "فهو يطالب بالمزيد من المدافن وصناديق الموتى". مرة أخرى تبدو الدولة الصهيونية مثل الوثن الأصم

المتعطش للدماء.

لقد تعمق الإحساس بالضياع لدى الإنسان الإسرائيلي لا بسبب "تراثه الصهيوني" وإنما بسبب وضعه الاستيطاني، وهو وضع أودى به وأدخله في حروب مستمرة. ولا شك أن الهاجس الأمني والإحساس بالقدرية وخيبة الأمل قد تعمق بعد انتفاضة الأقصى والاستقلال. ألم تكن نقطة الانطلاق الصهيونية هي أن فلسطين "أرض بلا شعب"، فما بال هؤلاء الرجال والأطفال والنساء والشيوخ يلقون بالحجارة، بل ويطلقون النار عليهم، ألم يكن من المفروض أن يكونوا غائبين؟

الجمود الإدراكى

ورث الصهاينة الرؤى الأسطورية والتوراتية المعادية للتاريخ، ولهذا تتسم الرؤية الصهيونية للتاريخ بكثير من جمود ولا تاريخية وحلولية الرؤية اليهودية القديمة. وتزخر الكتابات الصهيونية بعبارات تلمودية تؤكد انعزالية اليهود وتميزهم الحضاري ونقاءهم العرقي. ويتضح أثر الرؤية التلمودية على طريقة إدراك الصهاينة للواقع التاريخي في فلسطين في أواخر القرن الماضي، فهم حينما نظروا إلى فلسطين لم يروا أرضاً فيها شعب أو واقعاً إنسانياً تاريخياً وإنما رأوا مفهوماً تلمودياً يُدعى "إرتس يسرائيل". ولذلك، بدلاً من التعامل مع الواقع الحي بذكاء، نجدهم يلفقون شعارات

مثل "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" وهي شعارات جامدة تقترب في اتساقها الهندسي مع نفسها من الحسابات القبالية الرائعة.

وقد سيطرت الرؤية المعادية للتاريخ على القيادة الصهيونية في إسرائيل بل وعلى المجتمع الإسرائيلي ككل. وليس من قبيل الصدفة أن الزعيم الصهيوني بن جوريون هو أيضاً عالم توراتي يعرف التلمود تمام المعرفة. والإسرائيليون لا يزالون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جزء من "التاريخ اليهودي" المقدس ويرون أن انتماءهم القومي هو يهودي وحسب، وأن ثمة رابطاً تاريخياً يربط بين كل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم (وحتى الآن ترفض المحاكم تسجيل المواطنين على أنهم إسرائيليو القومية، إذ أن كلمة "إسرائيل" تصف الجنسية وحسب أما القومية فهي "يهودي").

ولعل هذا الإحساس بالانتماء الزائف لقومية وهمية ولبناء تاريخي وهمي هو الذي يفسر فشل الرأي العام الإسرائيلي حتى الآن في إدراك الوجود القومي لفلسطينيين (لأن مثل هذا الإدراك ينسف الادعاءات الصهيونية/الإسرائيلية من جذورها)، ويفسر تصورهم أن مقاومة الاحتلال الصهيوني ضرب من ضروب الإرهاب.

ونظراً لأنه يدور في مطلقات لا سند لها في الواقع، يظهر هذا

الإحساس المعادي للتاريخ على هيئة جمود إدراكي حاد. ولا شك أن هرتزل حينما حضر إلى مصر أدرك أن المنطقة مليئة بالإمكانيات البشرية وأن التاريخ سيكنس المستعمرين حتماً، ولكنه كان في اليوم التالي لتدوينه ملاحظته الذكية يفاوض المندوب السامي البريطاني في إمكانية إنشاء دولة استيطانية لحماية المصالح البريطانية التي سينسفها جدل التاريخ! والأمر لا يختلف كثيراً بالنسبة لمعظم الزعماء الصهاينة الذين كانوا يتعامون دائماً عن الوجود العربي (إلا قلة قليلة مثل بوبر أوماجنيس).

وقد لعب هذا الجمود الإدراكي ذاته دوراً خطيراً في حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣، فلقد كان عند الإسرائيليين من الدلالات ما يؤكد أن العرب يستعدون للحرب وأن المصريين سيعبرون القناة إلى سيناء. ولكن الدلالات ظلت معلومات مبعثرة لا ينظمها أي إطار ولا يحددها اتجاه واضح، لأن الإطار والاتجاه لا يمكن أن يدركهما إلا قارئ للتاريخ ومؤمن به، والإسرائيليون لا يمكنهم أن يقرأوا التاريخ بذكاء ولا أن يؤمنوا بحركته لأنهم لو فعلوا لآمنوا بحتمية يقظة العرب (وهذه مقولة قد اقتطعوها من الاعتبار تماماً)، وهي يقظة ستؤدي إلى سقوط واختفاء الكيان الصهيوني الشاذ المزروع ميكانيكياً في تاريخ المنطقة.

ويظهر الرفض الصهيوني والإسرائيلي للتاريخ بشكل واضح في تصريحات الزعماء الصهاينة والقادة الإسرائيليين. فهم حينما

يستخدمون كلمة "تاريخ"، فإنهم كأساس لا يشيرون إلى التاريخ الحي المتعين وإنما إلى العهد القديم أو إلى تراثهم الديني، المكتوب منه أو الشفوي. ولذا، تصبح الحدود التاريخية هي "الحدود المقدسة المنصوص عليها في العهد القديم (من نهر مصر إلى الفرات)"، وهي حدود لم يشغلها اليهود في أي لحظة من تاريخهم، ولا حتى أيام داود أو سليمان، ولم يرها أي زعيم صهيوني حتى الآن. و"الحقوق التاريخية" هي أيضاً الحقوق المقدسة التي وردت في العهد القديم والتي تؤكد أنهم شعب مقدس مختار له حقوق تستمد شرعيتها من العهد الإلهي الذي قطعه الإله على نفسه لإبراهيم.

وإذا كانت الرؤية اليهودية القديمة تستند إلى اقتصاديات الجيتو الهامشية، فإن الرؤية الإسرائيلية الحديثة المعادية للتاريخ تستند إلى اقتصاديات إسرائيل الهامشية الطفيلية، فهي دولة طفيلية ممولة من الخارج من قبل يهود الدياسبورا والإمبريالية العالمية. والدارس للحياة في إسرائيل يجد أن الوكالة اليهودية تمول كل شيء ابتداءً من البرامج الإذاعية واستيعاب المهجرين وانتهاءً بالمخابرات الإسرائيلية. ومثل هذا التمويل يساهم بلا شك في عزل الإسرائيليين عن واقعهم الاقتصادي والتاريخي ويجعلهم قانعين بالتهويم في أجواء المطلقات اللاتاريخية.

إجماع المستوطنين

تساقطت وتفككت كثير من بنود الإجماع الصهيوني، حتى أن دارسي الكيان الصهيوني يذهبون إلى أن الصهيونية لم تعُد هي الأيديولوجية التي تهدي المستوطنين في سلوكهم ولم تعُد هي الإطار الذي يدركون العالم من خلاله. وهذا القول - في تصوري - صحيح إلى حدٍّ كبير. ولعل أكبر دليل على هذا هو الفتور وعدم الاكتراث تجاه المؤتمرات الصهيونية. انظر على سبيل المثال إلى ما حدث في المؤتمر الصهيوني الثالث والثلاثين الذي عُقد في القدس في ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٧: وصل عيزرا وايزمان، رئيس الدولة، وبنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء، متأخرين عن موعدهما. ولذا، فإن الصحف الإسرائيلية لم تُعر المؤتمر اهتماماً كبيراً، ونشرت أخباره مقابل صفحة الوفيات. وفي المؤتمر الثاني والثلاثين الذي عُقد في القدس في يوليو/تموز ١٩٩٢ أحس الجميع بأن "المولد الصهيوني" قد أوشك على الانفضاض، وأن المنظمة الصهيونية أصبحت "عظاماً جافة" و"هيكلاً بدون وظيفة" (ميزانية المنظمة ٤٩ مليون دولار مقابل ميزانية الوكالة اليهودية التي بلغت ٤٥٠ مليون دولار). وقد تساءل مراسل الإذاعة الإسرائيلية "هل لا تزال هذه المؤسسة قائمة؟" وقد استُنفد معظم الوقت في تدبير التعيينات في المناصب والصراع على الوظائف

رغم أنه كان قد وُوفق على معظمها قبل المؤتمر.

وقد أُثيرت في الآونة الأخيرة شكوك قوية -من جانب كثير من القيادات والتيارات الصهيونية- حول جدوى المؤتمرات الصهيونية ومدى فاعليتها. إذ يرى الكثيرون أن المؤتمرات تحوَّلت إلى منتديات كلامية وأصبحت عاجزة عن مواجهة المظاهر المتفاقمة للأزمة الشاملة للحركة الصهيونية ودولتها، والتي تتمثل في مشاكل النزوح والتساقط واندماج اليهود في مجتمعاتهم والزواج المُختلَط والتمايز بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، بالإضافة إلى انفضاض يهود العالم عن حركة الصهيونية مما يكرس عزلتها. ومن أبرز الدلائل على تلك الأزمة أن المؤتمرات الصهيونية المتتالية لم تفلح حتى الآن في الاتفاق على حلٍّ لمشكلة من هو اليهودي ومن هو الصهيوني رغم أنها تأتي دائماً في مقدمة الموضوعات المطروحة على جدول الأعمال في المؤتمرات المختلفة. ورغم أن البعض يحاول أن يُرجع هذا العجز إلى أسباب فنية وتنظيمية، إلا أنه بات واضحاً أن مظاهر الأزمة ذات طبيعة تاريخية وحتمية تتجاوز الحدود التنظيمية لتصل إلى جذور المشروع الصهيوني نفسه وإلى طابع نشأته وتطوره. ولهذا، فليس من قبيل المبالغة أن يُضاف عجز المنظمة الصهيونية العالمية بهيئاتها المختلفة، ومنها المؤتمر، إلى مجمل المظاهر العامة لأزمة الحركة الصهيونية.

ولعل ظهور ما بعد الصهيونية هو تعبير عن مدى عمق أزمة الأيديولوجية الصهيونية (كلمة »بعد« في الخطاب الفلسفي الغربي تعني أن النموذج المهيمن قد ضمر وذوى، ولم يولد نموذج جديد يحل محله، أي أن ثمة أزمة على مستوى النموذج لم يظهر لها حل بعد، ولعل الكلمة تعني أيضاً »نهاية«. ومن أهم مصطلحات المابعد مصطلح »ما بعد الحداثة« الذي صيغ مصطلح »ما بعد الصهيونية« قياساً عليه).

ويصاحب ظاهرة ما بعد الصهيونية ظاهرة المؤرخين الجدد الذين جعلوا همهم تقويض الأساطير الصهيونية. ويمكن أن نضم لهؤلاء المؤرخ زئيف هرتزوج الذي بيَّن أن كثيراً من الأساطير التوارتية التي يستند إليها الصهاينة ليس لها سند تاريخي. وقد طُرح عليه السؤال التالي: "إذا كان الأمر كذلك، فماذا تفعلون هنا في شرقنا العربي؟" فأجاب: "نحن هنا لأننا هنا". وهي عبارة بسيطة لكنها تخبئ الوضع الصهيوني الحالي وهو أن الديباجات اليهودية هي مجرد ديباجات وأن الجيب الاستيطاني الصهيوني قائم في إطار الاستعمار الدارويني الذي يغيِّر الواقع عن طريق العنف وقوة السلاح والدعم الغربي. وأن المستوطنين الصهاينة لا يختلفون عن أي مستوطنين آخرين، سلبوا الأرض وحاولوا سحق

السكان. وأن كل حديثهم عن السلام هو حديث عن سلام في ضوء إجماع المستوطنين على البقاء بحد السلاح.

ولننظر الآن لمعزوفة السلام الإسرائيلية. تبدأ هذه المعزوفة بالمناداة بالبُعد عن عُقَد التاريخ وأن تتناسى كل دول المنطقة خلافاتها لمواجهة الخطر الأكبر (الاتحاد السوفيتي_ الإسلام ... إلخ). وأن نقطة البداية لابد أن تكون الأمر الواقع. وهذا المفهوم يفترض أن إسرائيل ليست التهديد الأكبر. مع أن الأمر الواقع الذي يُطلَب منا أن نبدأ منه يقول عكس ذلك. فهو أمر واقع مؤسَّس على العنف ويؤدي إلى الظلم والقمع، وهو ليس ابن اللحظة وإنما هو نتيجة ظلم تاريخي ممتد من الماضي إلى الحاضر. وهذا الظلم والقمع هو مصدر الصراع والحروب والاشتباك. فالمسألة ليست عُقَداً آنية أو تاريخية، وإنما بنية الظلم التي تشكلت في الواقع ولا يمكن تأسيس سلام حقيقي إلا إذا تم فكُّها.

وبعد تناسي عقد التاريخ، يطالب الصهاينة بوقف المقاومة واستسلام الفدائيين مقابل تسليم بعض مدن وقرى لا "تنسحب" منها القوات الإسرائيلية الغازية وإنما "يُعاد نشرها"، وهذا ما يسمونه «الأرض في مقابل السلام». والقوات الإسرائيلية لا تنسحب، لأن أرض فلسطين هي أرض الشعب اليهودي، والقوات

الوطنية لا تنسحب من أرض الوطن وإنما يعاد نشرها وحسب. ولذا، رغم اتخاذ هذه الخطوة الرمزية الإعلامية، فإن الاستيطان سيستمر على قدم وساق والقدس ستظل عاصمة إسرائيل الأبدية.

إن كل هذه التصورات للسلام تنبع من إدراك أن أرض فلسطين هي إرتس يسرائيل، وأن الإسرائيليين لهم حقوق مطلقة فيها. أما الحقوق الفلسطينية فهي مسألة ثانوية، فالأرض في الأصل أرض بلا شعب. وتتبدّى هذه الخاصية بشكل واضح ومتبلور في المفهوم الإسرائيلي للحكم الذاتي.

ولا يختلف تصوُّر إسرائيل لمستقبل المنطقة كثيراً عن ذلك، فالمركز هو إسرائيل وهي التي تمسك بكل الخيوط، أما بقية "المنطقة" فهي مساحات وأسواق. وإسقاط عُقَد التاريخ هنا يعني إسقاط الهوية التاريخية والثقافية بحيث يتحول العرب إلى كائنات اقتصادية تحركها الدوافع الاقتصادية التي ليس لها هوية أو خصوصية. هنا تظهر سنغافورة كصورة أساسية للمنطقة وكمثل أعلى: بلد ليس له هوية واضحة ولا تاريخ واضح، نشاطه الأساسي هو نشاط اقتصادي محض. وحينما يتحول العالم العربي إلى سنغافورات مفتتة متصارعة فإن الإستراتيجية الاستعمارية والصهيونية للسلام تكون قد تحققت دون مواجهة ومن خلال "التفاوض" المستمر.

الحرباء الصهيونية والمؤتمر الصهيوني

اختتم المؤتمر الصهيوني الرابع والثلاثون أعماله في القدس يوم ٢٠ يونيو/حزيران ٢٠٠٢ وأصدر بعض القرارات وأثار بعض القضايا. وحتى نفهم ما جرى حق الفهم، وحتى ندرك العلاقة الحقيقية بين الأيديولوجية الصهيونية والتجمع الصهيوني قد يكون من الضروري أن نبدأ بذكر بعض الحقائق.

فالمؤتمر الصهيوني هو الهيئة العليا للمنظمة الصهيونية العالية وقراراته هي التي ترسم الخطوط العامة لسياسات المنظمة. ويتألف المؤتمر من المجلس الصهيوني العام الذي يتولى مهام المؤتمر في غير أوقات انعقاده ويراقب تنفيذ قراراه)، واللجنة الصهيونية التنفيذية (التي تدير الشؤون اليومية للمنظمة الصهيونية عبر دوائرها المختلفة والتي يرأسها عضو أو أكثر من أعضاء اللجنة). وإلى جانب المنظمة الصهيونية توجد الوكالة اليهودية، وهي هيئة مشكلة اسماً ولكنها تُعد فعلاً الساعد التنفيذي (الاستيطاني) للمنظمة الصهيونية العالمية. ويحاول يهود الشتات (أي يهود العالم خارج فلسطين) الذين يشكلون المصدر الأساسي للموارد المالية للوكالة أن يمارسوا بعض الضغط على الحكومة الإسرائيلية وعلى المنظمة الصهيونية من خلال الوكالة. ولذا يلاحظ أن ٥٠ بالمئة من أعضاء الأجهزة القيادية للوكالة اليهودية تعينهم المنظمة الصهيونية

(من الأحزاب السياسية الإسرائيلية طبقاً لنسبة تمثيلها في الكنيست ومن التجمعات الصهيونية في أنحاء العالم) أما الباقون، أي ٥٠ بالمئة، فإنهم يعينون من قبل منظمات الجباية العاملة بين الجماعات اليهودية في العالم. وبهذا فإن العناصر التي لا تنضوي تحت لواء الصهيونية (والحكومة الإسرائيلية) تتوفر لها فرص هيكلية تنظيمية ونفوذ سياسي متزايد.

هذه، باختصار شديد، بعض الحقائق اللازمة لفهم ما حدث في المؤتمر الصهيوني الأخير، والصراعات التي ثارت حوله. ولمعرفة منزلة الأيديولوجية الصهيونية والمنظمة الصهيونية في إسرائيل تجدر الإشارة إلى أنه منذ المؤتمر الصهيوني الثاني والثلاثين (١٩٩٢) خيَّم على المؤتمرات الصهيونية إحساس عميق بأن "المولد الصهيوني" قد أوشك على الانفضاض، وأن المنظمة الصهيونية أصبحت "عظاماً جافة" و"هيكلاً بدون وظيفة"، وقد تساءل مراسل الإذاعة الإسرائيلية: "هل ما زالت هذه المؤسسة قائمة؟". وتكرر نفس الوضع في المؤتمر الثالث والثلاثين (1997) فقد وصل عيزرا وايزمان رئيس الدولة حينذاك وبنيامين نتنياهو رئيس الوزراء متأخرين عن موعدهما، ويقال إن أحد الوزراء فضَّل أن يمكث في منزله ليشاهد مباراة كرة قدم على أن يحضر جلسات المؤتمر الصهيوني. ولم تعر الصحف الإسرائيلية المؤتمر

اهتماماً كبيراً، ونشرت أخباره في مقابل صفحة الوفيات.

ولم يختلف الأمر كثيراً هذه المرة. فقد تجاهلت الصحف اليومية المؤتمر تماماً ولم تكرس الطبعة العبرية لصحيفة "هآرتس" سوى ثلاثة أسطر له في الصفحة السادسة، ولم يحضر رئيس الوزراء ولا أي من الوزراء المؤتمر، ولم يحضره سوى رئيس الدولة كاتساف (ومنصب رئيس الدولة في إسرائيل منصب شرفي محض ليس له أي ثقل)، ومع هذا لم يمكث رئيس الدولة سوى بضع دقائق ثم انصرف لحال سبيله.

وقد بدأت أعمال المؤتمر بطريقة مسرحية مثيرة فنُفخ في "الشوفار"، وهو بوق مصنوع من قرن كبش ويبلغ طوله ما بين عشر واثني عشر بوصة، ويُنفخ في البوق في المناسبات الدينية العامة مثل عيد رأس السنة اليهودية ويوم الغفران. وعادة ما يُتلى مزمور ٤٧ الذي جاء فيه "يا جميع الأمم صفقوا بالأيادي لأن الرب عليّ، يدخل الخوف على القلوب، ملك كبير على الأرض، يخضع الشعوب تحتنا، والأمم تحت أقدامنا". وقد قامت الحركة الصهيونية بعلمنة هذا التقليد الديني، فيُنفخ في البوق حين يؤدي رئيس الدولة اليمين أو حين تحقق القوات الإسرائيلية نصراً عسكرياً مثل احتلال شبه جزيرة سيناء (عام ١٩٥٦) أو احتلال

القدس (١٩٦٧).

وهذه هي إحدى سمات الصهيونية، أي استخدام الرموز الدينية (الشوفار) وإفراغها من مفهومها حتى تتحول إلى رموز صهيونية دينية المظهر علمانية (بل وثنية) المخبر. ولذا ليس من الصعب أن يتبع النفخ في الشوفار عزفاً على القيثار ثم يتبع كل هذا بعض الرقصات والموسيقى الصاخبة والصواريخ، كما كانت هناك آلات تنفث الدخان (كما هو الحال في صالات الديسكو وفي بعض الأفراح الحديثة). والطريف أن هذه الآلات استُخدمت أثناء إلقاء كاتساف لخطابه وكأنه أحد كبار المغنيين أو النجوم السينمائيين، بل وكان هناك لاعبا أكروبات قدما ألعابهما بدون شبكة أمان. ثم عُرض فيلم على خمس شاشات، وكان الفيلم خليط من الرؤية الأسطورية الصهيونية القديمة ورؤى ما بعد الصهيونية التي تحاول أن تتجاوز الأساطير الصهيونية. فعلى سبيل المثال، تحاشى الفيلم استخدام عبارة "إرتس يسرائيل"، بتضميناتها التوسعية، حيث تضم كل الأراضي من النهر إلى البحر (نهر الأردن إلى البحر المتوسط) أو على جانبي النهر (أي نهر الأردن بما يعني شرق الأردن) بل وأحياناً)حينما تتفتح الشهية الصهيونية) من النهر إلى النهر (من النيل إلى الفرات، وهذه

ليست قرية عربية كما يدعي الصهاينة. وعلى من يريد أن يجد توثيقاً لهذه العبارة أن يعود إلى يوميات هرتزل وإلى كثير من تصريحات الصهاينة قبل عام ١٩٤٨). ويشير الفيلم إلى إسرائيل باعتبارها دولة يهودية وديموقراطية، أي أنها لا تستبعد الأقليات مثل العرب (مسلمين ومسيحيين). ولم تكن هناك إشارات ليهودا أو السامرة ولا المستوطنات. وبالمثل، لا يشير الفيلم إلى اليهود الأرثوذكس الذين تمت صهينتهم وأصبحوا العمود الفقري للاستيطان في الضفة الغربية.

ولا غرابة في ذلك، فالخطاب الصهيوني مثل الحرباء يتلون حسب الظروف. فالصهيونية في بداية القرن العشرين، كانت تبحث عن شرعية استعمارية، ولذا طرحت نفسها على أنها حركة استيطانية استعمارية لا تختلف عن الاستيطان البريطاني في روديسيا أو كينيا أو الاستيطان الفرنسي في الجزائر. وإذا كان الإنسان الغربي قد أخذ يستعمر إفريقيا وآسيا ويسخر العالم ويستغله بسبب تفوقه العرقي (عبء الرجل الأبيض) على شعوب آسيا وأفريقيا، فقد قررت الصهيونية استعمار فلسطين بسبب تفوق العرق اليهودي على الفلسطينيين المتخلفين! ولكن في الستينيات، مع تزايد قوة حركة التحرر الوطني في العالم الثالث،

تحولت الصهيونية بقدرة قادر من حركة استعمارية إلى حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي. ولم يكلف الصهاينة أنفسهم أن يوضحوا للعالم ممن كان اليهود يتحررون؟ والآن في الألفية الثالثة مع تصاعد الخطاب البيئي وتزايد مركزية أحزاب الخضر، بدأت الحرباء الصهيونية تخضوضر هي الأخرى، فشعار "تخليص الأرض"، والذي كان يعني في الماضي الاستيلاء على الأرض الفلسطينية ومنع العرب من العمل فيها والاقتصار على العمل العبري وحسب، أصبح شعاراً بيئياً، والصندوق القوي اليهودي أصبح حركة بيئية خضراء. فهم يستولون على الأرض الآن من أجل التوازن البيئي، وليس بغرض استغلالها لحساب المستوطنين الصهاينة!.

وخلال المؤتمر هاجم بعض نشطاء حركة "ميرتس" (اليسارية) الاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية، فرفعوا لافتةً تدعو إسرائيل للانسحاب من الضفة الغربية، ولكن رغم كل هذا أطلت العنصرية الصهيونية بوجهها القبيح، وظهرت الأساطير الصهيونية العنصرية بكل قوتها وعنفوانها. فهاجم بعض أعضاء حزب الليكود من منظمة "بيتار" نشطاء حركة "ميرتس" وتبادلوا اللكمات. وإذا كان مصطلح "إرتس يسرائيل" (بما في ذلك الضفة الغربية وغزة) قد أُخفي بعناية في الأفلام الافتتاحية الدعائية، فقد

ظهر بكل قبحه أثناء المناقشات، حيث لاحظ المؤتمرون أن الأغلبية اليهودية أخذة في الانكماش (والعرب بطبيعة الحال آخذون في التكاثر) ولذا لابد من معالجة الأمر. وهذه قضية تعود إلى المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧). فأثناء المؤتمر سمع ماكس نورداو أن فلسطين يوجد فيها فلسطينيون (ويا له من اكتشاف مذهل) أي أن أرض الميعاد لم تكن جالسة تنتظر عودة اليهود إليها بعد فترة غياب استمرت قرابة تسعة عشر قرون، ولذا ذهب إلى صديقه تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية وقال له: "أنت لم تخبرني أن فلسطين مأهولة بالسكان؟"، فهدّأ هرتزل من روعه وأخبره أن الأمر سيُعالج فيما بعد. "وفيما بعد" هذه مسألة مستمرة منذ ذلك الوقت.

فما هي الحلول التي اقترحها المؤتمر الصهيوني الرابع والثلاثون؟ الحرب ضد حق العودة للفلسطينيين، والقيام بعمليات طرد واسعة للعمال الأجانب والعرب، أي الترانسفير، بدون استخدام المصطلح!

وهكذا فرغم أن الحرباء الصهيونية تتلون حسب الظروف، فإن وجهها العنصري الحقيقي القبيح، بكل وحشيته، يظهر بشكل واضح وصريح.

المؤتمر الصهيوني وخداع النفس

المؤتمرات الصهيونية مثل الأسطوانة المشروخة تكرر نفس الكلمات والنغمات إلى أن يدفعها المستمع بيديه. ولننظر الآن لقرارات المؤتمر الصهيوني الرابع والثلاثين)يونيو/حزيران ٢٠٠٢). قرر المؤتمر ضرورة الحرب ضد معاداة السامية (أي معاداة اليهود واليهودية). وهذا القرار لا يختلف عن مجموعة من القرارات صدر أولها في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) وصدرت بعد ذلك عدة مرات. ولكن الجديد هذه المرة هو أن المؤتمر قرر الحرب ضد كل من معادة السامية ومعاداة الصهيونية. ويبدو أن من صاغوا القرار نسوا الخط الصهيوني الذي يجعل من العداء للصهيونية ولإسرائيل ضرباً من ضروب معاداة السامية. ومع هذا تم تدارك الأمر، فانتفاضة الأقصى (أو وحرب التحرير الفلسطينية) فضحت الكيان الصهيوني وجعلته يكشف عن وجهه الحقيقي الإرهابي أمام العالم بأسره. ولذا قرر المؤتمر تكوين لجنة من خبراء الإعلام والقانونيين والتربويين والشخصيات العامة تكون مهمتها محاربة العداء للسامية، أي أن العداء للصهيونية والدولة الصهيونية الإرهابية أصبح مرة أخرى تعبيراً عن كره عميق لليهود وليس تعبيراً عن كره عميق للظلم والإرهاب. وعلى أية حال، فقد أكد المؤتمرون تأييدهم لرئيس الوزراء شارون وللحكومة

الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي وقوات الأمن، أي لكل مؤسسات الإرهاب الصهيوني. بل إن المؤتمر طالب الحكومة الإسرائيلية بضرورة دعم الاستيطان في النقب ووادي عربا والجليل وتشجيعه، كما دعا الحكومة إلى تذليل كل العقبات البيروقراطية التي تعوق الاستيطان في هذه المناطق.

المنظمة الصهيونية إذن تؤيد الإرهاب الصهيوني والتوسع الصهيوني وكل أفعال الدولة الصهيونية، ولهذا قرر المؤتمر ضرورة أن يُرفع علم إسرائيل في كل المؤسسات والمنظمات والمشروعات التي تدعمها المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية. ولا أعرف على وجه الدقة معنى هذا القرار _ فالعلم الإسرائيلي يُرفع حتى في كثير من المعابد اليهودية في الولايات المتحدة، وكأن الدولة الصهيونية، بكل جرائمها اليومية، أصبحت جزءاً من العقيدة اليهودية. هل هناك بعض المؤسسات اليهودية في الولايات المتحدة التي تدعمها المنظمة الصهيونية لا ترفع علم إسرائيل؟ وهل المطلوب أن ترفع هذه المؤسسات العلم حتى يؤكد الصهاينة انتماء هذه المؤسسات للشعب اليهودي وليس للولايات المتحدة؟ هل هي محاولة صهيونية لتعميق الولاء المزدوج: أي أن يشعر اليهودي أنه لا ينتمي بشكل كامل لوطنه، فهو _ حسب الرؤية الصهيونية _ يدين في المقام الأول بالولاء للوطن القومي اليهودي؟

لو قبلنا بهذا التفسير فإن هذا يوضح مغزى قرار المؤتمر بأن يطالب الرئيس جورج بوش بالعفو عن جوناثان بولارد وإطلاق سراحه. وجوناثان بولارد هو المواطن اليهودي الأمريكي الذي كان يعمل في إحدى المؤسسات الأمنية الأمريكية وانطلاقاً من صهيونيته قام بالتجسس على الولايات المتحدة لحساب إسرائيل، وسرب لها كماً هائلاً من الوثائق والمعلومات السرية مما أضر بالأمن القومي الأمريكي. فبولارد بهذا المعنى هو الرمز المتعين للولاء المزدوج.

كما أصدر المؤتمر بعض القرارات الأخرى التي يمكن أن نصفها بأنها تقليدية، نظراً لأن معظم المؤتمرات السابقة قامت بإصدار قرارات مماثلة. فقد أصدر المؤتمر قراراً بتأكيد مركزية القدس وأهمية دعم السياحة والتربية في اقتصاد عاصمة إسرائيل (أي القدس). كما أكد المؤتمر ضرورة تنمية التعليم اليهودي الصهيوني وزيادة ميزانية الحركات الشبابية. وقد لوحظ أن ٢٥ بالمئة من المندوبين في هذا المؤتمر كانوا تحت سن الثلاثين. وقد رحب المؤتمر بمشاركة الشباب ودعا الوكالة اليهودية أن تعيد لحركات الشباب المسئوليات التي كانت تضطلع بها في الماضي وأن تدعم حركات الريادة الشبابية. وقرر المؤتمر أنه يتعين على جميع مؤسسات المنظمة أن تضم ٢٥ بالمئة من القيادات الشبابية.

وتبين الخبرة الطويلة مع الخطاب الصهيوني أن التصريحات والمخططات الصهيونية قد تكون تعبيراً عن أمنيات لا أساس لها في الواقع. وأنه لابد من دراستها واختبارها على محك الواقع. لو فعلنا ذلك لاكتشفنا أن الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة لم يتصرف عن الصهيونية وحسب، بل وعن اليهودية ذاتها، وهو في هذا لا يختلف عن الشباب الأمريكي من أعضاء الأغلبية في انصرافه عن العقيدة المسيحية وعن أي انتماء ديني أو قومي. فمعدلات العلمنة آخذة في التصاعد والتوجه نحو اللذة "أصبح السمة الغالبة على الشباب اليهودي (وغير اليهودي) والزواج المختلط (أي مع غير اليهود) وصل إلى معدلات عالية للغاية (٨٠ بالمئة في بعض الولايات). كما أن هناك نسبة عالية من الشذاذ جنسياً بين أعضاء الجماعات اليهودية. وقد قرأت أكثر من دراسة عن عدم اشتراك الشباب اليهودي في الولايات المتحدة في انتخابات المنظمة الصهيونية ورفضهم دفع تبرعات للمنظمات والمؤسسات الصهيونية. ولذا فإنني أميل للقول أن القيادات الشبابية التي تشكل ٢٥ بالمئة من كل القيادات، الصهيونية هم في الغالب شباب يهودي حضر المؤتمر "للفرجة" وللسياحة.

ووسط كل هذا التأييد المحموم للدولة الصهيونية هنا

المؤتمر الوكالة اليهودية والمجلس الصهيوني لتعاونهما مع الجماعة الدرزية ودعا لتعميق العلاقة بينهما وبين هذه الجماعة باعتبارها شريكاً يمكن الاعتماد عليه في المشروع الصهيوني. ومرة أخرى يجب ألا نأخذ التصريحات الصهيونية على عواهنها. إذ إن السؤال يطرح نفسه: المشروع الصهيوني مشروع لتأسيس دولة يهودية خالصة، تضم أعضاء ما يُسمى "الشعب اليهودي"، وأعضاء الشعب اليهودي وحده، ولذا فقانون العودة الصهيوني ينطبق على اليهود أينما كانوا، ويستبعد من سواهم، بما في ذلك الدروز! وهذا ما عرفه عملاء إسرائيل من أعضاء جيش لحود في جنوب لبنان. فحينما فر الجيش الإسرائيلي حاول العملاء الفرار معه، فمنعتهم القوات الإسرائيلية من دخول أرض الميعاد! ومن نجح منهم في دخول إسرائيل عُزل في مخيمات خاصة وتم التخلص منه في أول فرصة ممكنة! وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن نصدق دعوة المؤتمر المواطنين العرب في إسرائيل إلى الاندماج في المجتمع الإسرائيلي كمواطنين لهم كافة الحقوق في الدولة؟

ومن المفارقات المضحكة أن يطالب المؤتمر بعدم التمييز ضد القطاع العربي، ثم يطالب في الوقت نفسه بالتصدي بعنف للمطلب العربي بحق العودة. ويذكرني هذا التناقض العميق بتعليق عالم

الاجتماع النمساوي اليهودي جومبلوفينش في خطاب أرسله إلى هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، الذي كان يدعي أنه يمكن تأسيس الدولة اليهودية على الأرض الفلسطينية دون إلحاق أي أذى أو ضرر بالفلسطينيين. قال جومبلوفيتش: "هل تريد تأسيس دولة دون إرهاب أو ورعب؟" وقد علق أحد دارسي الحركة الصهيونية على مزاعم هرتزل الليبرالية بقوله: إن الزعيم الصهيوني كان يود أن يعد طبقاً من "الأومليت" دون أن يكسر البيض؟ وما يحدث الآن في الأرض الفلسطينية يدل على أن مزاعم هرتزل كانت إما من قبيل خداع النفس، أو خداع العالم، أو لعلها خليط من الاثنين.

أسطورة الوطن الأصلي

أكد المؤتمر الصهيوني الرابع والثلاثين (٢٠٠٢) في قراراته على مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا وهو في هذا لا يختلف عن المؤتمر الحادي والثلاثين (١٩٨٧) الذي طرح مبدأ ثنائية المركزية (أي أن يكون ليهود العالم مركزان أحدهما في إسرائيل والثاني في الدياسبورا. أما المؤتمر الثالث والثلاثين (١٩٩٧) فطرح مفهوم مركزية إسرائيل في الحياة اليهودية، متبنياً بذلك الرؤية الأمريكية لإشكالية الهوية في المجتمعات الاستيطانية ولعلاقة المستوطن بوطنه الأصلي. فهناك أمريكيون ألمان وأمريكيون أيرلنديون وأمريكيون عرب وأمريكيون يهود.

فالأمريكيون الألمان أمريكيون وطنهم الأصلي ألمانيا، والأمريكيون الأيرلنديون أمريكيون وطنهم الأصلي أيرلندا، والأمريكيون اليهود أمريكيون ووطنهم الأصلي إسرائيل (فلسطين) (حسب التصور الصهيوني).

وتبني الرؤية الأمريكية للهوية يعني أن بوسع الأمريكي اليهودي أن يصبح مواطناً أمريكياً يندمج في مجتمعه دون أن ينصهر فيه تماماً، فهو أمريكي يحتفظ بهويته اليهودية، ومن ثم تتحقق الرؤية الصهيونية الخاصة بمركزية إسرائيل في الحياة اليهودية.

ولكن المفارقة الكبرى أن أسطورة الوطن الأصلي هي عكس الأسطورة الصهيونية تماماً، فالوطن الأصلي هو الوطن الذي تهاجر منه وليس الوطن الذي تهاجر إليه، والصهيونية تعني أولاً وقبل كل شيء الهجرة إلى فلسطين والاستيلاء عليها والاستيطان فيها. وفي دراستنا للصهيونية قسمنا الصهيونية إلى قسمين: "صهيونية استيطانية" وهي صهيونية اليهودي الذي يترك وطنه ليستوطن في فلسطين ويحمل السلاح ضد أهلها، و"صهيونية توطينية"، وهي صهيونية اليهودي الذي يبقى في وطنه ولكنه يؤيد الاستيطان فيجمع الأموال ويحضر المهرجانات الصهيونية ويساهم في توطين اليهود الآخرين في فلسطين دون أن يهاجر هو نفسه.

وقد قيل في تعريف الصهيونية التوطينية إنها صهيونية اليهودي الذي يأخذ أموالاً من يهودي آخر لتوطين يهودي ثالث في أرض الميعاد!

وبطبيعة الحال لا يقبل الصهاينة بهذا التقسيم، لأنهم لو فعلوا لفقدوا كثيراً من الشرعية، فهم يدعون أن الصهيونية هي أيديولوجية الشعب اليهودي بأسره وقانون العودة هو دعوة لكل يهود العالم للاستيطان في فلسطين، وتقسيم الصهيونية إلى استيطانية وتوطينية يعني أن قانون العودة موجه لجزء صغير من يهود العالم، وهذا ما يرفضه الصهاينة الذين استوطنوا بالفعل في فلسطين، ولهذا يمارسون ضغوطاً على يهود العالم لكي ينفضوا عن أنفسهم الصهيونية التوطينية ويتحولوا إلى صهاينة حقيقيين، أي استيطانيين. وهكذا، فمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا، بالنسبة للصهاينة الاستيطانيين والإسرائيليين، تعني الهجرة الاستيطانية. وهذا ما أكده المؤتمر الصهيوني الأخير، حيث أيد محورية الهجرة الاستيطانية كأساس لتحقيق الصهيونية، وبالتالي أعطى إسرائيل دور المركز بالنسبة ليهود العالم، معتبراً أن كل من لا يعتزم الهجرة إلى إسرائيل غير صهيوني، بل وخائن للهوية اليهودية!.

وتمثل التجمعات الصهيونية، خاصة في الولايات المتحدة،

المعارضة الأساسية لهذا الموقف الذي يقلص، بل يقوض، دورهم تماماً ويهمشهم ويشكك في صهيونيتهم. ولهذا، ترى المنظمات المؤيدة لهذا الاتجاه أن اليهود "أمة" لا ترتبط بوطن واحد، وتكتفي بالحديث عن "شعب يهودي" دون الارتباط بوطن، كما تطالب بتأكيد المشاركة بين الدولة الصهيونية ويهود العالم على قدم المساواة، وبالنظر إلى الهجرة نحو إسرائيل لا كأساس لتحقيق الصهيونية وإنما كمثل أعلى.

وقد نشبت المعارك بين الفريقين، صهاينة العالم (التوطينيين) والصهاينة الاستيطانيين، في المؤتمرات الصهيونية المتعاقبة. ففي المؤتمر الخامس والعشرين (١٩٦١) أكد بن جوريون أن الهجرة إلى إسرائيل واجب ديني وقومي على كل اليهود، لأن اليهودي لا يعبر عن إيمانه بالصهيونية إلا بوجوده في الدولة الصهيونية. وتصدى له ناحوم جولدمان، ممثل يهود العالم، فأكد أن اليهودي قد يكون صهيونياً مخلصاً مع استمراره في بلده الأصلي. وفي المؤتمر الثامن والعشرين (1972) بدأت الدولة الصهيونية تصعد حملتها لتهجير اليهود السوفييت، ولكن جولدمان اعترض على هذه الحملة مؤكداً أن من حق كل يهودي أن يبقى في وطنه الحقيقي)أي الوطن الذي يعيش فيه) لا أن يهاجر إلى وطنه الأصلي الوهمي (أي الدولة الصهيونية!).

وأحياناً ما يزداد تطرف بعض الصهاينة الاستيطانيين فيثيرون قضية حساسة، وهي كيف يمكن لهؤلاء "الزعماء الصهاينة" أن يحضروا المؤتمرات الصهيونية وأن يثرثروا عن الهوية اليهودية والارتباط الأزلي بأرض الميعاد دون أن يستوطنوا هم أنفسهم فيها؟ وفي إحدى المؤتمرات تقدم بعض الاستيطانيين بمشروع قرار يلزم من يحضرون المؤتمرات الصهيونية عدة مرات بالاستيطان في فلسطين المحتلة، فانسحب وفد منظمة "الهادساه" (المنظمة النسائية الصهيونية الأمريكية) وهي أكبر المنظمات الصهيونية على الإطلاق، ولم يعد الوفد إلى قاعة المؤتمر إلا بعد سحب مشروع القرار.

وحدث شيء مماثل في المؤتمر الأخير، حيث ألقى حاييم تسلر، أمين صندوق الوكالة اليهودية، خطاباً قال فيه إنه يفضل المهاجرين غير اليهود من الاتحاد السوفيتي السابق على هؤلاء اليهود الذين يصلون ثلاث مرات في اليوم ويبقون في نيويورك، أي أنه أعطى أولوية مطلقة للاستيطان الصهيوني تجب حتى الانتماء لليهودية. وبطبيعة الحال ثارت ثائرة المؤتمر وقامت لجنة من يهود العالم الذين يجمعون التبرعات بإقالته.

وهكذا تظل الإشكاليات الأساسية كما هي: من هو اليهودي؟ من هو الصهيوني؟ مركزية إسرائيل في حياة

الدياسيورا أم مركزية الدياسيورا في حياة يهود العالم؟ وتظل الأسطوانة المشروخة تدور، وتظل التناقضات تعتمل داخل الكيان الصهيوني، ولكنها لا تتفجر إلا بفعل المقاومة الفلسطينية.

والسبب في إثارة موضوع الهجرة الاستيطانية بهذه الحدة هو عزوف يهود العالم عن الاستيطان في فلسطين. ففي ٩ يونيو/حزيران ٢٠٠٢ (أي قبل عقد المؤتمر بعدة أيام) أُعلنت أرقام الهجرة إلى فلسطين المحتلة خلال النصف الأول من العام، وبلغ العدد ٦٤٦ مهاجراً لا أكثر ولا أقل، وأغلبهم (٤٤٠) من بلدان الاتحاد السوفيتي السابق، بينما جاء ١٥ من فرنسا، و٨ من إنجلترا، و١٣ من الولايات المتحدة وكندا!. وعلقت إحدى الصحف الإسرائيلية بقولها إن تلك الأعداد أشبه بأعداد أفواج سياحية، وأضافت أن معظم هؤلاء المهاجرين يستخدمون إسرائيل كمحطة مؤقتة، يهاجرون بعدها إلى بلاد مثل كندا وأستراليا.

ولا شك أن هذا العزوف يعود بالأساس إلى المقاومة الفلسطينية التي تبين لكل العالم أن الشعب الفلسطيني دخل حرباً من أجل تحرير وطنه، وأنه لم يعد مجرد قطعة أرض خالية يأتي لها من يشاء ليؤسس المستعمرات الاستيطانية والمنازل الفاخرة وحمامات السباحة المترفة.

التراث اليهودي المسيحي

موضوع علاقة الصهيونية بالمسيحية موضوع خلافي ومركب متعدد الأبعاد، وهو يحتاج إلى كثير من التأمل وإعادة النظر في المصطلحات فيما تخبئه من مفاهيم، إذ أنه ليس موضوعاً دينياً محضاً وإنما له بُعد سياسي. ولهذا نجد أن بعضاً ممن له مصلحة يقوم بليّ عنق المصطلحات ليفرض عليها مفاهيم معينة حتى يمكنه توظيفها لصالحه. وهذا ما فعله الصهاينة وأنصارهم. ومع الأسف، هناك في العالم العربي من ينقل ما يرد لنا من مصطلحات، ثم يرددها ببغائية مذهلة دون أن يدرك عملية التشويه التي تمت، والتي لا تخدم إلا صالح أعداء الوطن والأمة.

وقد اخترقت مثل هذه المصطلحات الخطاب التحليلي العربي. خذ على سبيل المثال مصطلحاً مثل «الحروب الصليبية»، هذه ترجمة للكلمة الغربية (الإنجليزية) crusade نسبة إلى cross، أي الصليب. وهي تعني أن الحملات الصليبية كانت حملات مسيحية، بينما يعرف أي دارس لهذه الواقعة التاريخية أنها كانت حملات استعمارية حتى النخاع والمسيحية براء منها. وقد أدرك المؤرخون العرب والمسلمون المعاصرون لهذه الحملات طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية، ولذلك كانوا يسمونها «حروب الفرنجة» نسبة إلى غالبية العنصر البشري الذي قام بالغزو والسلب والنهب

(الذي أتى أساساً من بلاد الفرانك، أي فرنسا). وهو غزو وسلب ونهب لم يكن يُفرِّق بين المسلم والمسيحي واليهودي، ولهذا قامت بعض هذه الحملات التي يقال لها «صليبية» بسلب بيزنطة عاصمة المسيحية الشرقية، بل ويقال إن هذه الحملات أنهكت قوى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، الأمر الذي جعل سقوطها في يد العثمانيين فيما بعد أمراً يسيراً. وبدلاً من استخدام المصطلح العربي القديم الدقيق، الدال على طبيعة الظاهرة، فق قمنا بترجمة المصطلح الغربي، الذي يحاول تخبئتها وتعميتها.

وإذا كان هذا هو الحال مع مصطلحات واضحة البراءة مثل «الحروب الصليبية» و«المسألة اليهودية» فما بالكم بمصطلحات مثل «التراث اليهودي المسيحي» و«الصهيونية المسيحية» اللذين شاع استخدامهما في الآونة الأخيرة؟ وهما مصطلحان يفهم منهما أن ثمة علاقة قوية، بل وعضوية، بين اليهودية والمسيحية وبين المسيحية والصهيونية. وقد بلغ المصطلحان من الذيوع أن كثيراً من الناس يتقبلونهما، وما يعبران عنه من مفاهيم، بحسبانهما من البديهيات. ولكن الرؤية المتفحصة لهذين المصطلحين تبين أن علاقتهما بالواقع واهية لأقصى حد، وأنهما مصطلحان «أيديولوجيان» بمعنى أن لهما مضموناً فكرياً متحيزاً لأيديولوجيات بعينها (الإمبريالية والصهيونية).

والملاحظ أن ثمة عنصراً أخلاقياً مشتركاً بين الديانات الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام (يصلح أساساً لعقد اجتماعي جديد). ولكن، إلى جانب نقط الاتفاق الأخلاقية، هناك نقاط اختلاف، بعضها جوهري، في رقعة أصول الدين أو لاهوته. ومصطلح «التراث اليهودي المسيحي» يتجاهل مثل هذه الاختلافات، فهو يفترض أن اليهودية والمسيحية يكوِّنان كلاً واحداً، وهو ادعاء له ما يسانده بشكل جزئي داخل النسق الديني المسيحي ولكنه لا يعبِّر بأية حال عن الصورة الكلية إذ أنه يتجاهل حقائق دينية أساسية. فهناك الاختلافات الأساسية الواضحة بخصوص طبيعة الإله وعلاقته بالبشر. كما يختلف موقف اليهودية والمسيحية من الخطيئة بشكل جوهري، فالمسيحية تؤمن بأن الإنسان ساقط بسبب الخطيئة الأولى. أما اليهودية، فلا تؤمن بالخطيئة الأولى. ولهذا يُعتبر أداء الشعائر، واتباع الأوامر والنواهي كافيان، في السياق اليهودي، لخلاص الإنسان. أما في المسيحية (الكاثوليكية على الأقل)، فلابد من قيام الكنيسة والكهنوت بعملية الوساطة حتى يتم الخلاص، فلا خلاص خارج الكنيسة.

وثمة خلافات بين العقيدتين حول فكرة المسيح، فعلى حين أن اليهودية ترى المسيح باعتباره شخصية سياسية قومية سيقود

شعبه إلى صهيون ويعيد بناء الهيكل ويؤسس المملكة اليهودية مرة أخرى، فإن المسيح في العقيدة المسيحية إله/إنسان مهمته خلاص كل البشرية لا الشعب اليهودي وحسب (ولذا فنحن في كتاباتنا عن الصهيونية واليهودية نشير إلى المسيح المخلِّص اليهودي بكلمة «الماشيَّح»، أي نستخدم المنطوق العبري حتى نفرِّق بين النسقين الدينيين).

وتُعدُّ قضية صلب المسيح قضية أساسية ونقطة خلاف رئيسية. فمن المعروف أن كل أمة أو مجموعة عرْقية أو دينية تؤمن بأنها مدينة بوجودها لشكل من أشكال التضحية والفداء الرمزي أو الفعلي الذي يكتسب مكانة رمزية ويصبح بمثابة الركيزة النهائية للنسق ولحظة التأسيس. إن حادثة الصلب في المسيحية هي هذه اللحظة، حين نزل ابن الإله إلى الأرض وارتضى لنفسه أن يُصلَب، وكان فعله هذا الفداء الأكبر. لكن لحظة الصلب هذه ليست لحظة زمنية، رغم حدوثها في الزمان، وهي لا ترتبط بفترة تاريخية معينة رغم وقوعها في التاريخ (فهي كونية). وفي احتفالات الجمعة الحزينة، يحاول المسيحي المؤمن أن يستعيد آلام المسيح، هذه الواقعة الكونية التي لا يمكن أن تنافسها واقعة أخرى. واليهود عنصر أساسي في حادثة الصلب، فكهنتهم وحاخاماتهم هم الذين حاكموا المسيح وهم الذين أصروا على صلبه، فهم قتلة الرب،

الذين يقتلونه دائماً، بإنكارهم إياه.

ورغم المحاولات العديدة، المسيحية واليهودية، لتغيير هذه البنية الرمزية للوجدان المسيحي، فإن مثل هذه المحاولات لا تُكلَّل بالنجاح نظراً لأن المجال الرمزي يتسم بقدر من الثبات ولا يخضع بسهولة للأهواء وللتيارات السياسية المتغيرة. ولهذا، فكثيراً ما تنشب الصراعات فجأة وبلا مقدمات حين يقوم بعض المسيحيين بتمثيل مسرحيات دينية تبرز الرموز المسيحية وتسقط على اليهودي دور قاتل الرب. وقد نشب صراع حول أوشفيتس كان في جوهره صراعاً حول الرموز ومعناها. فحادثة الإبادة (الهولوكوست) أصبحت في الوجدان اليهودي لا تختلف كثيراً عن حادثة الصلب في الوجدان المسيحي. ولذا، حين أقامت بعض الراهبات الكرمليات ديراً في هذا المعتقل لإقامة الصلاة على الضحايا من أي عرْق أو دين أو جنسية، اعترض ممثلو أعضاء الجماعات اليهودية، لأن هذا يعني فرض لحظة الصلب المسيحية على لحظة الصلب اليهودية!

وثمة رأي داخل المسيحية يقول بأن العهد الجديد لم ينسخ العهد القديم، ولكنه مع هذا حل محله وتجاوزه. ومع أن الكنيسة لم تستبعد العهد القديم، فإن الإيمان المسيحي يستند إلى أن الشريعة (أو القانون) قد تحققت من خلال المسيح وتم تجاوزها،

وأن الرحمة الإلهية والإيمان بالمسيح وسيلة للخلاص حلت محل الشريعة والأوامر والنواهي، ومن ثم كان رفض الشعائر الخاصة بالطعام والختان التي تَمسَّك بها اليهود. وقد ذهب المسيحيون إلى أن اليهودية دين الظاهر والتفسير الحرفي دون إدراك المعنى الداخلي أو الباطن، وأن الكنيسة هي يسرائيل فيروس، أي يسرائيل الحقيقية، وأنها يسرائيل الروحية، أما اليهود فهم يسرائيل الزائفة الجسدية التي لا تدرك مغزى رسالتها. وبالتالي، فَقَدَ اليهود دورهم، وأصبحت اليهودية ديانة متدنية بالنسبة إلى المسيحيين، ووُصِفَ اليهود بأنهم شعب يحمل كتباً ذكية ولكنه لا يفقه معنى ما يحمل.

لكل هذا، أعادت الكنيسة تفسير العهد القديم بحيث اكتسب مدلولاً جديداً مختلفاً تماماً عن مدلوله عند اليهود الذين استمروا في شرحه وتفسيره على طريقتهم، وفهمه فهماً حرفياً وحلولياً وقومياً. ومن ثم اختلف النسق الديني اليهودي عن النسق الديني المسيحي. ومن أهم أشكال الاختلاف أن المسيحية أصبحت ديناً عالمياً، باب الهداية فيه مفتوح للجميع، على عكس اليهودية التي ظلت ديناً حلولياً مغلقاً مقصوراً على شعب أو عِرْق بعينه يظل وحده موضع الحلول الإلهي. ثم تَعمَّق الاختلاف بحيث أصبحت للمسيحيين رؤية مختلفة تماماً عن رؤية اليهودية.

وقد تبدَّى كل هذا في شكل صراع تاريخي حقيقي، فقد رفض اليهود المسيح)عيسى بن مريم) ولا يزالون يرفضونه. ويلوم الآباء المسيحيون الأوائل اليهود باعتبارهم مسؤولين عما حاق بالمسيحيين الأولين من اضطهاد، وأنهم هم الذين كانوا يحرضون الرومان ضد المسيحيين ويلعنون المسيحيين في المعابد اليهودية، وأنهم هم المسؤولون في نهاية الأمر عن صلب المسيح. وهم يرون أن هدم الهيكل وتشتيتهم هو العقاب الإلهي الذي حاق بهم على ما اقترفوه من ذنوب (وتشكِّل معاداة اليهود، باعتبارهم قتلة الرب، جزءاً أساسياً وجوهرياً من التراث الفني الديني المسيحي من موسيقى ورسم ومسرحيات).

وقد استمر الصراع إلى أن تغلبت المسيحية في نهاية الأمر على اليهودية، وانتشرت بين جماهير الإمبراطورية الرومانية. واستمر من تَبقَّى من اليهود في الإيمان باليهودية التعبير عن رأيهم في كتب مثل التلمود والقبَّالاه، وفي الحديث عن المسيح والمسيحيين بنبرة سلبية وعنصرية للغاية.

وقد تَحدَّد موقف الكنيسة (الكاثوليكية) من اليهود في مفهوم الشعب الشاهد، وهو أن اليهود هم الشعب الذي أنكر المسيح الذي أرسل إليهم، وهم لهذا قد تشتتوا عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب. ولكن رفض اليهود للمسيح سر من الأسرار، فاليهود

في ضعفهم وذلتهم وتشرُّدهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة، أي أن اليهود بعنادهم تحولوا إلى أداة لنشر المسيحية.

ومن ثم، يمكن القول إن العلاقة بين اليهودية والمسيحية علاقة عدائية متوترة إلى أقصى حد، واستخدام مصطلح «التراث اليهودي المسيحي» فيه محاولة لطمس معالم ونقط الاختلاف الجوهرية بين العقيدتين حتى يمكن زيادة الدعم الغربي للدولة اليهودية، والحصول على رضاء الجماهير الغربية على هذا الدعم الذي يتنافى مع القيم المسيحية والأخلاقية الإنسانية.

الصهيونية ذات الديباجات المسيحية

في الآونة الأخيرة، بدأ يتواتر في الدراسات العربية مصطلح «الصهيونية المسيحية»، الذي انتشر في اللغات الأوربية وتسلَّل منها إلى اللغة العربية. والواقع أن هذا المصطلح يضفي على الصهيونية صبغة عالمية تربطها بالمسيحية ككل، وهو أمر مخالف تماماً للواقع، إذ ليس هناك صهيونية مسيحية في الشرق. بل إن أوائل المعادين للصهيونية بين عرب فلسطين كانوا من العرب المسيحيين، وأول مفكر عربي تنبأ بأبعاد الصراع العربي – الصهيوني وبمدى عمقه هو المفكر المسيحي (اللبناني الأصل الفلسطيني الإقامة) نجيب عازوري. كما أن الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تعارضان الصهيونية على أساس عقائدي ديني

مسيحي. وإن حدث تقارب ما (كما هو الحال مع الفاتيكان)، فإن ذلك يتم مع دولة إسرائيل ولاعتبارات عملية خارجة عن الإطار الديني العقائدي إلى حدٍّ كبير. وفي الغرب المسيحي البروتستانتي، هناك عشرات من المفكرين المسيحيين الذين يرفضون الصهيونية على أساس ديني مسيحي أيضاً. ولهذا، فإن مصطلح «الصهيونية المسيحية» مصطلح غير علمي نظراً لعموميته ومطلقيته. ومن هنا، يجب الحديث عن «الصهيونية ذات الديباجة المسيحية»، فهي صهيونية غير مسيحية بأية حال، بل صهيونية استمدت ديباجتها (عن طريق الحذف والانتقاء) من التراث المسيحي دون الالتزام بهذا التراث بكل قيمه وأبعاده، ودون استعداد منها لأن يُحكَم عليها من منظوره الأخلاقي.

وهذا هو الفارق بين أية عقيدة دينية وأية عقيدة علمانية، فالمؤمن بعقيدة دينية يؤمن بمجموعة من القيم المطلقة المتجاوزة لإرادته (فهي ليست من إبداعه ولا من إبداع غيره من البشر)، ومن ثم يمكن تقييمه وتقييم سلوكه من منظور هذه القيم. أما العقيدة العلمانية، فهي مجموعة من القيم النسبية المتغيرة، ولا يمكن أن يُحاكَم الإنسان العلماني من منظورها إذ بوسعه أن يرفضها ويتنكر لها ويعدِّلها بما يتفق مع مواقفه المتغيِّرة واحتياجاته المتطورة وأهوائه المتجددة ورغباته التي لا تنتهي.

ولذلك فإن المسيحيين الذين يقومون بتعديل عقيدتهم لتتفق مع رؤيتهم ومصالحهم السياسية، يقومون بتطويع العقيدة الدينية لأهوائهم السياسية.

وتستند الصهيونية المسيحية إلى العقيدة الألفية الاسترجاعية التي تعود جذورها إلى اليهودية وإلى كثير من العقائد الشعبية، ولكنها مع هذا أصبحت فكرة مركزية في المسيحية البروتستانتية، إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلص (الذي يُشار إليه بأنه "الملك الألفي") سيحكم العالم (باعتباره الملك المقدس)، هو والقديسون، لمدة ألف عام يشار إليها أحياناً باسم "أيام المسيح" أو "الألف السعيدة"، وهي فترة سيسود فيها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان.

وكما تبدأ الألف السعيدة، لابد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيداً لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هي مركز وعصب العقيد الألفية. ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشرى الألف عام السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار "القديم أو الأول" (باعتبار أن المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثاني)، وأن أرض فلسطين هي

أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تسقط حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ومن الطبيعي، في إطار هذه الرؤية، أن يُنظر إلى كل من يقف في وجه هذه العودة باعتباره من أعداء الإله والخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ويلاحظ أن الفكر الحلولي المسيحي، شأنه شأن الفكر الحلولي اليهودي، يجعل اختيار الإله لليهود ليس منوطاً بفعلهم الخير وتحاشيهم الشر، فهي مسألة عضوية حتمية تتجاوز الخير والشر. كما أنه يجعل الخلاص مسألة مرتبطة باليهود، ومنح اليهود مركزية في رؤيا الخلاص.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، تفترض استمراراً كاملاً ووحدة عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فهي تنكر التاريخ تماماً. ولكن هذا "التقديس" لليهود يُضمر كرهاً عميقاً لهم ورفضاً شاملاً لهم ولوجودهم، ذلك أن بنية العقيدة الاسترجاعية هي نفسها بنية فكرة الشعب العضوي المنبوذ، أي أن اليهود شعب مختار، متماسك عضوياً، يرفض الاندماج في الشعوب الأخرى، ولذا لابد من نبذه ونقله إلى مكان آخر! ويمكن تلخيص هذا الكُره وذلك الرفض في العناصر التالية:

يذهب الاسترجاعيون إلى أن اليهود أنكروا المسيح وصلبوه، وأن عملية استرجاعهم إن هي إلا جزء من عملية تصحيح لهذا الخلل التاريخي وجزء من عملية تطهيرهم من آثامهم. فاليهود ليسوا مركز الخلاص بل هم مركز الخلل وسببه. والواقع أنهم إذا كانوا مركز الخلاص، فهذا يعود إلى أنهم بإنكارهم المسيح أصبحوا مركز الخلل وسببه الأساسي وتجسيداً للشر في التاريخ. والخلاص لا يمكن أن يتم إلا بتطهير مركز الخطيئة (تنصير اليهود أو إبادتهم). ولعل هذا التركيز على أن اليهود أصل الخطيئة يُفسر أن المسيخ الدجال (الذي سيكون ظهوره أقصى درجات الشر) سيكون يهودياً (من سوريا)، وأنه هو الذي سيقود ملوك الأرض ضد المسيح في المعركة الأخيرة (هرمجدون).

تذهب العقائد الألفية والاسترجاعية إلى أن عملية الخلاص النهائي ستصاحبها معارك ومذابح تصل ذروتها في معركة واحدة أخيرة (هرمجدون)، وهي معارك سيروح ضحيتها ثُلثا يهود العالم وستُخرب أورشليم (القدس). بل إنه كلما ازداد العنف ازدادت لحظة النهاية اقتراباً. فكأن التعجيل بالنهاية لا يتم هنا من خلال فعل أخلاقي يقوم به المسيحيون وإنما من خلال تقديم قربان مادي جسدي للإله (هولوكوست) يُشوى بأكمله. بل إن أبعاد هذه المذبحة

ستكون أوسع مدىً من المحرقة النازية، فكأن العقيدة الاسترجاعية هي عكس العقيدة المسيحية. ففي العقيدة المسيحية، يأتي المسيح وينزف دمه ويُصلب ويُهزم، فهو قربان يُقدم الإله فداءً للبشر بأسرهم، قربان لا حاجة بعده إلى قرابين. أما العقيدة الاسترجاعية فتذهب إلى أن المسيح قائد عسكري يدخل المعارك ويثخن في الأعداء ثم ينتصر. واليهود هم الذين سينزفون، وهم قربان للرب الذي لا حاجة به إلى قرابين، ولذلك فإن ذبحهم (أو صلبهم) يشير إلى النهاية الألفية السعيدة. كما أن اليهود، حسب الرؤية المسيحية التقليدية، كانوا دعاة القومية، على حين أن المسيح هو داعية العالمية. أما هنا، فإن العكس هو الصحيح، فاليهود هم مركز خلاص العالم والمسيح هو القائد القومي الذي سيؤسس مملكته في صهيون.

انتهت حياة المسيح الأولى بإنكار اليهود له وصلبه، أما حياته الثانية فستنتهي بإعلان انتصاره وبالتدخل في آخر لحظة لإنقاذ البقية الباقية من اليهود (وإعادتهم إلى أرضهم)، فيخر اليهود أمام المسيح ويعترفون بألوهيته ويقابلونه باعتباره الماشيَّح المنتظر ويتحولون إلى دعاة تبشير بالمسيحية ينشرون الإنجيل في العالم، أي أن المسيح سينجح في إقناع اليهود بما فشل في إقناعهم به

أول مرة. وحينما يحدث ذلك، تكون الدائرة قد اكتملت وتمت هداية العالم بأسره.

العقيدة الاسترجاعية عقيدة تُحوسل اليهود تماماً، أي تُحولهم إلى وسيلة أو أداة نافعة وأساسية لخلاص المسيحيين. ولكنها، في حد ذاتها، لا قيمة لها، فهم يستمدون قيمتهم من مقدار أدائهم لوظيفتهم ومقدار تعجيلهم بعملية الخلاص المسيحية.

وترفض العقيدة الألفية الاسترجاعية التفسير المجازي للعهدين القديم والجديد، وترى أن ما أتى فيهما هي نبوءات حرفية عن المستقبل. فيرى الألفيون، على سبيل المثال، أن العبارات التي وردت عن خراب أورشليم (القدس) تشير إلى حروب عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٤٨. أما الرؤية المسيحية التقليدية، فتذهب إلى أنها تحققت بالفعل عام ٧٠ ميلادية على يد تيتوس.

ويقوم هؤلاء الاسترجاعيون، كما سبق القول، بحوسلة إسرائيل بشكل حاد. وعلى سبيل المثال، يرى تيري ريزنهوفر (المليونير الأصولي الأمريكي الذي يقوم بتمويل عملية إعادة بناء الهيكل) أن السلام بين إسرائيل وجيرانها مسألة مستحيلة. وبصفة عامة، ترى الرؤية الاسترجاعية أن هرمجدون نبوءة حتمية لابد أن تتحقق. بل ويرى الاسترجاعيون ضرورة تحريك الأمور باتجاه الحرب لإضرام الصراع والتعجيل بالنهاية (ولذا، فإن

موقفهم من مفاوضات السلام أكثر تشدداً من موقف أكثر صقور إسرائيل تشدداً). ولا يختلف الأمر كثيراً بشأن حدود أرض الميعاد، فهذه الحدود مُعطى ثابت مقدس لا يمكن التفاوض بشأنه. كما أن حدود إسرائيل التي يتخيلها الاسترجاعيون أكثر اتساعاً من حدود إسرائيل الكبرى التي يتخيلها أكثر الصهاينة تطرفاً. فحدودها، حسب الرؤية الاسترجاعية، تضم الأردن وأجزاء من مصر ولبنان ومعظم سوريا (وضمنها دمشق)، أي أن الاسترجاعيين يرون ضرورة سفك الدم اليهودي تحقيقاً لرؤيتهم لنبوءات الكتاب المقدس.

لكل هذا، لا يرحب يهود أمريكا كثيراً بهذه الصهيونية التي تدَّعي المسيحية)والتي تطالب بنقلهم إلى إسرائيل ووضعهم في حالة حرب دائمة). هذا على عكس الدولية الصهيونية التي تجد أن هؤلاء الصهاينة الذين يستخدمون الديباجات المسيحية يكوِّنون اللوبي الصهيوني القوي الذي يعيش في صلب المجتمع الأمريكي. إن القضية مركبة ومتداخلة إلى أقصى حد، ومع هذا فإننا نجد في عالمنا العربي من يتحدث عن "الصهيونية المسيحية" وكأنها بالفعل "مسيحية" وليست حركة حرفية تُخضع النص المقدس لأهوائها، وتستخدم ديباجات مسيحية لتخبئة المضمون السياسي الاستعماري العلماني.

تفكيك الصهيونية

تشيع بين جماهير أي حركة سياسية مجموعة من الشعارات القادرة على تحريكها لأنها تلخص بشكل مثير ومكثف وسريع مجموعة المقولات التي تشكل ثوابتها المرجعية دون أن تدخلها في متاهات المفاهيم والفكر والفلسفة. فحينما طرحت الحركة القومية المصرية (قبل ١٩٥٢) شعار "الاستقلال التام أو الموت الزؤام" على سبيل المثال، أو حينما طرحت ثورة يوليو/تموز "الاتحاد والنظام والعمل"، (في مراحلها الأولى) أو "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" (بعد ١٩٦٧)، كانت هذه الشعارات تعبر عن شيء حقيقي وعن بناء نظري متكامل يمكن أن يملأ صفحات وصفحات. ولكن هذه الصفحات الكثيرة يمكن اختزالها في نهاية الأمر والتحليل الأخير إلى ثوابت قليلة، كما يمكن اختزال الثوابت بدورها إلى شعارات مثيرة.

ويمكن لهذه الشعارات الجماهيرية أن تعبر عن رؤية تحريرية مناهضة للظلم والاستغلال والاستعمار (مثل الشعارات التي أدرجناها من قبل) ويمكن أيضا أن تكون تعبيراً عن رؤية عنصرية استعمارية ظالمة مثل شعار الإمبريالية الغربية "عبء الرجل الأبيض" وشعار النازية "ألمانيا فوق الجميع" وبعض شعارات الصهيونية مثل: (وطن قومي لليهود على ضفتي النهر [نهر

الأردن].

ويبدو أن الشعارات السياسية، حتى تزداد قيمتها التعبوية وحتى يسهل حفظها والتصاقها بالوجدان الشعبي، تأخذ عادة شكل صيغ لفظية متناسقة بل وهندسية في بعض الأحيان. وقد يكون هذا على حساب مضمونها، وقد يؤدى إلى مزيد من الاختزالية الفكرية لتحقيق الهندسة اللفظية.

وتعبر هذه الشعارات (بشكل مبتسر) عن شيء أساسي له ما يقابله في الحقيقة الموضوعية التاريخية وفي طموحات الجماهير وفي مشروعها القومي، تحررياً إنسانياً كان أم استعمارياً عنصرياً، هذه الشعارات تشكل ما يشبه الخريطة المعرفية التي تحدد توقعاتها الجماهير وحركتها وسلوكها. ومن هنا تكمن أهمية دراسة هذه الشعارات الشائعة في حياتنا وحياة الآخر وتفكيك المفاهيم الكامنة ورائها وإعادة تركيبها حتى يمكن فهمها حق الفهم.

ومن أهم الشعارات المطروحة الآن في الساحة السياسية في العالم العربي الشعار القائل بأن الصراع مع العدو الصهيوني "صراع وجود لا صراع حدود". وهذا الشعار مطروح منذ مدة طويلة، ونحن نذهب إلى أنه يعكس بعداً مهماً للصراع العربي الإسرائيلي. ولتوضيح وجهة نظرنا قد يكون من المفيد أن نبدأ

بتصنيف إسرائيل والصهيونية. فالصهيونية في تصوري لا تنبع من العقيدة اليهودية ولا يمكن فهمها في ضوء ما ورد في كتب اليهود المقدسة (التوراة أو التلمود) أو في ضوء ما ينسب -زورا- لأعضاء الجماعات اليهودية (من شر أزلي وتآمر أبدي) وإنما يمكن فهمها في إطار الحضارة الغربية، فهي إحدى تبديات التشكيل الحضاري الغربي في جانبه الاستعماري الاستيطاني. وأعتقد أنه لا يوجد تاريخ مستقل للحركة الصهيونية عن الفكر الغربي أو الإمبريالية الغربية، فالصهيونية حركة استعمارية استيطانية إحلالية تمت في كنف الإمبريالية الغربية وتحت مظلتها، وبدون هذه الإمبريالية لما أمكن وضع الصهيونية موضع التنفيذ.

والصهيونية، شأنها شأن أية حركة استيطانية إحلالية أخرى، تدور في إطار الرؤية المادية الداروينية التي حولت العالم بأسره إلى ساحة للقتال والصراع: البقاء فيها لصاحب القوة وليس بالضرورة لصاحب الحق، والتي جعلت من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية مجرد مادة استعمالية ومجال حيوي تصدر له أوربا فائضها البشري وسلعة البائرة وتنهب المواد الخام والعمالة الرخيصة.

والحركة الصهيونية الاستيطانية، شأنها شأن أية حركة استيطانية أخرى، تنكر التاريخ: تاريخ الجماعات اليهودية وتاريخ

الشعب المستهدف الذي يود المستوطنون الاستيلاء على أرضه. ولذا فالحركات الاستيطانية حركات إبادية عنصرية تنكر على السكان الأصليين أبسط حقوقهم الإنسانية والثقافية، بل وتنكر عليهم حق الوجود ذاته. في هذا الإطار قامت الإمبريالية الغربية بنقل كتلة بشرية من أوربا لتوطنها في فلسطين لتحل محل سكانها الأصليين (كما فعلت مع بعض الكتل البشرية الأخرى التي تم نقلها إلى جنوب إفريقيا والجزائر والأمريكتين من قبل).

والصهيونية، شأنها شأن أية حركة استيطانية أخرى، لا تنكر تاريخ الشعب المستهدف وحسب؛ بل وتنكر الجغرافيا أيضاً، فهي مبنية على التوسع وعلى الالتهام المستمر للأرض، فهي بطبيعة تكوينها ذات ميول توسعية (وطن اليهود القومي - أرتس يسرائيل - من النيل إلى الفرات).

استبدال الشعارات

وتعبر الثوابت الصهيونية عن نفسها فيما أسميه "الإجماع الصهيوني" الذي يشكل الحد الأدنى الذي يلتزم به كل الصهاينة. ويمكن القول إن الإجماع الصهيوني يترجم نفسه إلى الشعار الصهيوني القديم "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، وهو شعار له خصائص الشعارات السياسية فهو يعبر عن شيء أساسي في المشروع الصهيوني وفي تطلعات المستوطنين الصهاينة كما أنه

يتسم بالاختزالية والتناسق اللفظي. ورغم هذا تم إخفاء هذا الشعار بسبب طبيعته الإبادية والإرهابية الواضحة، وتم إحلال محله مجموعة من المقولات تتسم بأنها مصقولة، تستخدم لغة حركات التحرر الوطني، ولكنها في واقع الأمر لا تقل عن الشعار الأول إبادية أو عنصرية أو إرهاباً؛ إذ بدأ الصهاينة (منذ منتصف الخمسينيات) يتحدثون عن الصهيونية باعتبارها "حركة التحرر القومي للشعب اليهودي التي تهدف إلى عودة اليهود إلى وطنهم القومي، وطن أسلافهم". وغني عن القول أنه بمجرد فك شفرة هذا الشعار سيظهر الشعار القديم "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" رابضاً كالثعبان، فوراء كليهما يوجد الإجماع الصهيوني الذي ينطلق أن فلسطين هي "أرتس يسرائيل" (أرض بلا شعب) وأن الجماعات اليهودية المنتشرة في بقاع الأرض هي في واقع الأمر الشعب اليهودي الواحد الذي يطمح للعودة إلى أرضه)شعب بلا أرض)، وأن له حقوقاً مطلقة في هذه الأرض. وإن تصادف ووجد شعب آخر في "أرتس يسرائيل" فليس له حقوق تاريخية جوهرية، وإنما حقوق عرضية.

هذا هو جوهر الإجماع الصهيوني الذي تتفرع عنه كل المطالب واللاءات الصهيونية الأخرى:

١- لا يمكن أن يوجد جيش غير جيش إسرائيل بين البحر

المتوسط والضفة الغربية لنهر الأردن.

٢- لا يمكن فك المستوطنات القائمة بالفعل.

٣- القدس هي العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية.

٤- سياسة الأمر الواقع هي السياسة الوحيدة التي يمكن اتباعها مع العرب.

٥- الكيان الفلسطيني الذي ينشأ في الضفة والقطاع لابد أن يكون كياناً سياسياً منقوص السيادة منزوع السلاح، خاضعا للسيطرة الإسرائيلية.

٦- السيادة الفلسطينية تشمل الفلسطينيين وحسب، ولا تشمل بأية حال الأرض.

٧- لن يقدر للمستوطن الصهيوني البقاء بدون الدعم الغربي عامة والأمريكي خاصة. هذا الإجماع هو ما يتحرك داخله كل الصهاينة، متطرفهم ومعتدلهم، يمينيهم ويساريهم، رأسمالييهم واشتراكييهم. وينطلق هذا الإجماع من أن الوجود الصهيوني يفترض الغياب العربي (ومن ثم فالعكس صحيح)، وأن الحد الأدنى الصهيوني يتطلب غياب العرب أو على الأقل تهميشهم، فوجودهم عرضي، أما الوجود اليهودي فجوهري وحقوقهم مطلقة.

وقد اكتسب شعار "صراع وجود لا صراع حدود" حدة وجدة مع تسارع عملية السلام. فقد طرح دعاة التطبيع ووهم السلام شعارات مضادة متصورين أنهم سيمكنهم تجنيد الجماهير وراءها فبدأوا يتحدثون عن "النظام العالمي الجديد المبنى على العدل

والتفاهم والتفاوض السلمي" وعن "الشرق الأوسط الجديد وعن السوق الشرق أوسطية التي سيتم تبادل السلع فيها على قدم المساواة في إطار من العدل والسلام" إلخ.

وتقف كل هذه شعارات على الطرف النقيض من شعار "صراع وجود لا صراع حدود" للسببين التاليين:

١- يفترض الشعار الأول أن ثمة وجوداً عربياً يود التحقق تاريخياً وحضارياً في العصر الحديث، أما الشعارات الأخرى فهي تنفي مثل هذا الوجود، ومن هنا الحديث عن الشرق الأوسط أي أن شرقنا العربي ليس شرقاً، وليست له ذاكرة تاريخية محددة، وإنما هو رقعة جغرافية، مكان بلا زمان، يمكن أن يتحرك فيه أي إنسان "طبيعي"، ليست له أي خصوصية حضارية.

٢- المكان الذي يوجد في اللازمان يتواجد فيه بشر لا ذاكرة لهم ولا تاريخ، دوافعهم اقتصادية بسيطة، يمكن التنبؤ بها (ومن هنا نذهب إلى أن ما بعد الحداثة هي في واقع الأمر أيديولوجية النظام العالمي الجديد، فهي تذهب إلى إنكار المعيارية والذاكرة التاريخية، حيث يتحول العالم إلى قصص صغيرة بلا مركز، ليس لها أي شرعية خارج حدودها، فتسقط الإنسانية المشتركة، وتسقط معها أحلام الإنسان الثورية في تجاوز واقعه وتغييره).

لكل هذا فإن ما قد ينشأ من مشاكل بين مثل هؤلاء البشر لا يمكن أن تكون إلا مشاكل اقتصادية كمية يمكن حسابها وحلها ببساطة عن طريق المفاوضات، أي أن الصراع هو "صراع حدود"

وحسب، ولا داعي للحديث عن الحقوق التاريخية والكرامة والأصالة والقصص الكبرى والكلمات وما شابه من قيم ومعايير "بالية" تستدعى التراث والتاريخ والهوية الإنسانية والتاريخ العربي ومن ثم تؤدى إلى "صراع وجود"، أي أن الشعارات المطروحة تهدف إلى تفكيك مفاهيم المقاومة والرفض لصالح مفاهيم السلام المبنى على الحرب، أي السلام الذي يترجم موازين القوى إلى واقع سياسي نهائي.

نحو مشروع حضاري عربي

ولكن هناك في الواقع العربي والإسرائيلي ما يعطى شعار "صراع الوجود" مضموناً متجدداً حيوياً. ولعل أولى هذه العناصر هو المشروع الحضاري العربي، فلا تزال معظم الجماهير العربية تطمح نحو قدر من الوحدة (القصة العربية الكبرى) يضمن لها موطئ قدم في الألفية القادمة، أو يمكنها أن تتحدث بصوت مسموع في عالم التكتلات الكبرى والشركات العملاقة والعولمة التجارية التي تمسك بخيوطها الدول الكبرى خاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ويرى الكثيرون أنه بدون هذه الوحدة سيتحول العالم العربي إلى جزر متناثرة ضعيفة، وقصص صغرى عديدة لا يربطها رابط، دويلات دينية وإثنية صغيرة، تشبه إسرائيل في بعض الوجوه، دون أن يكون لها ما لدى إسرائيل من قوة عسكرية وسياسية وإنتاجية، توصلت لها أساسا من خلال الدعم الغربي المستمر والمكثف. ويشعر الكثيرون أن من صالح إسرائيل

–والغرب– أن تملي شروطها على هذه الجزر المتناثرة بدل أن تتحاور، على مستوى الندية، مع عالم عربي يتسم بقدر من الوحدة. فالغياب العربي هو ما تنشده إسرائيل ومن ورائها الغرب.

المشكلة السكانية

ولكن هناك مشكلة أعمق من كل هذا تؤدي إلى طرح شعار "صراع وجود لا صراع حدود" على شاشة الوعي الإسرائيلي، وهو ما نسميه بالمشكلة الديموجرافية (السكانية) فالجيب الاستيطاني الإحلالي الصهيوني لم ينجح في إبادة السكان الأصليين لعدة أسباب من بينها ما يأتي:

١– يتكون الفلسطينيون من كتلة بشرية موحدة، في غاية التركيب والوعي، قادرة على استخدام كل الأسلحة الممكنة بما في ذلك الإعلام، ومثل هذه الكتلة ليست سلبية، تجلس في مكانها بلا حراك، وعدوها يذبحها ذبح الشاة.

٢– منذ بداية القرن التاسع عشر (تاريخ الاستيطان الصهيوني) أصبح العالم أصغر في حجمه بسبب وسائل المواصلات ووصول الإعلام إلى كل أرجائه، وقد تزايدت هذه العملية، مما يجعل عمليات الإبادة أمراً مستحيلا، فهي عادة ما تتم وراء ستار كثيف من الصمت، حتى لا يحتج أحد.

٣– توجد فلسطين في وسط العالم القديم ومن ثم يصعب إبادة سكانها.

٤– تحيط بالفلسطينيين دول عربية تضم جماهير متعاطفة مع

الفلسطينيين وقضيتهم وتزودهم بالعون.

وقد أدى فشل الجيب الصهيوني في تصفية السكان الأصليين إلى عدة نتائج من أهمها ما يسمى بالمشكلة الديموجرافية (السكانية)، أي تزايد عدد الفلسطينيين بدرجة كبيرة، مما يهدد الطابع اليهودي الإحلالي لهذا الجيب.

ومما فاقم هذه المشكلة عنصران:

١- جفاف ينابيع المادة البشرية الاستيطانية (خاصة بعد الهجرة السوفييتية الأخيرة، واضعين في اعتبارنا أن يهود العالم الغربي لا يهاجرون البتة) وضم الجيب الصهيوني للضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧ اللتين يتسمان بكثافة بشرية عربية.

٢- تزايد الفلسطينيين لا كما وحسب، وإنما كيفا أيضا. إذ يتزايد عدد المواليد الفلسطينيين ويزداد عدد المتعلمين بينهم ويتحسن أداؤهم وتتزايد مقاومتهم يوما بعد يوم.

وكان من شأن هذا كله أن يؤدي إلى اتضاح زيف الافتراض الصهيوني المبدئي أن فلسطين أرض بلا شعب، مما يعني أن فرض الأسطورة الصهيونية على الواقع يحتاج إلى مزيد من العنف.. ولكن العنف لا يؤدي إلى تخفيف وطأة الهاجس الأمني، فالإسرائيلي يعيش في خوف دائم من العرب، وهو محق في خوفه هذا. فقد اغتصب أرضهم وشردهم وهو يعلم أنهم لن يستسلموا ولن يقبلوا وضعهم هذا بكل ما يتضمنه من ألم، ولذا نجد أن كل اتفاقيات "السلام" اتفاقيات أمنية تهدف بالدرجة الأولى لتحقيق

أمن إسرائيل، هذا الشيء المستحيل (وقد أخبرني أحد الأطباء النفسيين في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ أن المرضى النفسيين الإسرائيليين قد استبعدوا العربي تماما من أحلامهم وكوابيسهم، مما يعني أن خوفهم قد بلغ من العمق أنه تم استبعاد العرب تماما، حتى على مستوى اللاوعي).

ولاشك في أن الإسرائيليين يعرفون مصير ممالك الفرنجة كما يعرفون أن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التي قدر لها البقاء (مثل أمريكا الشمالية وأستراليا) نجحت لأنها أبادت السكان الأصليين، أما تلك التي لم تنجح في ذلك (مثل الجزائر وأنجولا وجنوب إفريقيا) فقد تم تصفيتها، وهو يعرف أنه لا يوجد أي سبب لأن يمثل الجيب الاستيطاني الصهيوني استثناء لهذه القاعدة التاريخية العامة.

لكل هذا تعمق لدى الإسرائيليين أنفسهم الإحساس بأن الصراع هو صراع وجود لا صراع حدود أو لعلهم لا يصرحون بذلك لأن المسرح الدولي لم يعد يسمح بذلك، والنظام العالمي الجديد يتطلب من الجميع أن يدخلوا في مفاوضات سلمية باردة بدلا من مواجهات عسكرية ساخنة، والصهاينة الذين تملكوا عبر تاريخهم ناصية الخطاب الإعلامي ونموا وترعرعوا في ظلال المظلة الغربية التي يقال لها دولية، لابد وأن يسايروا مثل هذه المتطلبات. ولذا فهم يطلقون التصريحات الوردية ويرحبون بالمفاوضات السلمية، ولكن هناك دائما أرض الإجماع الصهيوني الصلبة

يقفون عليها لا يتزحزحون ويكشرون عن أنيابهم إن طلب منهم التنازل عن أي شيء يمس هذا الإجماع.

التحدي الحضاري

الصراع إذن صراع وجود وليس صراع حدود، ولكن هل هو أيضا صراع حضاري؟ هل يشكل الوجود الإسرائيلي تحدياً حضارياً بالنسبة لنا.

يجب أن نشير ابتداء إلى أن التحدي الحضاري ليس مجرد إنجاز تكنولوجي أو تفوق عسكري وإلا اضطررنا للقول بتفوق التتار على العرب لأنهم عبروا نهر دجلة على كوبري من المخطوطات العربية، ولقلنا بتفوق البرابرة على الرومان لأنهم نجحوا في غزو روما وتحطيم منجزاتها الحضارية.

وإذا نظرنا إلى التجمع الاستيطاني الصهيوني الذي يمثل تحدياً حضارياً -حسب رؤية البعض- لوجدنا بالفعل تجمعاً حقق تفوقاً عسكرياً لا يمكن إنكاره ولكنه تفوق لم يحرزه بإمكانياته الذاتية، وإنما بسبب الدعم الاقتصادي والعسكري الغربي. وهذا التجمع لا توجد فيه حضارة متجانسة، فكل مستوطن صهيوني أحضر معه من وطنه الأصلي خطاباً حضارياً مختلفاً. وقد ادعت الدولة الصهيونية في بداية الأمر أنها ستمزج الجميع في بوتقة يهودية عبرانية جديدة ليخرج منها مواطن جديد وما حدث هو أن الخطاب الحضاري الجديد المزعوم لم يتشكل، وظهر بدلا منه واقع حضاري غير متجانس.

والتجمع الصهيوني ليس مجتمعاً، وإنما هو تجمع يتسم

بالشذوذ البنيوي غُرس في المنطقة بمساعدة القوة العسكرية الغربية ومن خلال دعمها الاقتصادي والسياسي والعسكري ليقوم بدور عسكري لصالح الحضارة الغربية. ومن ثم فهو يشكل تحديا عسكريا وحسب، لا تحديا حضاريا. بل إنه تحد عسكري جعلنا ننحرف عن الاستجابة للتحدي الحضاري الأصلي الذي طرحته علينا الحضارة الغربية الحديثة.

ويمكن القول إنه لا يمكن الاستفادة من الدولة الصهيونية في عملية تحديث العالم العربي للسببين التاليين:

١- تقف عملية تحديث العالم العربي ضد مصالح الدولة الصهيونية والعالم الغربي، فالتحديث يعني وصول نخب حديثة رشيدة غير فاسدة إلى سدة الحكم ستحاول أن تسلك طريق التنمية المستقلة وتحاول أن تبيع المواد الخام بما في ذلك البترول بأسعار معقولة، ولا تبدد عوائده في مظاهر استهلاكية تافهة مسفة وإنما تعيد استثماره في الاقتصاد الوطني. وهذه النخب ستكون مدركة للأمن القومي العربي وضرورة تحديث الجيوش العربية. وهي أخيراً ستدرك ضرورة الدخول في شكل من أشكال الوحدة وعالم العولمة. وكل هذه التوجهات هي ولا شك في غير صالح إسرائيل والدول الغربية.

٢- لا تصلح إسرائيل أن تكون نموذجاً يُحتذى، فهي نموذج غير قابل للتكرار، فالتجمع الصهيوني ككل لا يعتمد على موارده

الطبيعية أو الإنسانية، وإنما يعتمد على الدعم المادي والعسكري والسياسي المستمر والمكثف من العالم الغربي، ولا يمكن تفسير كثير من إنجازات هذا الجيب الاستيطاني إلا في ضوء هذه المعونات التي تصب فيه باعتباره جيباً استيطانياً إحلالياً أسس ليكون بمثابة قاعدة أمامية للاستعمار الغربي في العالم العربي.

لكل هذا لا تشكل إسرائيل أي تحد حضاري لنا، فالتحدي الحضاري الحقيقي يأتي لنا من الغرب الذي طور منظومته التحديثية وأسس بنيته التحتية من خلال عمليات النهب الإمبريالي المستمر. لذا فمنظومته التحديثية داروينية إمبريالية منفصلة عن القيمة، أدت إلى تفكيك الإنسان والطبيعة، والتحدي الحضاري الحقيقي هو كيف نطور منظومة حداثية جديدة تنطلق من قيمنا الحضارية والأخلاقية، لا تنزع منزعاً داروينياً إمبريالياً، وإنما ترى الإنسان باعتباره مستخلفا في هذه الأرض، مؤتمناً عليها، فهو لا يغزوها فيدمرها ويدمر نفسه، وإنما يستفيد منها وفي الوقت ذاته يحتفظ بتوازنه معها ومع نفسه. وإسرائيل، الدولة الصهيونية، التي غزت أرضنا واستولت عليها وأبادت من أبادت وطردت من طردت وأدخلتنا في سباق تسلح لاهث وحروب مستمرة، لا يمكنها أن تكون جزءاً من مشروعنا الحضاري هذا.

الفصل السادس
ولكنه ضحك كالبكاء...

زراعة الخضار في الماء...
وأعاجيب إسرائيل الأخرى

جاء في أحد الكتب العلمية الأجنبية (غير اليهودية) أن الإسرائيليين أسسوا حديقة حيوانات في تل أبيب تُعرض فيها الحيوانات "اليهودية" التي ورد ذكرها في التوراة. ورغم معرفتي الواسعة نسبياً (الآن) بالعقلية الصهيونية، فلابد من الاعتراف بأنني تعجبت كثيراً. ويحق لي أن أتعجب فأنا لا أتخيل أي مصري أو عربي قادراً على أن يقترح أن نضع في حديقة حيوانات الجيزة حيوانات عربية أو إسلامية أو مسيحية وحسب. وحتى التسمية نفسها غبية ونشاز، فالحيوانات لا وطن لها ولا جنس، لأن الوطن فكرة إنسانية تاريخية أما الدين فهو من نعم الله على الإنسان إذ أنه عز وجل عرض الرسالة على جميع الكائنات الطبيعية فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، ولهذا نجد أنه من العسير علينا أن نتخيل جملاً مسلماً أو زرافة قبطية أو حصاناً يهودياً مهما بلغ بنا الشذوذ مبلغه. ولكن العقلية الصهيونية الإسرائيلية فريدة وفذة -كما يدَّعي الصهاينة- فدرجة عبادتها لذاتها وتمركزها على هذه الذات لم يسبق لها مثيل، أو فلنقل _ كي نتوخى الدقة _ أنهما ليس لهما مثيل في العصر الحديث. فعبادة الذات الجماعية (القبلية أو القومية) هي إحدى سمات عقل الإنسان في مرحلة

انتقاله من الطبيعة والفطرة إلى التاريخ والحضارة. ولعل الصهاينة على حق حين يتحدثون عن "البقاء" و"الاستمرار" اليهوديين، إذ أبقى العقل الصهيوني على نمط التفكير البدائي واستمر في هذه الطريقة رغم كل ما حدث من تقلبات وتبدلات وتحولات. لكن لابد من التنبيه إلى أن الاستمرار يختلف عن التكرار، فالأول يتضمن التغير والتقدم أما الآخر فلا يتضمن سوى الدوران الممل حول الذات.

والإنسان البدائي غير قادر على رؤية الواقع من حوله، إذ أن كل شيء هو امتداد لذاته (تماماً كالطفل الذي يتصور أن كل شيء، بما في ذلك أمريكا ويهود الدياسبورا بل والعرب، في خدمته). وحينما يكتب الإنسان البدائي تاريخه، بكل ما فيه من هزائم وانكسارات، فإنه يحوله إلى أسطورة تفوق وانتصار، أي أن التاريخ، مصدر الخبرة للإنسان، يصبح بالنسبة له مصدراً لتأكيد عبادته لذاته.

والواقع أن هذا التمركز البدائي حول الذات هو إحدى سمات العقلية الصهيونية. وقد حاولت اليهودية الإصلاحية أن تهدم جدار الجيتو وأن تطرح تصوراً إنسانياً رحباً لليهودية، ولكن الصهيونية قضت على هذه المحاولة وشيدت دولة إسرائيل بمساعدة الإمبريالية العالمية، وذلك لتصبح هذه الدولة، من وجهة النظر

الصهيونية، بمثابة المركز اليهودي الذي يشع قيماً يهودية صافية تساعد يهود الدياسبورا على عدم الاندماج أو الذوبان في المحيط البشري الذي أحاط بهم، أي أن إسرائيل هي جيتو الروح اليهودية. ولعل أهم ترجمة محسوسة لهذه العقلية الجيتوية هو حائط بارليف المعروفة بخط بارليف، حيث قبع الإسرائيليون خلف حاجز مائي وآخر ترابي داخل أربعة حوائط ممسكين بالسلاح ينظرون عبر النوافذ الضيقة، على جنود مصر الجالسين في الشمس على الضفة الأخرى من القناة (وعلى الجنود السوريين على الجبهة السورية)، متصورين أن داخل الجدران الأربعة يوجد السلام والأمن والفردوس وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان. وقد سقط خط بارليف، ولكن الصهاينة يحاولون الآن بناء سور على الأراضي الفلسطينية لحماية الأراضي المحتلة قبل عام ١٩٦٧.

• وقد يقال إنني أحاول أن أحمل الرموز والوقائع أكثر مما تحتمل وأن حديقة تل أبيب للحيوانات التوراتية قد دعت لها ضرورات عملية (فلا مانع من وجهة نظر التجار والسماسرة العمليين من استخدام الدين لجلب السواح الأجانب). ولكن ماذا يمكنني أن أفعل فيما يسمى "سنة شميطاه"، هذه المناسبة القومية/الدينية التي تحتفل بها إسرائيل آخر أيلول (سبتمبر) من كل عام؟

و"سنة شميطاه" مناسبة دينية لا يعرفها كثير من يهود الدياسبورا (المنفى) لارتباط شعائرها بالأرض المقدسة، فقد جاء في سفر اللاويين أن الرب يأمر شعبه أن يزرع الأرض المقدسة ست سنوات على أن يريحها في السنة السابعة (وكلمة "شميطاه" العبرية تعني "إراحة الأرض"). وكل ما ينمو على الأرض في هذا العام السابع يصبح ملكاً مشاعاً للجميع يحرم الاتجار فيه، كما تصبح كل الديون وكأنها قد وُفيت ودُفعت)الديون اليهودية فقط بطبيعة الحال).

ولأن التفكير البدائي تفكير ذاتي فهو يتخذ شكلاً هندسياً متسقاً مع نفسه تمام الاتساق (بغض النظر عن تحديات الواقع والتاريخ)، فإذا كان الأسبوع يتكون من ستة أيام عمل ويوم راحة، فالأرض تصبح مثل الإنسان تعمل هي الأخرى ست سنوات وتستريح أو تُراح في السنة السابعة (ولذلك يطلق على سنة شميطاه اسم "السنة السبتية" أو "سنة الراحة"). ثم يتسع الاتساق الهندسي ليشمل دورات زمنية أوسع فتكون كل سبع دورات وحدة أكبر (مكونة من ٤٩ عاماً) يعقبها الاحتفال في السنة الخمسين بالسنة اليوبيلية أو سنة اليوبيل (نسبة إلى "يوفل" أو النفير). والسنة الخمسون هي سنة شميطاه "مفتخرة" إن صح التعبير، إذ كان من المفروض أن يُحرر فيها كل العبيد (اليهود فقط

بالطبع) وأن تُعاد الأراضي المرهونة والمشتراة لأصحابها الأصليين (فالقانون اليهودي القديم لا يعترف بحق الملكية عن طريق الإرث مما يشير إلى الجذور القبلية والمحافظة لهذا القانون).

ولا شك أن الدافع وراء الاحتفال بسنة شميطاه دافع ديني/قومي، فهو من ناحية تنفيذ لكلمة الرب وتعبير عن الإيمان بأن الأرض هي ملكه وحده يهبها من يشاء، ولكن الاحتفال من ناحية أخرى هو تأكيد للرابطة العميقة التي تربط اليهودي بالأرض المقدسة. كما أنه ينطوي على إسقاط لحق أي إنسان في امتلاك هذه الأرض حتى ولو كان فلسطينياً عاش فيها مئات السنين. ولأن الخالق في الوجدان اليهودي الصهيوني يصطبغ بصبغة قومية يهودية، فإن ملكيته للأرض هي في الواقع تأكيد لملكية اليهود الأزلية لها. وهكذا نجد أن الدافع الديني الروحي هو ذاته الدافع القومي، بل إن الدافع الديني ما هو إلا وسيلة لإضفاء طابع أزلي مقدس على أوهام اليهود القومية.

وتأخذ سنة شميطاه في الاتساع إلى أن تشمل الزمان كله فتصل إلى "سبت التاريخ" أي نهايته حين تستريح الأرض كلها ويأتي الماشيح ليقود شعبه بأسره لأرض الميعاد، وهكذا تظل الدائرة في الاتساع إلى أن تبتلع كل الزمان والمكان.

ولكن الاتساق الهندسي الذاتي البسيط يتعارض دائماً مع جدل التاريخ المركب. وكانت أول مشكلة واجهها اليهود القدامى أن نسقهم الهندسي رغم روعته وصفائه سينتج عنه أن سنة اليوبيل يسبقها سنة شميطاه أي أن الأرض ستُراح لمدة عامين متتاليين مما قد يسبب مجاعة للمؤمنين والأتقياء، ولذلك أفتى بعض علماء اليهود بأن طقوس سنة اليوبيل لا تتحقق إلا بعودة جميع اليهود من الشتات، أما بالنسة ليهود الشتات)وهم الغالبية العظمى لليهود عبر التاريخ) فقد أفتى علماؤهم أن أحد أسباب نفيهم في كل بقاع الأرض هو عدم إقامة شعائر سنة شميطاه، وهكذا أراح اليهود أنفسهم من عناء المأزق الديني الهندسي المستحيل الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

ولكن الإسرائيليين، حملة مشعل اليهودية في العصر الحديث، يعيشون على الأرض المقدسة شخصياً، ولذلك فإن الخروج من المأزق الهندسي لا يمكن أن يتم بنفس السهولة واليسر. ولذلك فقد أصدر بعض الحاخامات، ومن بينهم الحاخام الصهيوني إسحق كوك، فتوى في أوائل هذا القرن مفادها أن على القاطنين في أرض الميعاد أن يبيعوها (بشكل دوري) لبعض أفراد الجوييم (الأغيار) وبذلك تصبح الأرض غير يهودية، وبناءً عليه يمكن للشعب المقدس أن يقوم بزراعتها وحصدها والاتجار فيها

والمضاربة عليها والإتيان بكل المحرمات التي تقلق مضجع المؤمنين تحت الظروف العادية قبل أن يتم هذا البيع الصوري المقدس (وهذا يشبه من بعض الوجوه الفتوى الخاصة بضرورة بيع تذاكر مباريات كرة القدم التي تجرى يوم السبت في اليوم الذي يسبقه لأن العمل محرم يوم الراحة، فيذهب الإسرائيليون إلى المباراة يوم السبت مستريحي الضمير هادئي البال).

ورغم أن عادة بيع الأرض هي العادة السائدة في إسرائيل، فإن ثمة فريقًا من المؤمنين يرفض هذه الحلول التوفيقية التلفيقية، ولهذا يقومون بتسخير العلم في خدمة رؤيتهم الحرفية، فيبذلون كثيراً من المحاولات لزراعة الخضار في الماء، وليس في اليابس، وهكذا يحل الاتساق الهندسي السائل العصري محل الاتساق الهندسي الصلب القديم.

ولكن ليس كل الأتقياء الإسرائيليين على هذه الدرجة من الخبث والتحايل العلميين، فبعضهم لا تزال به بقية من الصلابة القديمة، كما هو الحال مع اليهود الأرثوذكس في موشاف (مزرعة جماعية "كوميميوث" في جنوب إسرائيل التي أسسها بعض المحاربين القدامى عام ١٩٤٩ (وفي كل مكان في إسرائيل نجد بصمات الجيش الإسرائيلي). يحاول سكان هذا الموشاف أن يطبقوا تعاليم التوراة بحذافيرها، إذ أنهم يصدرون عن الرؤية التوراتية الخاصة

بالنخبة: من الأفضل أن يكون هناك قلة مؤمنة مخلصة على أن تكون أكثرية غير مؤمنة. ماذا تفعل إذن هذه النخبة الصالحة في سنة شميطاه؟ الأمر بسيط للغاية.. إنهم يأتون بالمعجزات مثل تلك التي كانت تحدث في سالف الزمان. جاء في سفر اللاويين أن الإله سيبارك المحصول في العام السادس فتنتج الأرض غلة تكفي لثلاث سنين "فتزرعون السنة الثامنة وتأكلون من الغلة العتيقة إلى السنة التاسعة". وبناءً عليه، لاحظ علماء الموشاف المشار إليه أن محصول القمح ومحصول الموالح في العام السادس في إسرائيل (١٩٧١-١٩٧٢) زادت بنسبة ١٠٠٪ أحياناً.

وقد فسر الأشرار الذين يسيطرون على وزارة الزراعة الإسرائيلية هذه الظاهرة على أنها ناتجة عن تحسين الوسائل المختلفة للزراعة، ولكن الموشافيين الأرثوذكس كانوا على يقين من أن الزيادة في المحصول القومي هي دعوة ربانية للشعب الإسرائيلي ككل لأن يقيم الشعائر الدينية الخاصة بشميطاه. أما المحاصيل الزراعية للموشاف الأرثوذكس ذاته فقد حققت زيادة تبلغ ٣٠٠٪ - تماماً كما جاء في العهد القديم. هذا وقد زار مزرعتهم ممثلون للوكالة اليهودية ليتحققوا من هذه الظاهرة ولكنهم لم يجدوا أي "سبب طبيعي" لهذه الزيادة العجائبية. وتترى المعجزات التي يعجز القلم الضعيف الكليل عن حصرها: فهناك

معجزة الشجرة المحتضرة التي عادت لها الحياة في سنة شميطاه، وهناك أيضاً البذور المتعفنة التي أصبحت صالحة بعد شرائها لاستخدامها في سنة شميطاه، وهناك كذلك واقعة الآفات الزراعية التي هاجمت كل الحقول الإسرائيلية اللادينية ولكنها لم تهاجم موشاف "كوميموث" التقي في سنة شميطاه.

ورغم إيمان الموشافيين الأتقياء بالمعجزات فهم يحرصون من جانبهم على مساعدة العناية الإلهية. ففي بعض الأحيان يقومون بنشاطات مختلفة مثل تخزين الحبوب (ولكن لماذا لا يحاولون الزراعة داخل الثلاجات الكهربائية، على اعتبار أنها ليست جزءاً من الأرض المقدسة وإنما تتبع جمهورية جنرال إلكتريك ذات الحدود الآمنة المعقمة من الخير والشر؟). ويلجأ الموشافيون كذلك للزراعة في أوقات غير مناسبة وذلك حتى يمكنهم إقامة شعائر شميطاه.

ومع أن التخزين والتحايل على الدورة الطبيعية للأرض والمناخ يسببان خسائر مادية فادحة (رغم كل المعجزات الآنفة الذكر)، فإن الأتقياء يعلمون تمام العلم أن إخوانهم في الدياسبورا الذين لا يمكنهم المشاركة في إقامة الشعائر الدينية بشكل مباشر، سيساهمون في هذا العمل المجيد عن طريق التبرعات المالية. ولهذا السبب، كوّن يهود أمريكا النشطون "صندوق شميطاه" لجمع

التبرعات حتى يساهموا في شد أزر المؤمنين الذين يؤدون الفريضة التي ستعجل بعودة الماشيح. وهكذا، يرتبط السبت الأسبوعي بالسنة السبتية (بسبب التاريخ) وبعودة الشعب اليهودي لأرض الميعاد ليقبع داخل الحدود الآمنة أبد الدهر.

وهذه هي الخطة الصهيونية لحل جميع المشاكل اليهودية الحديثة: يُغرس الإسرائيلي في الشرق العربي الأوسط فيجلس في خنادق أرض الميعاد تحت خوذته المعدنية وخلف حائط الجيتو الجديد يطلق الرصاص على العرب ويحاول زراعة الخضار في الماء، أما يهود الدياسبورا فيجلسون في بابل الأمريكية أمام التليفزيون يبتلعون منتجات الحضارة الرأسمالية ويكتبون شيكات يتناسب حجمها تناسباً طردياً مع مدى تآكل ضميرهم اليهودي المندمج، وكلما زاد الاندماج زاد المبلغ.

وقد يُقال إن هذه كلها مجرد جزئيات لا تمثل الحياة في إسرائيل، وهي بلد علمي متقدم. ولكن الدارس للصهيونية، وهي الأيديولوجية المسيطرة على إسرائيل، يعرف أنها بنية فكرية متسقة مع نفسها ليس لها علاقة كبيرة بالواقع التاريخي، وإنما تستند إلى مقولات العهد القديم وإلى أحلام اليهود بالعودة. فالإيمان بالارتباط الأزلي الصوفي بين اليهودي وأرض الميعاد لا يختلف من قريب أو بعيد عن الاحتفال بسنة شميطاه. وإذا كان

الاحتفال بسنة شميطاه يؤدي إلى أمور مضحكة مسلية مثل زراعة الخضار في الماء (شأنه في هذا شأن حديقة الحيوان التوراتية)، فإن محاولة تأكيد الرابطة الأزلية بين اليهودي وأرضه أدت إلى طرد شعب بأسره وإلى تحويله إلى مجموعات من اللاجئين والفدائيين، وأدت كذلك إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلي إلى درجة لم يعرفها أي مجتمع إنساني من قبل، بل وإلى قبوع الإسرائيليين حكومةً وشعباً، داخل حوائط بارليف الجيتوية سنوات ست بعد انتصار عام ١٩٦٧، ويا له من انتصار ذلك الذي يؤدي بالمرء إلى الجلوس بين جدران أربعة حتى ولو كانت مكيفة الهواء! وها هم الآن يحاولون أن يقبعوا داخل الجدار العازل!

الحياة فى إسرائيل (خاصة فى آخر الأسبوع)

تحيط إسرائيل المواطن الإسرائيلي بكم هائل من الرموز والطقوس الدينية، فيعيش وكأنه في معبد، فاسم الدولة ذاته تحيطه هالات القداسة فهي تسمى "إسرائيل" أي المدافع عن الرب أو الذي يدافع عنه الرب. وفي الرموز القبالية، تُسمى المرحلة العاشرة من الفيض الرباني "كنيست يسرائيل" أي جماعة يسرائيل. وإذا نظر المرء إلى العلم رأى اللون الأبيض والأزرق، أى ألوان "الطاليت" (الشال الذي يرتديه اليهودي في الصلاة)، وقد رُسم

عليه رمز ديني آخر هو نجمة داود. وعندما يحمل المواطن بطاقة تحقيق شخصية، أو حتى يتلقى خطاباً من الحكومة، تخبره فيه بضرورة دفع الضرائب المتزايدة عليه، فإنه يجد عليه "المينوراه" شعار الحكومة الإسرائيلية والتراث القبالي في ذات الوقت.

ولا تقتصر الغيبية الإسرائيلية على الرموز وإنما تمتد لتشمل التفاصيل المختلفة لأسلوب الحياة. فعلى سبيل المثال، تحرم الشريعة اليهودية الزواج المختلط، كما أن الصهيونية تعتبر أن الزواج المختلط هو أهم "خطر" يتهدد اليهود واليهودية، ولهذا يكاد يكون من المستحيل عقد زواج مختلط في إسرائيل. ويواجه "المامزير" أو أبناء الزيجات المختلطة مشاكل كثيرة. ومن المعروف أن أحفاد بن جوريون يُعدون من المامزير لأن زوجة ابنه متهودة ولا تعترف المحاكم في إسرائيل بزواجها لأنه محرم حسب الشريعة.

ومن الطريف أن التحريم اليهودي ضد الزواج ليس مقصوراً على البشر بل إنه يمتد ليشمل الحيوانات والنباتات والجماد، فقد جاء في سفر اللاويين (١٩/١٩) "لا تنز بهائمك وحقلك، لا تزرع صنفين، ولا يكن عليك ثوب مصنف من صنفين"، أي أن الانفصال بين الأجناس من جميع الأنواع يجب أن يكون صارماً وكاملاً (ولعل هذا يفسر الإصرار على نقاء الدولة الصهيونية).

ويحاول بعض المتدينين حل مشكلة تحريم الخلط بين النباتات

إذ أنه يصبح من المحرم عليهم بذر أي نبات علفي مع النباتات المنتجة للحبوب لمنع النبات العلفي من الانتشار على الأرض والاختلاط بالحبوب. ولقد تم حل المشكلة عن طريق زراعة أنواع من النباتات العلفية التي لا تنتشر. وينطبق التحريم كذلك على تطعيم الأشجار من أنواع مختلفة، وقد أجريت تجارب لتخطي هذا التحريم بطريقة علمية ولكنها لم تنجح!

ولعل شعائر السبت هي من أكثر الشعائر إثارة للمشاكل في إسرائيل. وعلى سبيل المثال، فإن كثيراً من المصانع لا يمكنها التوقف يوم السبت، ولهذا يضطر صاحب المصنع لأن يشرك معه شخصاً من الأغيار (ولو بشكل صوري) حتى يمكن أن يستمر العمل في ذلك اليوم المقدس. وهنا تنشأ مشكلة العمال المتدينين، مثل هؤلاء العمال الذين يعملون طوال الأسبوع ويحصلون على إجازتهم يوم السبت. ولكن بعضهم يرفض العمل أساساً في أي مصنع يفتح يوم السبت، ولذا لا يوجد متدينون في الصناعات الثقيلة أو الخفيفة ولا في الإعلام!

ويتفاوت الإسرائيليون في اتباع تعاليم السبت من مكان لآخر حسب قوة أو ضعف الأحزاب الدينية داخل المجالس فالمقاهى تفتح أبوابها فى تل أبيب مثلاً طيلة يوم السبت على حين أنها تغلق أبوابها نهائياً في القدس. وفي بناي براك يُمنع النقل العام وتُقفل

الشوارع ولا يُسمح بأي مرور، بينما تجري عمليات المرور والنقل العام في حيفا عادية للغاية كأي يوم من أيام الأسبوع. ويزيد راديو إسرائيل من إذاعة نشرات الأخبار يوم السبت مساءً حتى يستمع إليها من فاته سماعها طيلة اليوم)فالاستماع للإذاعة غير مسموح به في ذلك اليوم المقدس). كما تمنع إذاعة أنباء الموتى أو حوادث الموت في ذلك اليوم، ويُقال إن حوالي رُبع السكان يقيمون شعائر السبت كاملة. وقد قامت مناقشات حادة حول استخدام التيار الكهربائي للإضاءة إذ تناقش العلماء والفقهاء والحاخامات حول ما إذا كان الإبقاء على النور بدون إحداث نار يقع تحت طائلة التحريمات أم لا. ولكن، حتى في إسرائيل ذاتها، يتحايل المواطنون الأرثوذكس على هذه التحريمات، فتشيد بعض المدن الإسرائيلية سوراً رمزياً على حدود المدينة حتى تصبح المدينة كلها وكأنها البيت وبذلك يتمكن كل مواطن من حمل ما يشاء داخل المدينة/المنزل. وعلى الرغم من أن اليهود الأرثوذكس يمتنعون عن استخدام أي أدوات كهربائية، فإنهم يستخدمون الثلاجة الكهربائية على الرغم من أن فتحها يسبب الإضاءة الداخلية فيها، ولكن التفسير هو أن التيار الكهربائي الذي يؤدي إلى الاشتعال عرضي وليس مقصوداً. ويحاول بعض الأرثوذكس استخدام أدوات كهربائية ذات مفاتيح زمنية يتم ضبطها قبل يوم السبت.

وتستخدم بعض مزارع الكيبوتس (الدينية) نفس الطرق العلمية/الدينية! فمثلاً تنشأ الضرورة أحياناً لحلب الأبقار يومياً، ولكن حيث أن هذا أمر محرم يوم السبت يلجأ أعضاء الكيبوتس المتدينين لاستخدام آلات الحلب. ويبدو أن السبت بالذات قد أثار الكثير من المشاكل لمعهد التكنولوجيا والهالاخاه (أو الشريعة) وهو معهد الهدف منه اكتشاف سبل تذليل الصعاب أمام تطبيق الشريعة اليهودية بحذافيرها في إسرائيل.

ونحن لا نعرف مدى مساهمة يهود الدياسبورا في معهد التكنولوجيا والهالاخاه الآنف الذكر، وإن كان له صندوق جباية مستقل أم أنه يتبع النداء اليهودي الموحد أو النداء الإسرائيلي الموحد أو واحداً من آلاف الجمعيات اليهودية الخيرية التي تمول الأحلام الصهيونية الفردوسية المختلطة بالنابالم؟

أرض بلا شعب: منظور إسرائيلى

رغم الحديث المستمر عن الانتصارات الإسرائيلية الساحقة، والتقدم الاقتصادي المذهل، والقوة العسكرية المتزايدة، فإن الإسرائيليين يشعرون في أعماق أعماقهم بما سماه المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون »عقم الانتصار«. أو كما قال المثقف الإسرائيلي شلومو رايخ: "إن إسرائيل تركض من نصر إلى نصر حتى تصل إلى هزيمتها النهائية المحتومة"، وكما قال الجنرال

الفرنسي بوفر، الذي قاد القوات الفرنسية في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فإنه حين ذهب يهنئ إسحق رابين بانتصاره العسكري في يونية ١٩٦٧ بعد انتهاء المعركة بعدة أيام، وكانت القوات الإسرائيلية المشتركة لا تزال في طريق العودة إلى قواعدها، فوجئ بأن الجنرال الإسرائيلي يقول وهو في قمة انتصاره: "ولكن ماذا سيتبقى من كل هذا؟". فالانتصارات الإسرائيلية لم تؤد إلى الهيمنة الإسرائيلية المرجوة ولم تؤد إلى تطبيع الحالة الصهيونية الإسرائيلية، فالدولة الصهيونية لا تزال دولة/شتتل، قلعة مدججة بالسلاح في حالة حرب نفسية مع كل جيرانها، وفي حالة حرب فعلية مع بعضهم، ولا يزال الشعب الفلسطيني يرفضها رفضاً كاملاً (ولذا، فإننا نتحدث عن "الانتشارات" الإسرائيلية بدلاً من "الانتصارات" الإسرائيلية، فهو امتداد أفقي لا معنى له في المكان وليس تطوراً رأسياً في الزمان يحدث تغييرات ذات معنى)، كما أنها في حالة اعتماد مذل على الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كانت الدعاية الصهيونية المصقولة تتحدث عن الصابرا المتفائل المقاتل، فإن الوجدان الإسرائيلي يحكي قصة مغايرة تماماً: فهو وجدان مدرك للورطة التاريخية التي وضعت الصهيونية فيها المستوطنين الصهاينة، وهي ورطة لها أبعادها المختلفة المترابطة والمتعددة. وهذا الإحساس بالورطة يعبِّر

عن نفسه أحياناً بطريقة مأساوية، وأحياناً أخرى بطريقة ملهاوية، حين يتحول الإحساس بالنكبة إلى نكتة.

والمشاكل التي يدركها الإسرائيليون تماماً هي أن فلسطين ليست "أرضاً بلا شعب" كما زعمت الدعاية الصهيونية، وأن الفلسطينيين ليسوا مجرد عرب، وإنما هم كيان محدد داخل التشكيل الحضاري القومي العربي. وهذا الإدراك يدمر شرعية الوجود الصهيوني ويسحب من تحته البساط مهما كان حجم الانتصارات التي تحققها إسرائيل ومهما كان صخب دعايتها. وحتى إن غيَّرت منظمة التحرير الفلسطينية ميثاقها لتؤكد للمستوطنين أنها لا تنوي تحطيم دولتهم الصهيونية فإن هذا لا يغيِّر الحقائق البنيوية، الحضارية والإنسانية والمادية القائمة، فالفلسطينيون هناك يقرعون الأبواب في سلام غاضب أحياناً، وأحياناً أخرى بالأحجار أو حتى بالنار، ليذكِّروا الإسرائيليين بأن كيانهم الصهيوني يستند إلى أكذوبة تاريخية.

ويقول عاموس إيلون إن الإسرائيليين "أصبحوا غير قادرين على ترديد الحجج البسيطة المصقولة وأنصاف الحقائق المتناسقة التي كان يسوقها الجيل السابق"، وذلك فيما يتعلق بأن فلسطين أرض بلا شعب. وقد عبَّر الشاعر الإسرائيلي إيلي إيلون عن هذه القضية بقوله: "إن البعث التاريخي للشعب اليهودي، وأي شيء

يقيمه الإسرائيليون، مهما كان جميلاً، إنما يقوم على ظلم الأمة الأخرى. ولسوف يخرج شباب إسرائيل ليحارب ويموت من أجل شيء قائم أساساً على الظلم.. إن هذا الشك، هذا الشك وحده، يشكل أساساً صعباً للحياة".

ومن أكثر النكت دلالة تلك النكتة العبثية التي أطلقها يعقوب أجمون المسئول عن احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس إسرائيل، إذ يقول: المشروع الصهيوني كله يستند إلى سوء فهم وخطأ إذ كان من المفروض أن يتم في كندا بدلاً من فلسطين. ويرجع هذا إلى تعثُّر لسان موسى التوراتي، فحينما سأله الإله أي بلد تريد كان من المفروض أن يقول على التو «كندا»، ولكنه تلعثم وقال «كاكاكا - نانانا» فأعطاه الإله «أرض كنعان» (أي فلسطين) بدلاً من كندا، فهاج عليه بنو إسرائيل وماجو وقالوا له: "كان بوسعك أن تحصل على كندا بدلاً من هذا المكان البائس، الخرب، هذا الوباء الشرق أوسطي الذي تحيط به الرمال والعرب". والنكتة هنا تعبِّر عن إحساس عميق بالورطة التاريخية وبالطريق المسدود الذي يؤدي إلى العدمية الكاملة.

ونجد نفس الإحساس في هذه القصيدة القصيرة التي خطها مستوطن صهيوني على حائط دورة المياه في الجامعة العبرية.

ليذهب السفارد إلى إسبانيا

والإشكناز إلى أوربا

والعرب إلى الصحراء،

ولنُعد هذه الأرض إلى الخالق –

فقد سبب. لنا من المتاعب الكفاية

بوعده هذه الأرض لكل الناس

والقصيدة مثل نكتة أجمون تعبير فكاهي عبثي عن رفض فكرة الوعد الإلهي التي يستند إليها الخطاب الصهيوني.

وتظهر العبثية في إحساس الإسرائيليين بحالة الحرب الدائمة، كما يتضح في قصيدة الشاعر شاليف "صلاة على جرحى الحرب" حيث يخاطب الشاعر الإله قائلاً:

رب المصابين الساكنين في الجبس،

رب المصابين ممن يتنفسون الأوكسجين،

رب النفوس التي فوق أسرتها

أكياس الدم أرجوانية اللون

معلقة،...

ومن المعروف أن التصور الصهيوني يؤكد أن الإله تربطه علاقة خاصة بالشعب اليهودي (أو كما قال بن جوريون، إذا كان الإله قد اختار الشعب فإن الشعب قد اختار الإله). ولهذا، تتسم كل المقدَّسات اليهودية بطابع قومي (وكل الظواهر »القومية«، مثل

ظهور دولة إسرائيل، تحيطها هالة من القداسة في الوجدان الصهيوني). وتهدف استراتيجية الشاعر في هذه القصيدة إلى إزالة الغشاوة من على عيون الإسرائيليين وإخبارهم أن الإله لا تربطه بهم علاقة خاصة، وأنهم ليسوا شعباً مختاراً وإنما هم مثل بقية البشر تنزف دماؤهم ويحتاجون إلى نقل الدم. ومن هنا كانت الإشارات المتكررة للآلات والاصطلاحات الطبية الحديثة، ومن هنا أيضاً كان الابتهال الختامي في القصيدة الذي يختلف عن الابتهالات اليهودية التقليدية.

جل يا رب النفوس التي تعيش
ما بين عقاقير التهدئة وعقاقير التنويم
ما لا يقدر على تجليته للأرواح سواك.

ويظهر الإحساس بالورطة التاريخية في فقدان الإسرائيليين إحساسهم بالاتجاه كما يتضح في قصة ران أدليسط المعنونة أغنية الموت، أو في كلمات هذين الجنديين الإسرائيليين الجالسين في الخنادق.

– هل ستسقط قنبلة،

– لقد سمعت أن الموقع البديل على طريق الإمدادات ينطوي على انتحار حقيقي.

– ماذا إذن؟ هل سنظل هكذا للأبد!

- هل جننت؟

- هل ننسحب؟

- هل جننت؟

- حرب جديدة إذن؟

- هل الموقف مجرد من الأمل إلى هذا الحد؟

- هل تعرف ماذا تريد؟

- كلا.. وأنت؟

- كلا...

- واحسرتاه.. هيا بنا نفتش عن الموقع الثانوي.

- بوم!

إن الحديث المتفلسف بين الجنديين يتخطى حدود موقفهما ليشمل وضع الإسرائيليين ككل. ويظهر نفس الإحساس بالعبث وبالحركة الدائرية التي تقود الإسرائيليين من حرب إلى أخرى في قصيدة الشاعر يعقوب باسار "الحرب المقبلة":

- الحرب المقبلة

ننشئها.. نربيها

ما بين حجرات النوم

وحجرات الأولاد..

والنعاس

أخذ في الاصطباغ بالسواد.

يرى الشاعر إذن أن الجهد الإسرائيلي مُنصَبٌّ على استنبات زهرات حديد للحرب المقبلة "ما بين حجرات النوم/وحجرات الأولاد".

ويتضح هذا الإحساس بالعبثية وفقدان الاتجاه عند الإسرائيليين في ظهور موضوع «الخوف من الإنجاب» في القصص الإسرائيلي. فمن المعروف أن الدولة الصهيونية تشجع النسل بشكل مهووس لا حباً في الإخصاب والأطفال، وإنما كوسيلة لتثبيت أركان الاستعمار الاستيطاني، ولكن من المعروف أيضاً أن معدل الإنجاب في إسرائيل من أقل المعدلات في العالم. حتى أنهم فكروا في أن يعلنوا للإنجاب عاماً ينصرف فيه الإسرائيليون لإنجاب أطفال أكثر. وكان رد الإسرائيليين، كما هو متوقع، سريعاً وحاسماً وملهاوياً، إذ قال أحدهم إن على رئيس الوزراء أن يعود إلى منزله فوراً للقيام بواجبه الوطني مع زوجته. وهو واجب وطني بالفعل، فكما يقول أرنون سوفير أستاذ الجغرافيا الإسرائيلي، فإن "السيادة على أرض إسرائيل لن تُحسَم بالبندقية أو القنبلة اليدوية بل ستُحسَم من خلال ساحتين: غرفة النوم والجامعات، وسيتفوق الفلسطينيون علينا في هاتين الساحتين خلال فترة غير طويلة". ومن هنا الإشارة إلى المرأة

الفلسطينية النفوض، التي تنجب العديد من الأطفال، بأنها "قنبلة بيولوجية". وتعود ظاهرة العزوف عن الإنجاب إلى عدة أسباب عامة (تركُّز الإسرائيليين في المدن- علمنة المجتمع الإسرائيلي- التوجه نحو اللذة... إلخ). لكن لا يمكن إنكار أن عدم الإنجاب إنما هو انعكاس لوضع خاص داخل المجتمع الإسرائيلي وتعبير عن قلق الإسرائيليين من وضعهم الشاذ كدولة مغروسة بالقوة في المنطقة. ففي قصة "الحالمة "للكاتبة بنيناه عاميت نجد أن البطلة سيطر عليها الخوف والكوابيس، فهي تحلم بالقنابل والمعارك والحرب، وحينما تسألها أمها "لماذا لا يكون لي حفيد في النهاية يا ابنتي؟" فإنها تلوذ بالصمت (والصمت هو الاستجابة الوحيدة المتاحة لكثير من أبطال القصص الإسرائيلية).

ومن القصص الإسرائيلية الطريفة قصة "العَلَمين" ليعقوب شافيت التي تعالج موضوع الخوف من الإنجاب وتدور حوادثها حول رغبة أم إسرائيلية في التخلص من الجنين، ولكن إحدى الشخصيات (العمة إيطة) تثنيها عن عزمها عن طريق الوعد والوعيد والتهديد بالفضيحة، وراوي القصة هو الطفل الذي وُلد فيما بعد، والذي يبدؤها بقوله "في أكتوبر ٤٢ أنقذت عمتي إيطة البشرية". ويذكرنا الراوي أنه في هذا اليوم كانت تدور رحى معركة العلمين (ولذلك تتخلل القصة فلاشات وصفية للمعركة

والدبابات والدخان الأسود). والأم تحس بوضعها كإنسان ضعيف داخل هذا الإطار من الصراعات العالمية، ولذلك فهي تتساءل عن جدوى إنجاب الأطفال إذا كان مقدراً لهم أن يعيشوا حتماً داخل الحرب دون طعام حتى يقضوا. ولكن العمة إيطة تخبر الأم أنه لابد من الإنجاب من أجل البشرية، فترد عليها قائلة "فلتلدهم البشرية إذن". والعمة إيطة شخصية ضيقة الأفق "منهكة دائماً في إلقاء موعظة أخلاقية تربوية"، "تفيض بالعزم والتصميم"، "لا تتحدث إلا لتُصدر أوامر" وهي تهاجم الأم "كأنها حيوان مفترس يهاجم دجاجة".

وفي داخل هذا العبث وفقدان الاتجاه، تسيطر السوداوية والحتمية والإحساس بأن حالة الحرب دائمة. ويظهر هذا الاستسلام الكامل في كلمات موشيه ديان في جنازة صديقه روي روتبرج الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون. فقد قال وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلي السابق: "إننا جيل من المستوطنين، ولا نستطيع غرس شجرة أو بناء بيت، دون الخوذة الحديدية والمدفع؛ علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل في أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا. علينا ألا ندير رؤوسنا حتى لا ترتعش أيدينا. إنه قدر جيلنا، إنه خيار جيلنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لا يسقط السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة".

ومنذ بضع سنوات، لاحظ الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري بمرارة ما سماه «مركب إسحاق» وهو أن الإنسان الإسرائيلي يُولَد "وفي داخله السكين الذي سيذبحه"، كما بيَّن جوري أن "هذا التراب (أي إسرائيل) لا يرتوي"، فهو يطالب دائماً "بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى"، إذ تبدو أرض إسرائيل كما لو أنها إلهة ثأر بذيئة لا مجرد قطعة أرض أو إقليم. كما لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب، الذي يخدمون في الجيش، يشعرون أن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي "تضحية علمانية بإسحق"، أي تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى.

ثم تظهر أساطير قومية تترجم هذا الوضع إلى بناء أيديولوجي أسطوري مُحكَم، ومن هنا ظهرت أسطورة ماساداه وشمشون. وفي كلتا الأسطورتين ثمة حالة حصار نهائية مغلقة، لا يمكن الفكاك منها إلا بتدمير الذات وتدمير الآخر، فنهايتها ليست سعيدة وإنما إبادية للجميع. ومع هذا، ورغم كل هذا الحديث عن الحصار والدمار، فإن الوجدان الإسرائيلي يتجاوز الأساطير الصهيونية المصقولة. فيشير يهوشوفاط هركابي إلى أن الإسرائيليين يميلون إلى تمجيد الوهم ويخفقون في إدراك أن

الواقع مُحدَّد بحدود الممكن. ثم يشير إلى قصة صهيونية انتحارية أخرى هي قصة بركوخبا الذي تحالف مع بعض الحاخامات فأعلنوا أنه الماشيَّح وقرروا مواجهة الإمبراطورية الرومانية دون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان فيما يعرف بالتمرد اليهودي الثاني ضد الرومان 125 - 132)ق.م). وبطبيعة الحال، تم القضاء على المتمردين وعلى تمرُّدهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودي الهزيل في فلسطين، أي أن النزعة الانتحارية الشمشونية هنا لم تؤد إلى القضاء على الآخر وإنما على الذات وحسب، ويُسمِّي هركابي هذا "أعراض بركوخبا"، فالنزعة الانتحارية مرض يصيب صاحبه وهي ليست بالضرورة ماساداه التي تدمر الذات والآخر.

وتتردد نفس النزعة نحو مراجعة أسطورة ماساداه في قصيدة الشاعر حاييم حيفر التي كتبها أثناء الانتفاضة. فبدلاً من ماساداه، يتحدث عن الطائرة المروحية الأمريكية، أي تلك الطائرة التي ستأتي حينما تحين لحظة النهاية وتحط فوق سطح السفارة الأمريكية (كما حدث في فيتنام) لتأخذ فلول المستوطنين وعملاء الولايات المتحدة.

تبدأ القصيدة بالتصويت في الكنيست على الخروج الأخير.. ولذا "فلنرحل إلى أمريكا الآن/فلقد لملمنا حقائبنا وأمانينا".

ويتدافع الجميع دون نظام ")لا تتزاحموا.. لكل مكانه/عفواً لا تضغطوا هكذا"). ويتصور رئيس الوزراء عملية الخروج السريع هذه وهو يجلس في مقعده في الطائرة "ويروق له المقام/يعلن أنه لا مكان للباقين" هنا، وكأن لسان حاله وحال وزرائه يقول "نحن ومن بعدنا الطوفان". إن الصورة السائدة هنا عكس صورة البطل الشمشوني في ماساداه الذي يهلك مع رفاقه:

وبسرعة أخذت الطائرة.. تطير
أما الدولة
فقد هُجرت
وحيدة.. تُركت.. إسرائيل.

وبعد بضعة أبيات وعظية احتجاجية ركيكة (أفلا يمكننا أن نحاول ثانيةً؟/أم أننا لسنا مواطنين مخلصين؟) نكتشف أن الطائرة قد طارت بالوزراء والأحلام:

فإن كنا حقاً هكذا
وعليه حزمت حكومتنا لأمريكا حقائب الرحيل
فإنا جميعاً كذلك
في الرحيل إليها.. راغبين.

بعيداً عن ماساداه المتهالكة، بعيداً عن صهيون التي اشتعلت فيها النيران، إلى الولايات المتحدة الوطن القومي الآمن وربما الحقيقي.

ومثل النكت والقصائد الفكاهية تتضح رنة الحزن في الأغاني الإسرائيلية، فهي مليئة بالعدمية وبالحديث عن الدمار والفقدان والضياع والعزلة. ففي أعقاب انتصار عام ١٩٦٧ لاحظ أفنيري أن من أكثر الأغاني شيوعاً أغنية تقول وبفرح شديد "العـالم كله ضدنا". والفرح هنا تعبير عن إحساس المستوطن الصهيوني بمفارقة موقفه، فهو بعد انتصاره (الذي يعبِّر عن "اختياره") يجد نفسه معزولاً عن العالم، فالأغنية تشبه عبارة مثل: "الحمد لله فأنا مكروه تماماً من كل الناس!".

وقد ازداد الإحساس بالضياع بعد عام ١٩٧٣، ولنأخذ على سبيل المثال أربيل زلبر، المغني الذي انضم إلى يهودا أدر وشالوم هانوخ وكوَّنوا جماعة غناء روك تُسمَّى »تموز«. والصورة العامة التي تشيعها هذه الجماعة هي صورة الشاب الشريد. وزلبر نفسه فقد ساقه وهو يلعب بقنبلة يديوية حين كان صبياً. وأهم أغانيه »هوليخ باطل«)حرفياً: "صار" أو "راح" باطلاً أو "أصبح غير مجد" أي »مافيش فايدة«) وتتحدث الأغنية عن متشرد يبحث عن المخدرات والجنس وقطع غيار السيارات المسروقة.

كما تتحدث الأغاني عن أبطال العهد القديم وأنبيائه بطريقة تنم عن الاستخفاف الشديد، وهؤلاء الأبطال والأنبياء هم الرموز القومية اليهودية الصهيونية الأساسية. فأغنية داني ساندرسون

تتحدث عن داود الذى يهزم طالوت "وتخرج أسفار موسى الخمسة لتشجع... إن كنت تريد أن تصبح ملكاً علينا، في سن السادسة فلتصنع لنا حلبة صراع". وتسخر أغنية زلبر الأخرى من شمشون وتشير إليه باعتباره »عاملاً في عربة قمامة«. أما داود فهناك مسرحية تتحدث عنه باعتباره شاذاً جنسياً. ومعظم المغنين من نتاج الكيبوتس، وهم جميعًا ظهروا بعد عام ١٩٧٣ مع إدراك الصهاينة بداية أزمتهم.

ومن أشهر الأغاني في إسرائيل في الثمانينيات أغنية مائير باتاي، وهي أغنية جميلة حزينة تعبِّر بشكل دقيق عن تساقط الشرعية الصهيونية وإحساس المستوطنين بذلك:

كلهم ذاهبون إلى مكان ما،
يرنون للمستقبل العذب،
أما أنا، فأستيقظ في الصباح
وأركب الحافلة رقم ٥ المتجهة للشاطئ،
الحافلة مليئة بالدخان،
وعجوزان،
والمحصِّل.
وهناك كتابة على حائط أسمنتي:
ماذا حدث للدولة؟

انظر إلى الدولة وانظر إلى الأسمنت!
تغنّي الطيور «صباح الخير»
لعلي أقدر أن أطير معها بعيداً، ولا أسقط.

إن فراغ الحافلة رمز جيد للأزمة السكانية لدى المستوطن الصهيوني، فليس فيها سوى عجوزين (لعلهما يرمزان لـ «الشعب اليهودي» المسن). ويتساءل المغني عما حدث للدولة المكتوب اسمها على الأسمنت (وهو رمز للجمود والموت). ومقابل كل هذا، هناك غناء الطيور التي تبشر ببداية جديدة، خارج الحافلة الفارغة والأسمنت الصلب. ويود المغني أن يطير بعيداً، أن ينزح عن كل هذا. ولكن الأغنية، مع هذا، تعبِّر عن عدم اليقين من إمكانية الفرار، فالسقوط احتمال وارد! أي أنه لا مكان للتقدم للأمام ولا التراجع للخلف!

ثمة إحساس إذن بفشل المشروع الصهيوني وخيبة أمل وإحباط نتيجة هذا، وهي أحاسيس عبَّرت عن نفسها في مجموعة من النكت الساخرة، والأغاني الحزينة والتي تحاول كلها الإفصاح عن وضع تاريخي مركَّب جداً لا مخرج منه، فالصهيوني غير قادر على الخروج من وضعه، وأثبتت الأيام أنه قد يكون قادراً على إلحاق بعض الأذى بالعرب ولكنه غير قادر على تطبيع الوضع والوصول إلى النهاية السعيدة: أي تفتُّت العرب واختفاء الفلسطينيين.

وتدور أحداث قصيدة الشاعر إفرايم سيدون (التي رفض التليفزيون الإسرائيلي إذاعتها) في غرفة صالون يجلس فيه أربعة أشخاص: الأب والأم والطفل، أما رابعهم فهو الجندي الصهيوني، وبالتالي فهي خلية استيطانية سكانية مسلحة. وقد اندلع خارج المنزل حريق (رمز الانتفاضة وظهور الشعب الفلسطيني) وبدأ الدخان يدخل البيت عبر النافذة، إلا أن الأربعة يجلسون بهدوء ويشاهدون مسلسلاً تليفزيونياً ولا يكترثون بشيء. ثم ينشد الجميع:

هنا نحن جميعاً نجلس
في بيتنا الصغير الهادئ،
نجلس في ارتياح جذل،
هذا أفضل لنا، حقاً إنه أفضل لنا.

- الأم: جيد هو وضعنا العام.
- الجندي: أو باختصار .. إيجابي.
- الأب: والوقت "عامل" لصالحنا.
- الطفل: إذا كان الوقت "عاملاً" فهو بالتأكيد عربي.

حينئذ يصفع الأب الطفل ويقول "أسكت يا وقح". وتعليق الطفل إشارة فكاهية للحقيقة المرة التي يدركها الإسرائيليون جيداً: تغلغل العمالة العربية في الكيان الإحلالي الصهيوني. ثم تبدأ الأسرة تتحدث عن الحريق، أو بالأحرى تنكر وجوده:

– الأب: وإذا كانت هنا جمرة تهدد بالحريق.

– الأم: طفلي سينهض لإطفاء الحريق.

– الأب: وإذا اندلعت هنا وهناك حرائق صغيرة.

– الأم: سيسرع ابني لإطفائها بالهراوة.

– الأب: انهض يا بني اضربها قليلاً.

ويخاطب الأب النار فيخبرها أنها مسكينة، وأنها لن تؤثّر فيه من قريب أو بعيد، وأنه سيطفئها في النهاية. وحينما تأكل النيران قدميه لا تضطرب الأم، فالأمر ليس خطيراً، إذ لديه "قدم صناعية" [لعلها مستوردة من الولايات المتحدة]، فالوقت -كما يقول الأب- "يعمل لصالحنا". ولكن الطفل ينطق مرة أخرى بالحقيقة المرة:

– الطفل: بابا، بابا، لقد حرقنا الوقت [الزمن].

– الأب: أسكت.

– الأم: إن من ينظر حولنا ويراقب، يرى كم أن الأب لا ينطق إلا بالصدق كعادته.

– الأب والأم: لقد أثبتنا للنار بشكل واضح.. من هو الرجل هنا ومن هو الحاكم.

– الطفل: ولكن بابا... البيت...

– الأب: لا تشغلنا بالحقائق.

– الطفل والجندي: شعاري: اجْلس في صمت ولا تتعب.

- الرجال: لا تتحرك، لا تتزحزح، لا تفقد أعصابك.
- الجميع: فهكذا تُحارب النار.
- هكذا تُحارب النار.

وهذه القصيدة الفكاهية، شأنها شأن النكت، تخبئ رؤية متشائمة بشأن مستقبل ما يُسمَّى «الشعب اليهودي» الذي أصبح مستقبل المستوطنين الصهاينة الذين يستقرون في المكان وينكرون الزمان، فتحرقهم الحقيقة وهم جالسون يراقبون مسلسلا تليفزيونيا في هدوء وسكينة أو يستمعون إلى الدعاية الصهيونية في رضا كامل!

شعب بلا أرض: منظور إسرائيلى

ترى الصهيونية أن اليهود يكوّنون شعباً واحداً، ولكنه شعب يتسم بالطفيلية والاستهلاكية. وقد زعمت الصهيونية أن مثل هذه الظواهر المرضية هي من ظواهر المنفى ليس إلا، وأنه حينما تنشأ الدولة الصهيونية سيعود اليهودي إلى أرضه المقدَّسة أو القومية ليزرعها فيخلصها من العرب ويخلِّص نفسه من أدران المنفى التي علقت به وأعطت مبرراً لأعداء اليهود واليهودية أن يطلقوا اتهاماتهم المختلفة. وهذا ما يُسمَّى عقيدة «العمل العبري» التي تحولت إلى «عقدة العمل العبري» بعد أن فشل هذا الجانب من الحلم الصهيوني.

ويبدو أن هذا الموضوع (العمل العربي الحقيقي بدلاً من العمل العبري المزعوم) يلح على الوجدان الإسرائيلي إلحاحاً شديداً. ففي نكتة إسرائيلية، نجد عجوزاً إسرائيلياً يجلس مع حفيده ويحكي له عن ذكرياته في الماضي. ويتصفح الاثنان ألبوم الصور، ويشير الجد إلى صورته في الثلاثينيات حين كان يبني بيته بنفسه، فيجيبه حفيده: "هل كنت عربياً في الماضي؟" فمهنة البناء لا يقوم بها سوى العرب، واستخلص الطفل نتائجه تأسيساً على تجربته لا تأسيساً على الادعاءات الصهيونية. ويقول الإسرائيليون تعليقاً على تغلغل العمالة العربية في القطاع الزراعي: "لماذا تطالب منظمة التحرير الفلسطينية باسترجاع الأرض الفلسطينية بكل هذا الإصرار؟ ألم يلاحظوا أن الفلسطينيين قد استعادوها بالفعل". فالأرض كما يعرف الصهاينة جيداً لمن يزرعها.

ولعل تغلغل العرب في قطاعات مثل الزراعة والبناء يعني أنهم يقومون بالأعمال الإنتاجية، الأمر الذي حوَّل المستوطنين الصهاينة إلى وسطاء وطفيليين أو عاملين بالمهن الفكرية، شأنهم في هذا شأن يهود الجيتو (حسب التصوُّر الصهيوني). فالإنسان الإسرائيلي منشغل تماماً بالمضاربات وأسعار البورصة وأسعار التحويل. كما أن عدد العاملين بالمهن (الفكرية) أخذ هو الآخر في التزايد، وتصاعدت معدلات الاستهلاكية بشكل ملحوظ، وأصبح كل

هذا موضع نكات الإسرائيليين، فهم يصفون المواطن الإسرائيلي بأنه »روش قطان« أي »الرأس الصغير« . وصاحب الرأس الصغير، في المجاز الإسرائيلي، هو الإنسان نو المعدة الكبيرة الذي لا يفكر إلا في مصلحته ومتعته واحتياجاته الشخصية وينصرف تماماً عن خدمة الوطن أو حتى التفكير فيه. إنه إنسان استهلاكي مادي لا يؤجل متعة اليوم إلى الغد. فسياسة الدولة الصهيونية - حسب إحدى النكات الإسرائيلية - هي تزويد جماهيرها بالـ C . V . T.، وهي الأحرف الأولى لعبارة Video and Cars .V.T. وحسب الحلم الصهيوني، كان من المفروض أن تصبح إسرائيل نوراً للأمم (ذات فولت عال جداً)، ولكنها أصبحت - حسب قول أحد الصحفيين الإسرائيليين - مجتمع الثلاثة ف (:(Vالفولفو والفيديو والفيلا. وأشار الصحفي الإسرائيلي مكابي دين)في الجيروساليم بوست (إلى أن الإسرائيليين يعملون مثل شعوب أمريكا اللاتينية (أي لا يعملون)، ويعيشون مثل شعوب أمريكا الشمالية (أي يتمتعون بمستوى معيشي عال)، ويدفعون الضرائب مثل الإيطاليين)أي يتهربون منها) ويقودون السيارات مثل المصريين (أي بجنون).

وتتضح هذه الاستهلاكية في التكالب الشديد على السلع الأمريكية والرغبة في الهجرة إلى الولايات المتحدة، أرض الميعاد

الحقيقية. وقد نشرت مجلة عل همشار مقالاً بعنوان "خروج صهيون"، وكلمة "خروج" في الوجدان الديني اليهودي تعني "الخروج من مصر" و"الصعود إلى صهيون أو إرتس يسرائيل" أي فلسطين. ولذا، فإن استخدامها للحديث عن "الخروج" من صهيون يحمل قدراً كبيراً من السخرية النابعة من الإحساس بالمفارقة المتضمنة في الموقف. وقد أشار المقال الذي كُتب عام ١٩٨٧ إلى أن عدد النازحين سيبلغ ٨٠٠ ألف إسرائيلي بعد ١٢ عامًا (في الواقع يُقال إن العدد قد وصل إلى مليون عام ١٩٩٧). ثم علق كاتب المقال بقوله: إذا وضعنا في الاعتبار أن هيئة الأمم قررت الاعتراف بحق اليهود في أن تكون لهم دولة خاصة بهم في وقت كان فيه عدد المستوطنين في البلاد يُقدر بحوالي ٦٠٠ ألف، فإننا سنفهم مغزى هذه المعلومة المفجعة!

كذلك لا يَسْلَم المستوطنون من النكت الإسرائيلية الخاصة بالطفيلية. فقد أشار زئيف شيف المعلق العسكري الإسرائيلي إلى الاستيطان في الضفة الغربية بأنه "استيطان دي لوكس"، فالمستوطنون هناك استهلاكيون وليسوا مقاتلين، يتأكدون من حجم حمام السباحة ومساحة الفيلا قبل الانتقال إلى المستوطنة، ولذلك فإن الصحف الإسرائيلية تشير إلى هذا الاستيطان باعتباره "الصنبور الذي لا يُغلَق أبداً"، بل إنهم يشيرون إلى "محترفي

الاستيطان" (بالإنجليزية: ستلمنت بروفشنالز settlement professionals)، وهم المستوطنون الذين يستوطنون في الضفة الغربية انتظاراً للوقت الذي تنسحب فيه القوات الإسرائيلية ليحصلوا على التعويضات المناسبة (كما حدث في مستوطنة ياميت في شبه جزيرة سيناء). كما يشير الإسرائيليون إلى الاستيطان المكوكي (بالإنجليزية: شاتل ستلمنت shuttle settlement)، وهي إشارة للمستوطنين الذين يستوطنون في الضفة الغربية بسبب رخص أسعار المساكن وحسب ولكنهم يعملون خلف الخط الأخضر وهو ما حوَّل المستوطنات إلى منامات يقضي فيها المستوطنون سحابة ليلهم. أي أنهم يتنقلون كالمكوك بين المستوطنات التي يعيشون فيها في الضفة الغربية ومكاتبهم التي يعملون فيها في المدن الإسرائيلية وراء الخط الأخضر.

ومن حق أي شعب أن يستهلك بالقدر الذي يريد طالما أنه يكد ويتعب وينتج ثم ينفق. ولكن الوضع ليس كذلك في إسرائيل، فهم يعرفون أن الدولة الصهيونية "المستقلة" لا يمكن أن توفر لنفسها البقاء والاستمرار، ولا أن توفر لهم هذا المستوى المعيشي المرتفع، إلا من خلال الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري الأمريكي المستمر طالما أنها تقوم بدور المدافع عن المصالح الأمريكية، أي أن الدولة الصهيونية دولة وظيفية، تُعرَّف في ضوء الوظيفة الموكلة لها.

وقد وصف أحد الصحفيين الإسرائيليين الدولة الصهيونية بأنها "كلب حراسة، رأسه في واشنطن وذيله في القدس"، وهو وصف دقيق وصريح وقاس.

ولكن هناك دائماً الإحساس بالنكتة. فعندما طرح يعقوب أريدور خطة »دولرة« الشيكل أي ربطه بالدولار (وهي خطة رُفضت نظرياً في حينها وإن كانت نُفِّذت عملياً)، اقترحت جيئولا كوهين، عضوة الكنيست، أن توضع صورة إبراهام لنكولن على العملة الإسرائيلية جنباً إلى جنب مع صور زعماء إسرائيل ونجمة داود، وأن يُدرَّس التاريخ الأمريكي للطلاب اليهود بدلاً من »التاريخ اليهودي«.

وأوردت الجيروساليم بوست الحوار الخيالي التالي بين وزير المالية وآخر:

الوزير: الخطوة الأولى هي أن نُخفِّض الميزانية، أما الثانية فهي تحطيم الشيكل واستخدام الدولار.

الآخر: وما الخطوة الثالثة؟

الوزير: الأمر واضح جداً، ننتقل إلى بروكلين (أحد أحياء اليهود في نيويورك).

وقد كتب أحد القراء لصحيفة الجيروساليم بوست معلقاً على طفيلية الشخصية الإسرائيلية وعلى مدى اعتماد الدولة الصهيونية

على الولايات المتحدة. يشير القارئ (في يناير ١٩٨٥) إلى أن الدولة الصهيونية طلبت خمسة بلايين دولار كمنحة من الولايات المتحدة، ثم يقترح ما يلي:

"بدلاً من نقل النقود للخزانة الإسرائيلية التي ستبددها في دعمها لصناعات غير كفأة وبالتالي مفلسة، ولتعويض المضاربين سيئي الحظ في أسهم البورصة، ولدفع مبالغ من المال للصيارفة النهمين. وفي محاولة تمكين سكان إسرائيل من أن يستمروا في أسلوب الحياة الذي تعوَّدوا عليه، ولدفع مصاريف بيروقراطيتنا الوقحة التي تحتسي الشاي بشراهة، أرجو أن تسمحوا لي أن أقترح ما يلي على دافع المعونة:

يبلغ عدد سكان إسرائيل في الوقت الحالي ٤,٢٣٥,٠٠٠ يكونون نحو ١,١٦٠,٠٠٠ أسرة، وإجمالي دخل كل أسرة هو ٦,١٢٠ دولار...

فإذا قامت الحكومة الأمريكية بإرسال شيك لكل أسرة بما يعادل هذا المبلغ عن عام ١٩٨٥، فإننا سنحصل على المزايا التالية: سنوفر على دافع الضرائب الأمريكي ٣٨٥,٥٢ مليون دولار، وبإمكان إسرائيل بأسرها أن تمكث في الفراش، وتلعب الجولف أو الطاولة أو تذهب لصيد السمك طوال العام. ويمكن أن نتخلص من البيروقراطيين الذين سيستفيدون أيضاً، فعدم العمل

والحصول على راتب أمر طبيعي جداً بالنسبة لهم، وسينتهي العجز في الصناعات...

كما أن شركة العال للطيران التي تخسر الكثير لأنها لا تطير يوم السبت، لن تخسر شيئاً على الإطلاق بأن تكف عن الطيران تماماً. ويمكننا حينئذ أن نزيد مدة الخدمة العسكرية (دون دفع أي مقابل) حتى نعطي الناس شيئاً يفعلونه. في الواقع، سيكون العصر الألفي قد وصل "فالفهد (حيث لا يوجد عنده شيء آخر يفعله) سيرقد مع الكبش" وفي هذه الحالة سنتبع خطى يورام أريدور في طريق الدولرة وستتحقق النبوءة "وسيقودهم طفل صغير" (أشعياء ١١/6).

وبعد حادثة بولارد واعتراض الولايات المتحدة على ترقية بعض الضباط الإسرائيليين المتورطين في الحادث وخضوع إسرائيل، اقترح أحد الصحفيين الإسرائيليين أن تنتقم الدولة الصهيونية بتعيين بولارد نفسه سفيراً لإسرائيل لدى الولايات المتحدة، أي أن تنتحر الدولة الصهيونية تماماً.

ويدرك الإسرائيليون المفارقة التاريخية التي تربطهم، كدولة استيطانية بيهود العالم الذين يرفضون الحضور إليها، فغالبيتهم الساحقة صهاينة توطينيون، أي أنهم على استعداد كامل لأن يطلقوا الشعارات الصهيونية الملتهبة عن الوطن القومي ولأن

يتظاهروا من أجله وأن يدفعوا التبرعات له، ولكنهم لا يظهرون أي استعداد للاستيطان فيه. وقد وصف المفكر الصهيوني العمالي بوروخوف هذا النوع من الصهيونية بأنه «صهيونية الصالونات»، كما أشار لها آخر بأنها «صهيونية بدون استيطان». وهذه المفارقة لا يمكن أن يتعامل معها الإسرائيليون إلا من خلال النكتة، فدولتهم الصهيونية تؤسس مستوطنات في الضفة الغربية تُسمَّى «مستوطنات الأشباح» (بالإنجليزية: دمي ستلمنت dummy settlements) إذ لا يوجد فيها مستوطنون. فيقول الإسرائيليون، في إشارة واضحة ليهود الولايات المتحدة: إن أهم «دولة يهودية» في العالم هي «دولة نيويورك اليهودية» the Jewish State of New York. وفي هذا لعب بالألفاظ، فكلمة State الإنجليزية تعني «دولة» و«ولاية» في الوقت نفسه. كما يشير الإسرائيليون إلى يهود أمريكا باعتبارهم Jewish Wasps، وكلمة «واسب»، والتي تعني «دبور»، هي اختصار للعبارة الإنجليزية white Anglo-Saxon Protestant أي «بروتستانتي أبيض من أصل أنجلوساكسوني»، فكأن يهود أمريكا أمريكيون لحماً ودماً وقلباً وقالباً ولكنهم يتمسحون في الهوية اليهودية.

ويرى بعض الإسرائيليين أن يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى

إسرائيل باعتبارها «ديزني لاند» يهودية، أي مدينة ملاه يهودية يقصدونها بهدف الترويح عن النفس. وقال آخر إنها بالنسبة لهم بمنزلة «متحف قومي يهودي» يدخلونه ويقضون فيه بضع سويعات ويخرجون مليئين بالحماس الوطني ويعودون بعدها إلى بيوتهم وأوطانهم الحقيقية. وقد استخدم أحد المثقفين اصطلاح «فندق صهيون» ليصف علاقة يهود العالم بإسرائيل، فهم لا يحضرون إلى إسرائيل إلا حينما يكون الجو حسناً في الربيع والصيف، ويتركونها في الخريف والشتاء لعمال الفندق (من الصهاينة الاستيطانيين) ليغلقوا الأبواب والنوافذ ويقوموا بأعمال الصيانة والتحسينات إلى أن يعود السياح من الصهاينة التوطينيين أحباء فندق صهيون (وعلى كل فإن اصطلاح «صهيونية» يشير إلى فعل «يصون»، حسب أحد التفسيرات، ولذا فإن قيام الصهاينة بأعمال الصيانة أمر منطقي).

أما دفع المعونات للوطن القومي، فهو هدف الكثير من النكت التفكيكية. وقد أشار أحد المعلقين إلى ما سماه «يهودية دفتر الشيكات» وهو اليهودي الذي يعتقد أن بوسعه تحقيق هويته اليهودية بأن يدفع التبرعات للمؤسسات اليهودية والصهيونية. وهو يدفع هذا الشيك ليريح ضميره وحتى يمكنه بعد ذلك أن يتمتع بحياته الأمريكية الاستهلاكية غير اليهودية دون أي حرج وبشراهة

بالغة.

وهناك من يذهب إلى أن دفع المعونات للوطن القومي يتم خوفاً منه لا حباً فيه. ومن هنا أطلق الحاخام آرثر هرتزبرج على يهود الولايات المتحدة تعبير «يهود النفقة»، أي أنهم يدفعون التبرعات للدولة الصهيونية لا حباً فيها وإنما اتقاءً لشرها ولشراء سكوتها عنهم. وقد استخدم إسرائيلي آخر صورة مجازية مغايرة تماماً، ولكنها تعبِّر عن نفس المعنى، أي الاتصال المؤقت وعدم الالتزام، حينما قال: إن يهود الخارج يغدقون الأموال على إسرائيل مثلما يغدق الرجل الأموال على عشيقته التي تعطيه بضع سويعات من السعادة الملونة، ولكنه يعود في نهاية الأمر لزوجته الأمريكية - الحقيقة الدائمة!

لكل هذا، عُرِّف الصهيوني بأنه يهودي يجمع المال من يهودي ثان لإرسال يهودي ثالث إلى أرض الميعاد، والصهيوني هنا هو الصهيوني التوطيني. وقد شبَّه أحد المفكرين اليهود الصهاينة التوطينيين بأعضاء فرق الإنشاد العسكري الذين ينشدون بحماس شديد عبارات مثل "تقدموا! تقدموا!" ولكنهم واقفون في أماكنهم لا يبرحونها ولا يتقدمون خطوة واحدة.

وحتى حينما يأتي اليهود من الخارج للاستيطان، فالأمر لا يخلو من المشاكل. فعلى سبيل المثال، هناك مشكلة السفارد

والإشكناز الذين يتبادلون الاتهامات والنكات. فيشير الإشكناز للسفارد باعتبارهم "شفارتز" أي "سود" ويقولون "الفرانك كرانك" أو "شحوريم"، أي أن "السفارد مرض"، ويرد السفارد بدورهم بالحديث عن "إشكي نازي". وهناك نكتة تبادلها السفارد عن طفل سفاردي سئل عما يود أن يصبح حينما يكبر فكان رده "إشكنازي"! ولم يختلف الأمر كثيراً مع حضور المهاجرين السوفييت. فقد لاحظ الإسرائيليون أنهم صهاينة استيطانيون قالباً، أما قلباً فهم مرتزقة تماماً، باحثون عن الحراك الاجتماعي بأي ثمن وفي أي مكان، حتى لو كان أرض الميعاد. فهم جاءوا إلى صهيون لا بسبب قداستها وإنما بسبب أسعارها والفرص المادية المتاحة لهم. وتتناقل الصحف الإسرائيلية تصريحاتهم التي تعبِّر عن موقفهم النفعي تماماً. فواحد منهم يقول أحدهم إنه لم يأت لاقتناء سيارة، فقد كان عنده سيارة في روسيا، وإنما أتى لاقتناء سيارة أكبر. وآخر يشكو من أن أرض الميعاد حارة جداً، ويعلن ثالث، رغم ادعاءاته اليهودية، أنه لا يعرف عن عقيدته المزعومة سوى أن اليهود يوقدون الشموع في أحد أيام الأسبوع: الثلاثاء أو السبت، ويسخر رابع من حائط المبكى (بالعبرية: كوتيل) ويشير إليه بأنه «ديسكوتيل». وقد وصفت إحدى الصحف الإسرائيلية هؤلاء المهاجرين بأنهم يجلسون على حقائبهم، أي أنهم يتحينون

الفرصة السانحة كي يفروا من صهيون، إلى أي مكان آخر يحقق لهم قدراً أكبر من الحراك الاجتماعي.

وكتب صحفي إسرائيلي خبيث، مقالاً فكاهياً في باب كان يُسمَّى »العمود الخامس« (بالإنجليزية: ففث كولامن Fifth Column) في الجيروساليم بوست)ويمكن ترجمتها أيضاً إلى »الطابور الخامس«) معلقاً على وضع المهاجرين الجدد.

يبدأ المقال في مكتب التوظيف في إسرائيل.. ويدخل شاب تبدو عليه علامات الذكاء فيسأله الموظف: ماذا تعمل؟ فيقول "مهاجر جديد"، فيفهم الموظف من إجابته هذه أنه من الوافدين ويسأله: أي وظيفة تود أن تشغلها؟ فيجيبه الشاب "مهاجر جديد".

– نعم فهمت أنك "مهاجر جديد" ولكن ما نوع العمل الذي تود تأديته؟

– "مهاجر جديد".

فيبتسم الموظف إذ يتحقق من أن الشاب لا يفهم العبرية ويتحدث معه ببطء شديد.

– أ نـ ـت

مـ ها ج ج ر

ج د ي ي د

حسناً أين ولدت؟

فيجيبه الشاب: "بتاح تكفا". وعند سماع هذه العبارة تغمر الدهشة وجه الموظف تماماً، إذ أن بتاح تكفا هي أول مستوطنة صهيونية في فلسطين والمولود فيها لا يمكن أن يكون وافداً، فقد وُلد على أرض فلسطين المحتلة، ولغته الأولى هي العبرية، وحينما يطلب الموظف من الشاب تفسيراً يجيب هذا بقوله:

– سمعت أن لديكم وظائف للمهاجرين الجدد. وأنا عاطل عن العمل. ولذا قررت أن أكون مهاجراً جديداً.. وقد سمعت أن هناك مئات الملايين من الدولارات لتأهيل المهاجرين الجدد.. لمَ لا يُعاد تأهيلي حتى أصبح مهاجراً جديداً؟ فمثلاً يمكنني أن أتعلم كيف أتحدث بالعبرية الأساسية. ويمكن أن أتحدثها بلهجة رديئة، وسأرتدي ملابس مضحكة مثل المهاجرين الجدد. انظر، أنا مستعد أن أضحي بكل هذه الأمور، لقد سُرحت من الجيش منذ عام ولم أعثر بعد على عمل. اسمع.. أن كثير من أصدقائي ينزحون عن هذا البلد.. ولا أريد أن أفعل ذلك، فأنا مؤمن بالصهيونية وأحب هذا البلد، وإذا كانت الطريقة الوحيدة للبقاء هنا هي أن أصبح "مهاجراً جديداً" محترفاً.. حسناً إذن سأفعل ذلك! أعرف أن هذا يعني أنني سأصبح عضواً في أقلية محتقرة وأن أشعر بالحنين نحو وطني الأصلي.. كل شيء لا مانع عندي إذا كان هذا هو المطلوب، فأنا على استعداد للقيام به، سأكون مهاجراً جديداً

مثالياً.. سأقضي وقتاً قصيراً في معهد تعليم العبرية. وسأتكيف تماماً في الجيش، وأعدك أن أطلب كل شيء مثل المهاجرين الجدد، وسأبدي ضيقًا شديداً من عملية الاستيعاب ولن أكف عن الشكوى بخصوص كل ما أحتاج إليه.

وقد رسم لنا الكاتب صورة فكاهية دقيقة للمهاجر الجديد وموقفه الاستهلاكي وبحثه عن الترف وشكواه المستمرة، عند هذه النقطة يُظهر الموظف تعاطفاً نحو الشاب، ولكن تظهر مشكلة وهي أن حفيظة النفوس الخاصة به تدل على أنه وُلد في بتاح تكفا وبالتالي فإن من المستحيل تصنيفه "مهاجراً جديداً"، فيخبره الشاب أنه لا يوجد مشكلة البتة ويطلب إستكر (ورقة لصق). وحينما يستفسر الموظف عن السبب يخبره الشاب أن وزارة الداخلية تصدر قصاصات لصق تقول إن المعلومات الواردة بحفيظة النفوس ليست دليلاً قانونياً على القومية. وعند هذه النقطة، يرفض الموظف ويعرفه أن قصاصات اللصق التي تصدرها وزارة الداخلية تشير إلى قضية من هو اليهودي، وتعني أن مَنْ يسجل نفسه يهودياً فيها لا يعني بالضرورة بأنه قد تهود حسب الشريعة، فالإشارة هنا -كما يقول الموظف- إنما هي إلى التهود غير الشرعي، وهنا يقول الشاب: وماذا عن وصمة الانتماء إلى جيل الصابرا طيلة حياتي؟

والعبارة الأخيرة تلخص الموقف تماماً، وتبين الصراع المرتقب بين الوافدين والمستوطنين القدامى. ويكتب نفس الكاتب مقالاً فكاهياً آخر يُعلق فيه على مصير الصهيونية ككل ووضعها وما آلت إليه. وعنوان المقال هو «الصهيونية الخالدة». والمقال عبارة عن حوار بين متشائم ومتفائل. وحين يعلن الأول عن موت الصهيونية يؤكد له الثاني خلودها، ثم يقدم له الأدلة الدامغة والبراهين القوية مؤكداً له أن الهجرة الصهيونية من الولايات المتحدة لا تزال على قدم وساق. وبنبرة كلها يقين يقول "القنصلية الإسرائيلية في نيويورك أرسلت مائة نعش – إذ أن يهود أمريكا يحبون أن يُدفَنوا في إسرائيل" (وهذه ليست نكتة وإنما حقيقة تشكل استمراراً للتقاليد الدينية اليهودية). المهاجرون يحضرون إذن – كما يقول المتفائل – ولكن في قسم البضائع، والتظاهرات الصهيونية لا تزال تُعقَد ولكن في مكاتب الجنازات، وهي تطرح الشعار التالي: "أعطوني المؤمَّن عليهم والموتى، والمومياوات، التي تود أن ترقد حرة" (وهذه معارضة ساخرة للشعار المكتوب على قاعدة تمثال الحرية في الولايات المتحدة). إن رغبة يهود أمريكا في أن يُدفَنوا في إسرائيل تقوم دليلاً على أنهم قد يدينون بوجودهم الزمني أو الدنيوي للولايات المتحدة، ولكن حينما يتصل الأمر بالأبدية فإنهم يعرفون أن وطنهم الحقيقي هو إسرائيل. ومن هنا تعبير «الصهيونية الخالدة»: "كان بوسعهم أن يُدفَنوا في إحدى المناطق

كثيفة الأشجار في الولايات المتحدة، ولكنهم يفضلون الريادة في أرض الميعاد بين شعبهم في تابوت خشبي... ويا لهم من مهاجرين مخلصين.. لا تراهم قط يتألمون من مفارقة أوطانهم ولا من عدم وجود «كنتاكي فرايد تشيكن» في إسرائيل.. بل إنك لا تراهم على الإطلاق.. فحمداً للسماء، لقد كنا نظن أن الهجرة من الولايات المتحدة قد انتهت... ولكننا الآن نعرف الحقيقة... أن الأمريكيين يموتون من أجل الحضور لإسرائيل".

احتراق الأكاذيب

تتميز الأعمال الفنية (الأدبية والتشكيلية) بأنها تقدم رسالتها من خلال المجاز، ومن خلال التلميح لا التصريح، وهذا يوسع من رقعة الحرية أمام مؤلف العمل، إذ يمكنه أن يتناول موضوعات لا يمكن لرجل السياسة أن يتناولها، أي أن بوسعه أن يتناول موضوعات لا يمكن لرجل السياسة أن يتناولها، وبعبارةٍ أخرى فهو يتناول "المسكوت عنه" كما نقول هذه الأيام. كما أن الأعمال الفنية تعبر عن المكنونات الخفية للوجدان واللاشعور، بطريقةٍ قد تتجاوز إرادة مؤلف العمل.

انظر على سبيل المثال لقصة الروائي الإسرائيلي أبراهام يهوشوا، فهذا الروائي يؤمن إيماناً عميقاً بالأيديولوجية الصهيونية ويدافع عنها بكل جوارحه، مع هذا كتب قصة قصيرة بعنوان "في

مواجهة الغابة"، وصفها النقاد والمعلقون والسياسيون في الدولة الصهيونية بأنها هدامة وانتحارية.

تتناول القصة بعض الأحداث في حياة طالب إسرائيل يكتب دراسة عن ممالك الفرنجة. وإشارة الكاتب لممالك الفرنجة مسألة ذات دلالة عميقة، فالوجدان الاستيطاني الإحلالي الصهيوني مشغول إلى درجة محمومة بهذه الممالك، التي كانت تجربة استيطانية إحلالية دامت زهاء قرنين من الزمان، ولكنها لم تنجح في أن تضرب جذوراً في الأرض العربية، ولذا كان مآلها الاختفاء. وقد عُيِّن الطالب حارساً لغابةٍ غرسها الصندوق القومي اليهودي في موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومدن. وكانت كل شجرة في الغابة تحمل اسم أحد المساهمين من الصهاينة التوطينيين من يهود الخارج. ومرة أخرى تحمل التفاصيل كثيراً عن الدلالات العميقة. فإزالة القرية العربية هو محاولة لفرض الرؤية الصهيونية القائلة بأن فلسطين "أرض بلا شعب"، وهي جريمة يسهم فيها صهاينة الخارج.

وتستمر أحداث القصة، إذ يقابل الطالب/الحارس عجوزاً أبكم من أهل القرية العربية التي أُزيلت، وتنشأ علاقة مركبة بين الحارس الإسرائيلي والعجوز العربي، فالإسرائيلي يخشى انتقام العربي، ولكنه مع هذا يجد نفسه منجذباً إليه بصورة غير عادية،

بل إنه يكتشف أنه يحاول، بلا وعي، مساعدة العربي في إشعال النار بالغابة. وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة. ولكن ما هي هذه المشاعر المكبوتة؟ لا تخبرنا القصة شيئاً، ومع هذا ليس من الصعب أن نخمن، فالحارس الإسرائيلي يعرف أنه يعيش في كذبةٍ كبرى، ففلسطين عامرة بسكانها، وتاريخ ممالك الفرنجة التي زالت وولت ولم يبق منها سوى بعض الأطلال تحوم في وجدانه، وحينما يظهر العجوز العربي تسنح أمام الحارس الإسرائيلي فرصة التخلص من حالة الكذب التي يعيش منها، والتي لا يمكنه أن يواجهها، ولهذا يشعر الحارس بالراحة حينما تحترق الغابة.

ولا أدري مدى تأثر المخرجة السينمائية الإسرائيلية راشيل ليه جونز بهذه القصة، فقد قدمت فيلماً بعنوان "٥٠٠ دونم في القمر" (في المهرجان السنوي الثالث عشر للأفلام المتعلقة بحقوق الإنسان والذي عُقد في نيويورك في النصف الثاني من شهر يونيو/حزيران ٢٠٠٢). وقد بدأت المخرجة حياتها مثل أي مستوطنة صهيونية، إذ هاجرت من الولايات المتحدة واستقرت في مستوطنة للفنانين تسمى "عين هود" تقع عند سفح جبل الكرمل، أسسها عام ١٩٥٣ فنان يهودي جاء من رومانيا، وذلك على أنقاض قرية فلسطينية تُدعى "عين حوض". وقد أُعجب الفنان

الروماني بجمال القرية فحولها إلى مستعمرة للفنانين والسياح. وقد سُحرت مخرجة الفيلم بجمال بيوت القرية المبنية من الحجارة وبطرقها الضيقة المنحدرة.

ولكن مخرجة الفيلم تدرك تدريجياً كذب الأسطورة الصهيونية إذ بدأ تعرف أن قرية عين حوض الفلسطينية لم تختف تماماً أثناء حرب ١٩٤٨. فرغم أن معظم أهل القرية رحلوا واستقروا في مخيم جنين (تتضمن الفيلم حواراً معهم)، فإن أسرة أبو حلمي صممت بل أسست قرية عربية جديدة على بعد ميل واحد من القرية القديمة (لا يختلف هذا كثيراً عن الطرق الالتفافية التي يشيدها المستوطنون الصهاينة في الضفة الغربية لتحاشي رؤية القرى العربية، فبعد أن اكتشفوا أن فلسطين ليست "أرضاً بلا شعب"، قرروا أن يجعلوا منها "أرضاً لا نريد أن نرى أصحابها الأصليين" وقد أصبحت القرية العربية الجديدة كأنها شبح يطارد القرية الاستيطانية، تماماً مثل العجوز الأبكم في قصة يهوشاوا). وتعيش القريتان جنباً إلى جنب، ولكنهما لا يتقاطعان، بل إن عدم التفاهم والمرارة يتزايدان، لأن الصراع بين القريتين متجدد في التاريخ الذي يحاول الإسرائيليون تناسيه (كما تقول المخرجة).

وقد لاحظت المخرجة أن الأسطورة الصهيونية والدعاية

الإسرائيلية يستبعدان التاريخ، بحيث تصبح فلسطين مجرد قطعة أرض لا تاريخ لها. وينتج عن هذا أيضاً فصل الأسباب عن النتائج. فالصهاينة يتحدثون عن الإرهاب الفلسطيني ولا يتحدثون قط عن المستوطنات الصهيونية أو البطش العسكري الإسرائيلي. وهذا ما أكدته المخرجة في حديث لها إذ قالت "إن إسرائيل التي نشأنا فيها، هي مجرد جزء من القصة الكاملة، وهو جزء مشوه ... تنشأ في إسرائيل فترى الأطلال من حولك في كل مكان، ولكنهم يجعلونك تصدق أن هذه الأطلال جزء من تاريخ قديم موغل في القدم. ولكنني الآن أعرف أن هذه الأطلال لا يزيد عمرها عن ثلاثين أو أربعين عاماً". وإذا كان الإسرائيليون ينسون أو يتناسون التاريخ فإن الفيلم يذكِّر الجميع بأن المقهى الذي يتجمع فيه الفنانون في المستوطنة الصهيونية كان في يوم من الأيام مسجد القرية. وحينما يتباهى مستوطن صهيوني وزوجته بأصالة منزلهما المبني من الأحجار، فإن الفيلم يذكرنا بأن هذه الأحجار بل نوافذ المنزل كلها مأخوذة من بيوت عربية. وتضيف المخرجة أن الإسرائيليين يتصورون أن هذه المنازل عبارة عن أشياء "عثروا عليها" يمكنهم استخدامها ليشكلوا أعمالهم الفنية! ولكنك لو ألقيت نظرة واحدة على المواد التي بُنيت منها المنازل فإنك ستلاحظ أنها تصرخ باللهجة الفلسطينية.

وحتى ينسى المستوطنون الصهاينة التاريخ فقد زرعوا غابة كثيفة من أشجار السرو ليحجبوا القرية العربية الجديدة، التي يقطنها في الوقت الحاضر ٢٥٠ فلسطيني. ولكن السلطات الإسرائيلية لم تعترف بها (لذا فالقرية محرومة من الماء والكهرباء) لأنها بُنيت في منطقة خضراء، أي "أنها أرض تقرر أن تكون حديقة عامة" حسب خريطة اعتمدتها الدولة الصهيونية عام ١٩٦٥.

ولكن الفلسطينيين لم ينسوا الماضي مطلقاً لأن وجودهم الحالي سواء في جنين أو في قرية عين حوض الجديدة وجود مؤقت. ويقول محمد أبو الهيجا، وهو من أحفاد أبو حلمي: "نحن نكره أشجار السرو اليهودية". وفي عام ١٩٩٨ اندلعت النيران في غابة السرو فظهرت القرية العربية (ألا يذكرنا هذا بقصة يهوشاوا). واكتشفت المخرجة الإسرائيلية الحقيقة، واكتشفت أن الحاضر ليس معزولاً عن الماضي وعن التاريخ وكما قالت: "إذا كنا نريد أن نفهم أين نحن الآن فعلينا أن نعود للماضي".

والفيلم الذي أخرجته راشيل ليه جونز هو إسهام في عملية استرجاع التاريخ الذي يحاول الصهاينة تناسيه وإلغاءه. ولعل عرض مثل هذا الفيلم في نيويورك ثم التعليق عليه في صحيفة نيويورك تايمز (17 يونيو/حزيران ٢٠٠٢) يبينان أن الصهاينة بدأوا يخسرون بعض المواقع في خضم المعركة الإعلامية المستمرة.

الرعب يجتاح الجيب الصهيوني

حينما تتصاعد المقاومة العربية للغزوة الصهيونية، يبدأ الوجدان الإسرائيلي في الشعور بورطته التاريخية: كتلة بشرية تم نقلها من أوروبا ثم غُرست غرساً في فلسطين، في وسط العالم العربي فقسمته إلى قسمين ثم طردت الفلسطينيين من أرضهم وأرض أجدادهم. وكان الصهاينة الأوائل يتصورون أن الفلسطينيين سيختفون من على وجه الأرض، مثلما اختفى السكان الأصليون في أمريكا. ولكن الفلسطينيين لم يختفوا بل تجمعوا ونظموا أنفسهم في حركة مقاومة آخذة في التصاعد. ولذا قال الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري بمرارة إن "المستوطن الإسرائيلي يُولد وفي داخله السكين الذي سيذبحه". وعندما اندلعت الانتفاضة الأولى، كتب الشاعر إفرايم سيدون قصيدة (رفض التليفزيون الإسرائيلي إذاعتها) رسم فيها صورة فكاهية سوداء للإسرائيليين الذين يتجاهلون النار المشتعلة حولهم. فالأب جالس تأكل النيران قدميه، ولكن الأم لا تضطرب لأن الأب لديه قدم صناعية. ثم يغني الأب والأم قائلين: "لقد أثبتنا للنار بشكل واضح ... من هو الرجل هنا، ومن الحاكم".

ومع اندلاع انتفاضة الأقصى بدأ الوجدان الإسرائيلي يشعر مرة أخرى بالوجود الفلسطيني وبالمقاومة الفلسطينية.

ويتحدث الأديب عاموس ألون (نيويورك ريفيو أوف بوكس، ٢٣ مايو/أيار ٢٠٠٢) عن الإحساس بالخوف الذي اجتاح المجتمع الإسرائيلي، وكيف أن المحلات أُغلقت، وانتشر الجنود في كل مكان. وحين ذهب إلى مكتبة الجامعة العبرية (وهذا قبل العملية الاستشهادية في كافتيريا الجامعة) لم يجد سوى ثلاثة أشخاص في مكان كان يقدم الخدمات لعشرين ألف طالب. وعندما ذهب إلى عيادة أحد الأطباء سمع الممرضة تقول إنها وكل الممرضات سيتوقفن عن العمل في غضون ساعة إن لم يُعين جندي للحراسة.

وقد نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت 12)إبريل/نيسان ٢٠٠٢) مقالاً ساخراً للكاتب الفكاهي الإسرائيلي ب مايكيل بعنوان "أغيثونا".

يبدأ المقال بالكلمات التالية: "المطلوب من القراء الذين يعيشون بالقرب من البحر أن يقطعوا هذه المذكرة، وأن يترجموها إلى الإنجليزية ويطووها بعناية ثم يضعوها في زجاجة مغلقة، ويلقوا بها في البحر، ولهم في النهاية أن يتمنوا خيراً". أما المذكرة فجاء فيها ما يلي:

إلى كل الناس الطيبين الذين سيعثرون على هذه المذكرة، هذه الرسالة التي وصلتكم هي من رجال ونساء وأطفال حُوصروا في مكانٍ منعزل في الشرق الأوسط.

نحن أناس طيبون، ولكن نتيجة حادثة تصويت حادة [أي انتخاب شارون] وجدنا أنفسنا تحت رحمة مجموعة من القيادات الفريدة في غبائها: معظمهم جنرالات ولواءات ورجال دين وغير ذلك من رجال العصابات.

هؤلاء الأشرار يُصرّون على أن الإله نفسه هو الذي طلب منهم أن يحاربوا بلا نهاية من أجل قطعة من الأرض لا فائدة تُرجى منها [إشارة على المستوطنات في الضفة الغربية] يقولون إنها مقدسة بالنسبة لهم، وهم يفرضون علينا أن نموِّل حروبهم بل وأن نشترك فيها بشكل مباشر أحياناً.

إن وجدتم هذه المذكرة، نرجو أن تأخذوها إلى قياداتكم. فهذه آخر وسيلة للاتصال. فالتليفزيون والإذاعة تتحكم فيها حكومتنا وعملاؤها ... لا يزال عندنا بعض الطعام والماء، ولكن لم يبق سوى قطرات بسيطة في مخزوننا من العقل والحكمة.

التوقيع

(الجبهة الشعبية لتحرير الناس العاديين).

ونصادف نفس الاستجابة الكوميدية السوداء في البرنامج التليفزيوني "في إسرائيل فقط" الذي يقدمه ايريز طال وأورنا باناي. ويتكون البرنامج من مشاهد تمثيلية قصيرة تبين أثر الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلي. وتبدأ إحدى التمثيليات برجلٍ

وحبيبته يذهبان إلى أحد المطاعم ويجلسان على مائدةٍ يحرسهما حارس مدجج بالسلاح ويطلبان عشاء، ولكن حينما يفتح النادل زجاجة الشامبانيا يلقي الرجل وحبيبته بنفسهما على الأرض ثم تصرخ المرأة في النادل: "هل أنت مجنون؟ ما الذي يجعلك تفتح الزجاجات بهذه الطريقة؟". وكأن هناك طريقة أخرى لفتح الزجاجة. ثم يعود الرجل وحبيبته إلى المائدة، ولكي يتخلصا بعض الشيء من خوفهما يغنيان أغنيةً عن الليل الجميل، ولكن الرجل يُسقط كوباً من الماء عن طريق الخطأ فيتحطم، فيلقي الحبيبان بنفسهما مرة أخرى على الأرض، ثم يعودان إلى المائدة مرة ثالثة، ويحاولان تهدئة الخوف فيغنيان أحد أناشيد حركة السلام الإسرائيلية ويطلقان بالوناً، ولكن البالون ينفجر فيلقيان بنفسهما مرة ثالثة على الأرض وتصرخ المرأة "لا تتركني وحدي. أنا لا أستطيع أن أتحرك"، ولكنها تكتشف أن الرجل قد لاذ بالفرار.

وعندما صرح وزير الدفاع الإسرائيلي، بنيامين بن أليعازر، أن الإسرائيليين لا يشعرون بأي توتر أو قلق بسبب انتفاضة الأقصى بل إنهم فرحون مبتسمون دائماً، أذاع برنامج "في إسرائيل فقط" تصريح الوزير وقد صاحبته أغنية فرحة، ولكن على الشاشة ظهرت صور إحدى الهجمات الفدائية وقد تناثرت الأشلاء وسالت الدماء وهُرعت سيارات الإسعاف.

ويشاهد البرنامج حوالي نصف مليون مشاهد، وهو رقم كبير للغاية، خاصة إذا عرفنا أنه يُذاع يوم الجمعة مساءً (بعد ابتداء طقوس السبت) حين يمتنع اليهود الأرثوذكس البالغ عددهم حوالي مليون نسمة عن مشاهدة التليفزيون.

ولعل أثر انتفاضة الأقصى يظهر بصورةٍ أوضح في رواية أورلي كاستيل بلوم المعنونة "أشلاء بشرية". والرواية تعكس التنوع (أو ربما عدم التجانس) العرقي الذي يسم المجتمع الإسرائيلي في الوقت الحاضر. فهناك سمسار أشكنازي وفراش كردي وعارضة أزياء إثيوبية. وتحتك هذه الشخصيات ببعضها البعض في عالم تصفه الروائية بأنه "لم تسقط فيه قبة السماء على الأرض وحسب، بل مادت الأرض ذاتها. وهذا يعود إلى أن الإرهابيين (أي الفدائيين الفلسطينيين) موجودون في كل مكان". ولذا حينما تتأخر صديقة السمسار الأشكنازي فإنه يفترض على الفور أنها سقطت ضحية إحدى الهجمات الاستشهادية. لقد أصبح الرعب من الهجمة التالية معلماً أساسياً في التجمع الصهيوني إلى درجة أن الروائية تقول: "إنك حين تضع ابنتك في حافلة، فإنك كمن يلعب الروليت الروسية" (وهي لعبة انتحارية، كان يلعبها الجنود الأمريكيون في فيتنام).

ويمكننا الآن أن ننتقل من عالم الأدب والوجدان إلى عالم

الواقع والأرقام، وسنجد أن الأمر لا يختلف كثيراً. فعلى سبيل المثال، تُقدر خسائر الاقتصاد الإسرائيلي من جراء الانتفاضة بما يتراوح بين ٦ بالمئة إلى ٨ بالمئة من إجمالي الناتج القومي)يديعوت أحرونوت، ٢٨ يونيو/حزيران ٢٠٠٢)، وكان قطاع السياحة هو الأكثر تضرراً نظراً لعزوف السياح عن التوجه إلى الدولة الصهيونية بسبب المخاوف الأمنية (واشنطن بوست، ١٩ مايو/أيار ٢٠٠٢). ووصلت نسبة العاطلين عن العمل خلال عام ٢٠٠١ إلى أكثر من ٢٧٦ ألف شخص، أي ما يزيد عن ١٠ بالمئة من قوة العمل (هاآرتس، ١٣ يونيو/حزيران ٢٠٠٢ (ويتزايد بصفة مستمرة عدد المستوطنين الصهاينة الذين يتقدمون للحصول على الجنسية الألمانية، حيث بلغ ١٧٥١ في عام ٢٠٠١ (يديعوت أحرونوت، ١٧ يونيو/حزيران ٢٠٠٢). وقد نشرت إحدى الصحف أن عدد النازحين سنوياً يتراوح بين ١٥ و٢٠ ألفاً (هذا الرقم لا يتضمن بطبيعة الحال النازحين الذين يدعون أنهم تركوا إسرائيل لفترة مؤقتة). كما أن ٢٢ بالمئة من الشباب في المرحلة العمرية من ١٨إلى ٣٥ عاماً يودون النزوح عن الدولة الصهيونية. أما أرقام الهجرة إلى إسرائيل فهي تبعث على السخرية، فعدد الذين هاجروا إلى إسرائيل في الأسبوع الثاني من يونيو/حزيران ٢٠٠٢ لم يزد عن ٦١٦ منهم ٤٤٠ مهاجرين من روسيا وأوكرانيا

ولم يحضر سوى ٨ من المملكة المتحدة و١٣ من الولايات المتحدة). وقد علق أحدهم على ذلك بقوله "هذه ليست أعداد مهاجرين، إنها أعداد سياح عابرين" (موقع com.israelNN، ٩ يونيو/حزيران ٢٠٠٢). ويُلاحظ أن أكثرية المهاجرين من روسيا وأوكرانيا، أي أنهم من غير اليهود، وقد تنبأ عالم السكان الإسرائيلي سرجيو ديلا برجولا أنه في خلال ثمانية أعوام ستكون الغالبية الساحقة من المهاجرين إلى إسرائيل (٩٤ بالمئة) من غير اليهود (جيروساليم بوست، ١٢ يونيو/حزيران ٢٠٠٢).

ولا يمكن تفسير هذه الأرقام إلا في ضوء الرعب الذي يجتاح الجيب الصهيوني والذي يكمن وراءه سبب جوهري، وهو "الانتفاضة الفلسطينية".

الفهـــرس

أحدث إصدارات كتب الهلال عامى ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
يوميات طبيب وهموم أستاذ جامعى	د. نبيل عطا الله	نوفمبر	٢٠٠٣
على بهجت اول أثرى مصرى	د. أنور لوقا	ديسمبر	٢٠٠٣
قصة حياة عادية الجزء الثانى	د. يحيى الجمل	يناير	٢٠٠٤
طه حسين وثائق أدبية	نبيل فرج	فبراير	٢٠٠٤
مصر المستقبل المياه - الطاقة - الصحراء	د. رشدى سعيد	مارس	٢٠٠٤
مستقبليات	د. جلال أمين	ابريل	٢٠٠٤
عشر سنوات غيرت العالم	د. محمود سليمان	مايو	٢٠٠٤
نحو خريطة جديدة لمصر	د. محمد رياض	يونيه	٢٠٠٤
عن الكاريكاتير والأغانى والإذاعة	د. على الراعى	يوليه	٢٠٠٤
سعد زغلول فى الأدب المصرى	مصطفى بيومى	أغسطس	٢٠٠٤
رحلة جرجى زيدان إلى الاستانة عام ١٩٠٩	د . محمد حرب	سبتمبر	٢٠٠٤
المخطوطات الألفية كنوز مخفية	د. يوسف زيدان	أكتوبر	٢٠٠٤

رقم الايداع
١٨٧٦٦ / ٢٠٠٤
I. S. B. N.
977-07-1095-4

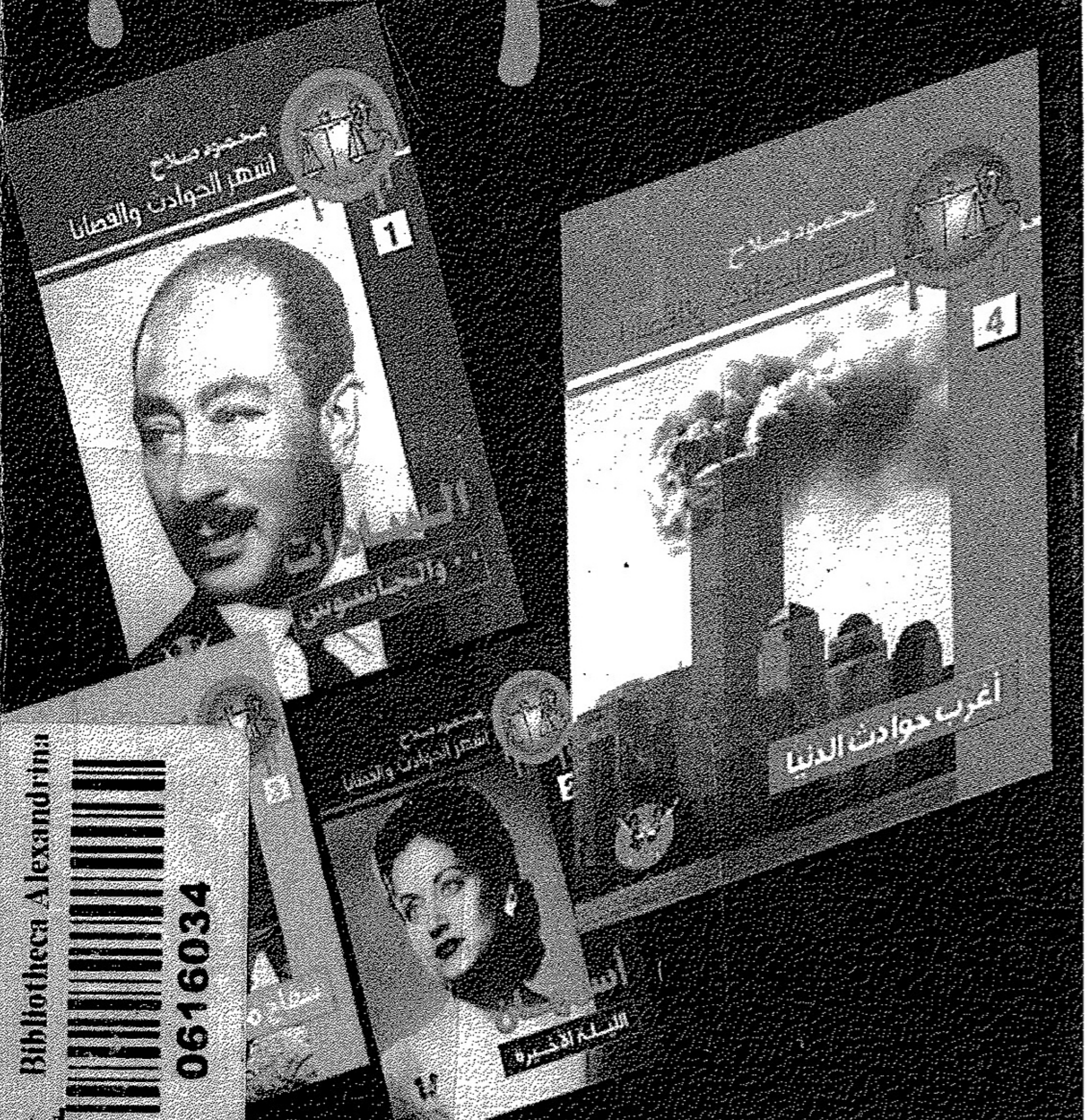
هذا الكتاب

يسعى هذا الكتاب إلى مزيد من الضوء على بعض الجوانب الأساسية المتعلقة باليهود واليهودية والصهيونية، وذلك من خلال تناول بعض الأحداث الجارية فى مسار الصراع العربى الصهيونى. إلا إن الكاتب لا يكتفى برصد الأحداث أو مراكمة المعلومات الخاصة بها، بل يحاول وضع الحدث داخل نمط متكرر متجاوزا للحدث نفسه وأكثر عمومية منه، بالإضافة إلى وضعه فى سياقه التاريخى والثقافى حتى يمكن فهمه فى أبعاده المركبة. واستنادا إلى هذا المنهج، يتناول الكاتب بالتحليل والنقد بعض الخرافات الصهيونية عن «التفرد اليهودى» و«الهوية اليهودية» و«إعادة بناء الهيكل» وغيرها.

أشهر الحوادث والقضايا

حوادث عنيفة وقضايا
روّعت الناس وصدمت المشاعر

أ. محمود صلاح



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع [illegible]
الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ [illegible]
روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٦٦١٩٧ ـ فاكس [illegible]
٤ شارع بدوي محرم بك ـ الإسكندرية